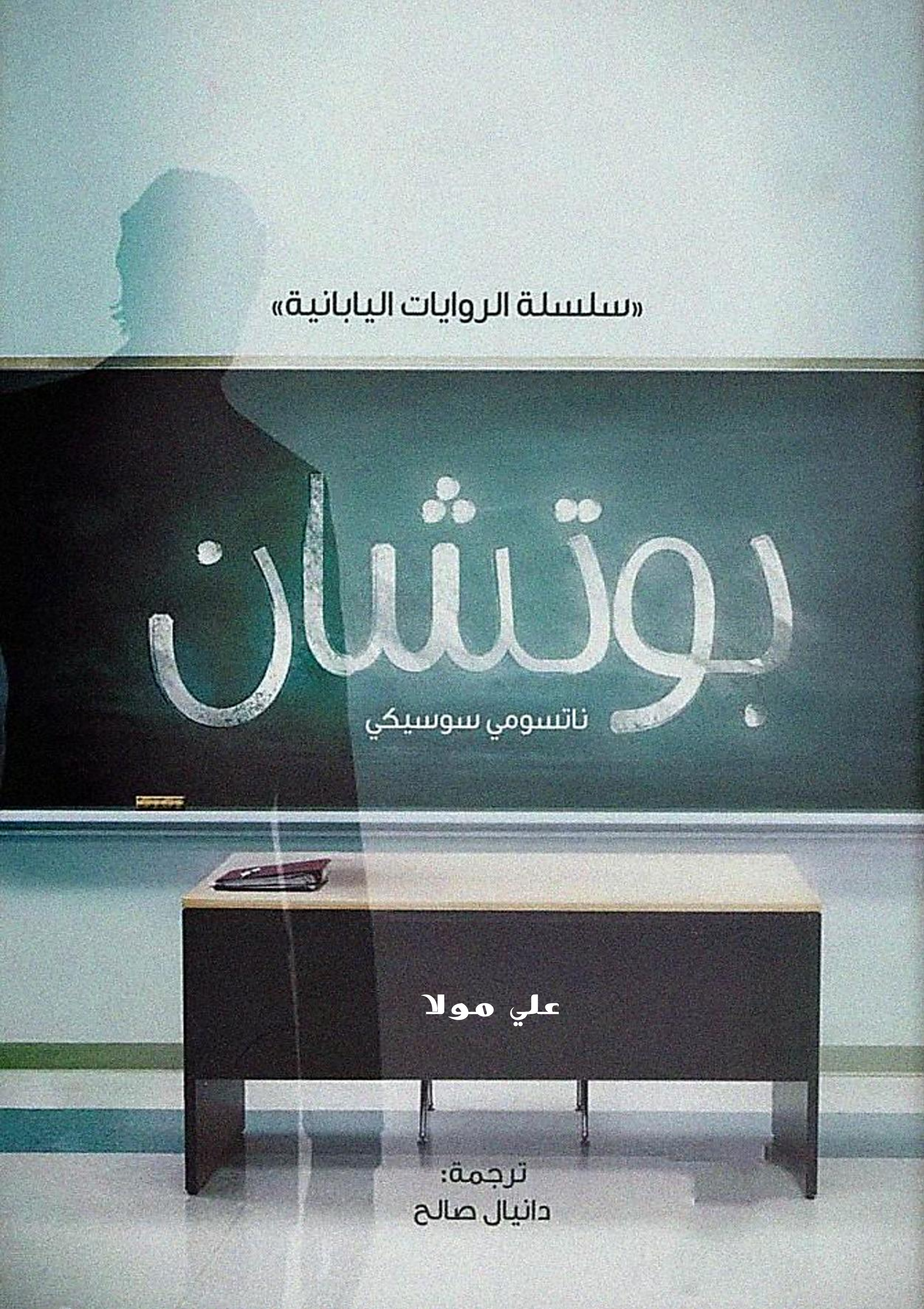
«سلسلة الروايات اليابانية»
بوتشان
ناتسومي سوسيكي
علي مولا
ترجمة:
دانيال صالح

نبذة عن المؤلف:

يعتبر ناتسومي سوسيكي من عمالقة الأدب الياباني. ولد في طوكيو عام 1867. درس الأدب الإنكليزي في جامعة طوكيو الإمبراطورية وبعد تخرّجه علم عدة سنوات في مدارس ثانوية في جزيرتي شيكوكو وكيوشو جنوب اليابان. أرسلته الحكومة اليابانية عام 1900 إلى إنكلترا لمواصلة دراساته الأدبية. وعند عودته إلى بلاده عام 1903، أصبح محاضراً في الأدب الإنكليزي في جامعة طوكيو، وكان أول ياباني يشغل هذا المنصب. انطلق في الكتابة الأدبية بموازاة عمله الأكاديمي، فصدرت له خلال السنوات الأربع التالية لعودته إلى اليابان روايات «أنا هر» و«بوتشان» و«عالم بثلاث زوايا» التي وضعته في مصاف كبار أدباء اليابان. وفي العام 1907، استقال من عمله الجامعي ليكرس وقته بالكامل للكتابة. وبعدما اتسمت أعماله الأولى بالطرافة والسخرية، نضج أسلوبه تدريجياً ليتّخذ منحى قاتماً سوداوياً وبعداً إنسانياً عميقاً. استكشف مواضيع الوحدة والعزلة وصعوبة التواصل ومشكلات الحياة العصرية وعواقبها على المجتمع والفرد في سلسلة من الروايات لقيت رواجاً كبيراً ونالت تقديراً نقدياً واسعاً، منها «سانشيرو» و«البوابة» و«المسافر» و«كوكورو». توفي عام 1916.

نبذة عن المترجمة:

شاعرة باللغة الفرنسية، لها مجموعتان شعريّتان بعنوان «حجارة ليل» صدرت في باريس عام 1984، و«الخطوات النائمة» صدرت في بيروت عام 1985. مترجمة حائزة شهادة في الترجمة من الجامعة اليسوعية- بيروت، عملت في حقل الترجمة الأدبية والشعرية باللغات الفرنسية والعربية والإنكليزية ابتداء من العام 1985 وترجمت العشرات من القصص القصيرة والقصائد في العديد من الصحف والدوريات اللبنانية والعربية عموماً. نقلت إلى الفرنسية قصائد ضمن أنطولوجيا لأعمال الشاعر اللبناني أنسي الحاج بعنوان «الأبد الطيّار» عن دار سندباد الباريسية، وأيضا مجموعة «توقيعات» للشاعر السعودي عبدالله باشراحيل. ترجمت إلى العربية كتاب «حارسة الهيكل» للكاتبة اللبنانية ماريا شختورة، ورواية «المدعوة» للأديبة الفرنسية سيمون دو بوفوار، وأعدت وترجمت بشكل مشترك مع الشاعر والكاتب اللبناني شارل شهوان أنطولوجيا للقصة القصيرة بعنوان «ثلاثون قصة من الكوكب»، كما نقلا معا إلى العربية كتاب «القسوة والصمت» للكاتب العراقي كنعان مكيّة. تعمل حالياً في مكتب الشرق الأوسط بوكالة الصحافة الفرنسية في نيقوسيا.

ناتسومي سوسيكي

بوتشان

ترجمة:

دانيال صالح

مراجعة:

د. خالد المصري

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
PL856.I83 S512 2011
Natsume, Sōseki, 1867-1916
[Botchan]
بوتشان / ناتسومي سوسيكي؛ ترجمة دانيال صالح ؛ مراجعة خالد المصري. -ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص 242 ؛ 13.5×19سم.
ترجمة كتاب: Botchan
تدمك: 978-9948-01-981-7
1. القصص اليابانية -- القرن العشرون -- المترجمات إلى العربية.
2. القصص العربية -- القرن العشرون -- المترجمات من اليابانية. أ. صالح، دانيال.
ب. مصري، خالد. ج. العنوان.
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الياباني:
Original title: Botchan
Written by Natsume Soseki
Arabic translation © Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage (Kalima), 2011
Based on the English translated edition, Botchan published by Kodansha International in 2005, translated by J.Cohn.
All rights reserved.

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن آراء الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

بوتشان

مقدمة

تسرد رواية «بوتشان» قصّة طريفة عن أستاذ شاب يتمرّد على «التقاليد» في مدرسة ريفيّة، وهي تعدُّ من النّماذج الكلاسيكية في هذا النوع الكتابي، على غرار رواية «الحارس في حقل الشوفان» للكاتب ج. د. سالينجر أو «مغامرات هاكلبيري فين» لمارك توين. تتمتّع هذه القصة بشعبيّة ورواج منقطعي النظير بين القرّاء اليابانيين الشباب وكبار السن على السواء، ولم يكن لمرور الزمن أيّ تأثير على مكانتها بين روائع الأدب الياباني، الأمر الذي حدا بالمختص في الأدب الياباني دونالد كين إلى القول إنها «ربما الرّواية الأوسع انتشارا في اليابان الحديثة».

تجري أحداث القصّة في عمق الجنوب الياباني حيث قضى الكاتب نفسه فترة من الوقت أستاذاً للّغة الإنجليزية في مدرسة للفتيان. يصل بوتشان وسط هذا العالم المحافظ الذي تحكمه تقاليد وآداب اجتماعية خاصة وينتظم وفق هرمية صارمة راسخة. غير أنّ

الأستاذ الشاب القادم من العاصمة، قلّما يكنّ احتراماً سواء للأكبر منه سناً أو لتلاميذه الفتيان الأشقياء، والنتيجة أنّه يقحم نفسه في سلسلة من الصّدامات والصّراعات الشديدة والبسيطة على السواء.

تجري معظم وقائع القصة في الصّيف على وقع أزيز الحشرات والزيزان، والحقيقة أنها رواية صيفيّة بامتياز، بخفّتها وظرفها وتسارع وتيرة أحداثها. رواية بسيطة متجذّرة في البيئة اليابانية، غير أنه حتى الذين لم يقاربوا يوماً بلاد الشمس المشرقة حيث تجري تلك المغامرات، سيجدون متعة لامتناهية في قراءتها.

■ ■ ■

تستمدّ «بوتشان» عنوانها من اللقب الذي تطلقه كيو، الخادمة المسنة الوفية للعائلة، على شخصية الرواية الرئيسة الذي يقوم أيضاً بدور السارد. ولقب بوتشان الذي يعني «المعلم الصغير» يطلق حصراً على صبية العائلات الرّاقية وفتيانها، وفي بعض الحالات على الشبان البالغين الذين لم ينضج فكرهم لسبب ما. ويمكن استخدام هذا التعبير سواء لمطابقته صفة الشخص أو من باب الألقاب الكثيرة شائعة الاستخدام في اليابان بديلاً عن الأسماء الحقيقية. ويمكن أن يعبّر، كما على لسان كيو، عن مزيج من الاحترام والحنان والحميميّة مع الشخص الذي يطلق عليه، أو يمكن إطلاقه من باب الاستخفاف والازدراء. ولهذا اللقب دلالات عدة، قد يستخدم للإشارة إليها

كلها معاً أو إلى واحدة منها تحديداً دون سواها. ومن هذه الدّلالات الابن الأصغر، وشخص ساذج عديم الخبرة، وشخص متساهل سواء كان هذا التساهل خصلة محبّبة أو مؤشّراً على استهتار لا جدوى منه، وفي بعض الحالات القصوى شخص مدلّل بغيض. وكل هذه الدّلالات، باستثناء الأخيرة، تنطبق بدرجات متفاوتة على شخصية الرواية الرئيسة. غير أنه لا يمكن اختزاله بها، بل إن بعض جوانب شخصيته على طرفي نقيض مع ما يوحي به لقبه.

بعد مضي حوالي قرن على صدور الرواية، ما زالت «بوتشان» من الروايات التي تلقى أكبر قدر من الرّواج وتحوز أكبر عدد من القرّاء والمعجبين في اليابان. ومن اللافت للنظر أنها احتفظت بشعبيتها على الرغم من أن البلاد التي تصفها باتت جزءاً من الذاكرة، بلاد كانت تطبّق برنامج تحديث مكثفاً ومسرّعا بدّل جميع أوجه الحياة فيها، في حين بقيت حقبة الإقطاع حية في الأذهان. كما واصلت الرواية نجاحها حتى بعد إدراجها ضمن المناهج المدرسية، وهو اختبار يمكن أن يقضي على أي رواية أقل متعة منها. تتميز رواية «بوتشان» بأسلوب لاذع ثاقب، وروح ظريفة نضرة على الرغم من حدّتها وتصلّبها، وبحس فكاهيّ متّقد، وتتفرّد بمجموعة واسعة من الشخصيات الفذّة التي عرّف عنها الكاتب بألقاب لافتة يصعب نسيانها. لكن على الرغم من كل هذه المزايا، ثمة قدر من الغرابة في

تلك الشعبية التي تتحدّى الزمن، وكأنها تفاجئ بعض الشيء.

فلا يمكن اعتبار هذه الرواية عملاً أدبيّا مصقولاً على الصعيدين الفني والكتابي، بل إنّ جملها وبنيتها غالباً ما تنمّ عن ركاكة وتلعثم، ولا عجب في ذلك إذ إنّها كانت بالأساس نصّاً عفوياً انبثق وكأنما دفعة واحدة من مخيّلة أستاذ شاب في اللغة الإنجليزية يبدو أنه كان يسعى إلى تصريف إحباطه وخيباته والتّرفيه عن دائرة صغيرة من الزملاء أكثر مما كان يلاحق الشّهرة والخلود. وهي لا تتضمّن سوى القليل من المؤشرات إلى ذاك العمق النفسي والفلسفي الذي يطبع أعمال ناتسومي سوسيكي اللاحقة والذي وضعه بصورة نهائية في مصاف كبار روائيّي اليابان الحديثين، كما أنها تفتقر إلى تلك الإيحائيّة الرهيفة والبصيرة النافذة والبراعة الخلاقة التي تميز بها العديد من الأدباء اليابانيين اللاحقين. وإذا كان يشار في بعض الأحيان إلى طبيعة بوتشان النزيهة والصادقة بوصفها تجسيداً للشخصية اليابانية «النمطية»، فإن سوسيكي يصوّره ومعه بعض التوائم الروحيين النادرين له، على أنهم الاستثناء في مجتمع يهيمن عليه الخبث والمكر والنفاق.

ولعل شعبيّة الرواية تكمن فيما سلف بالذّات. فربما كان خروجها عن الأنماط الأدبية المعروفة واختلافها عن العديد من الروايات الكلاسيكية الأخرى هو تحديداً ما يجعلها تواصل اجتذاب أجيال

من القرّاء اليابانيين، حتى وإن تبدّل العالم من حولهم وبشكل جذري أحياناً. يروي بوتشان قصّته بصوت مذهل بفرادته، لا يشبه أي صوت سبقه في الأدب الياباني، ولم يأت بعده صوت يشبهه. صوت مضطرب هائج أحياناً، غير أنه على الدوام متّقد، صريح وصادق. لغة بوتشان عاميّة يوميّة بصورة أساسية، غير أنها غالباً ما تطعّم بنفحة أدبية عند المحطات المحورية من القصة. يشعر القارئ أنه أمام شخصية فاتنة محببة، شخصية حميمة بصراحتها النّضرة، قد تتبجّح أحياناً، غير أنّها لا تتعالى مرة. وذلك التناقض بين صراحة بوتشان وصدقه، وبين مراوغة العديد من الشخصيات الأخرى وغرورها، هذا التناقض يزيد من جاذبية الشخصيّة وسحرها.

ولعلّ أكثر ما يجذب القراء إلى هذا الكتاب هو روحه النزقة المتمردة التي لا تقيم أيّ اعتبار لكل ما يخرج عن المنطق حتى وإن كان من المسلّمات، واللغة التي يتكلم بها بوتشان تليق بشكل رائع بنبرة الكتاب هذه. ففي مجتمع وثقافة وأدب يهيمن عليها الإذعان لكلّ أشكال السلطة وتبقى فيها الصّيغة غير المباشرة الوسيلة الفضلى أو على الأقلّ الوحيدة المقبولة للتّعبير عن الخواطر والمشاعر، يأتي بوتشان ليتحدّى دون أي تردّد أو أسف كلّ قيود الحياة العائلية وعادات النظام المدرسي، ولا يتوانى في أي لحظة عن فضح أي ادّعاءات ودسائس، الكبرى منها والصّغرى، كائناً مَن كان الذي

يقف خلفها. ولا شكّ أن هذا ما كان له وقع قوي في نفوس القرّاء الذين يشعرون بالنقمة ذاتها، غير أنّهم يجدون أنفسهم مكبّلين وعاجزين عن ترجمتها في الواقع أو بمجرّد التعبير عنها.

وربّما لقيت هذه المواضيع تجاوباً أيضاً لدى القرّاء غير اليابانيين الذين ليس لديهم أيّ اتصال مباشر بنمط الحياة اليابانية، إذ قد تكون بمثابة حافز يفتح عيونهم على وهم يعمل الإعلام وكذلك النظام الأكاديمي منذ زمن بعيد على ترسيخه وتغذيته، وهو وهم النّظام الاجتماعي المتناغم المكتفي بنفسه. والأمر نفسه ينطبق على نظرة بوتشان أو بالأحرى ناتسومي سوسيكي نفسه، إلى الحياة العائلية. فهو يصفها بعيني طفل غير أن وصفه إياها يأتي بارداً إلى حد مدهش ومجرداً من أي انفعال أو أحاسيس. ولا شك أن في ذلك مغالاة متعمّدة سعياً لترك أكبر أثر نفسي ممكن في نفوس القراء، لكن يمكن قول الأمر نفسه في استحضار أكثر شيوعاً للطفولة يحتفي بحميميّتها وفضاءاتها الدافئة، وهي أجواء نجدها في العديد من المسلسلات التّلفزيونية اليابانية.

■ ■ ■

إن كانت نبرة بوتشان الصّريحة وروحه الثّائرة المتمرّدة من مقوّمات نجاح هذه الرواية واحتفاظها بمكانة مميّزة بين الأعمال الأدبيّة، فإن بعض العناصر الأخرى في هذه الرواية قد تبدو في

المقابل متقادمة. فقد كتب ناتسومي سوسيكي في الحقبة الأخيرة من أدب ما قبل فرويد، ولا يسعنا الآن في زمننا هذا سوى أن نعيد قراءة أعماله من وجهة نظر فرويدية (أو ما بعد فرويدية). لكن علينا أن نتذكّر أن سوسيكي نفسه لم يكن ينظر إلى الأمور من هذه الزاوية، ولا القرّاء في زمنه. نادراً ما تنساق شخصية بوتشان إلى الاستبطان النفسي الذاتي أو لأيّ من أشكال التحليل الذاتي، حتى بالمقارنة مع معايير شخصيات أدب التخييل في أيامه، وفي تناقض حادّ مع شخصيات أعمال سوسيكي اللاحقة. كما أنه لا يخضع لضرورات اللّيبيدو التي باتت من المسلّمات في أيامنا. إنه في الواقع من الشخصيات النادرة (نفترض أنها ليست من مثليّي الجنس) التي تبدو محصنة ضد مفاتن الغيشات (يزعم أنها لا تقاوم)، في حين لا يظهر بعض زملائه الكثير من البراءة في هذا المجال. الشخصيّة النسائية الوحيدة التي يكنّ لها أكثر من مشاعر عابرة هي الخادمة المسنّة كيو التي يجعل منها إخلاصها وحنانها العظيمان بالنسبه له بديلاً عن شخصية الأم، بعيداً عن أية إغراءات وإغواءات. ولا شك أن ذلك ينتقص من مصداقيّة الكتاب أو من أهميّته بنظر بعض القراء.

قد ينساق البعض لتصنيف رواية «بوتشان» بين كتب الفتيان، نظراً إلى شباب الشخصية الرئيسية وضعف إيحاءاتها الجنسية

وحصول القسم الأكبر من أحداث القصة في مدرسة المرحلة المتوسطة. فحتى لو ركّزنا على العناصر الأكثر نضوجاً، وفي طليعتها المكائد والدّسائس التي تحاك بين المعلمين والتي تصبح تدريجياً مع تطور الوقائع محور السرد، تبقى الرواية مطبوعة بصورة عامة بوجهة نظر ذكورية. أما الشخصيات النسائية، فتوصف بشكل سطحيّ سريع، وتبقى أدوارها محصورة في مواكبة سير الحبكة التي تركّز على مغامرات ومآس ونزاعات تجري بين الشخصيات الذكورية. والواقع أن الأمر نفسه ينطبق على معظم نتاج سوسيكي بما فيه رواياته اللاحقة الأكثر تعقيداً وعمقاً، حيث تقوم أحداث القصة والقسم الأكبر من التفكير والتأمل فيها على الشخصيات الذّكورية، فيما تكتفي الشخصيات النسائية بتكبّد الأحداث أو تحمّلها، ولا يعار الاهتمام ذاته لما يجول في فكرها. لكن وعلى الرغم من ذلك، ما كان من الممكن أن تحظى رواية «بوتشان» بهذا الحجم من الشعبيّة لو لم تلق استحساناً كبيراً بين النساء أيضاً. فقد تكون النساء اللواتي يعانين القيود الاجتماعية ذاتها كالرجال فضلاً عن قيود إضافية خاصة بهنّ، يجدن متعة «بالوكالة» في صراحة بوتشان وتحدّيه للقواعد والنظام القائم.

■ ■ ■

تلعب الأسماء، وبصورة خاصة الألقاب، دوراً مهمّاً في هذه

الرواية. فبوتشان لا يذكر مرّة باسمه الحقيقي. والشخصية الوحيدة التي يشار إليها باسم حقيقي هي الخادمة كيو، وهو اسم ذو دلالة رمزية كبيرة حيث يعني باليابانية «نقية»، وهي فعلاً امرأة تتميز ببساطتها وسذاجتها وإخلاصها الذي لا يتزعزع لبوتشان، وكلّها ميزات ورثتها من المجتمع الإقطاعي الذي نشأت فيه، وتتباين مع ما يطبع الزمن الحاضر من تقلبات متواصلة وانتهازية فظة.

ويبدو أن الألقاب التي يطلقها بوتشان على زملائه في المدرسة هي في طليعة ما يستهوي القراء اليابانيين في الرواية، فيستمتعون بمقارنتها بالألقاب التي ابتكروها بأنفسهم لأساتذتهم. وما يزيد من متعتهم على الأرجح هو أن يروا أستاذاً بالذات يلعب لعبة الألقاب هذه التي يتعاطاها التلاميذ إجمالاً. وكل من هذه الألقاب يحمل باللغة اليابانية دلالة خاصة، يجدر هنا تقديم شرح مقتضب لها.

فاللّقب الذي يطلقه بوتشان على المدير هو «تانوكي»، وهو حيوان من فصيلة الراكون يترجم بصورة عامة بـ«الغرير»، غير أنّه معروف في الفولكلور الياباني بأنه كائن محتال يمتلك القدرة على خداع البشر أو حتى سحرهم.

لقب مساعد المدير مستمدّ من القميص القطني الأحمر الذي يرتديه باستمرار رمزاً لتطلّعه إلى نمط حياة «حديث»، أو بالأحرى استعارة بعض مظاهر الحداثة ولوازمها الأكثر جلاء في محاولة غير

مجدية لإخفاء طبيعته الدّفينة المجبولة بالخبث والحقارة والرّياء.

صديق القميص الأحمر وشريكه في مؤامراته أستاذ الفن يوشيكاوا يلقّب بـ«نودايكو»، وهي كلمة يابانية تشير إلى المهرّجين المتزلفين الذين كانوا يلازمون حفلات المتعة واللّهو فيقومون خلالها بالترويح عن المحتفلين بوسائل شتى، منها المديح والتملّق والتندّر، ويتعقّبونهم في تجوالهم بين مقاهي الشاي والمطاعم ومسرح الكابوكي وبيوت الدعارة [1].

يصبح أستاذ اللغة الإنجليزية شاحب السحنة كوغا في الرواية «اوراناري هيوتان»، وهو قرع شاحب منتفخ ينبت عند أطراف كرم فقد حيويته. قد يبدو هذا اللقب من توصيفات بوتشان السّاخرة التي لا تقيم أيّ اعتبار لزملائه، غير أنه سرعان ما يكشف عن احترام ومودّة كبيرين لهذه الشخصية سيّئة الطالع، لاعتبارها من النماذج النادرة بين زملائه للنزاهة والطيبة ونبل الأخلاق.

أما زميل بوتشان، أستاذ الرياضيّات المشاكس هوتا ذو الشعر القصير المنتصب على رأسه بخشونة، فيحمل لقب «ياماراشي» أو الشّيهم. وإن كان هذا الحيوان الصغير لا يحمل دلالات جلية مثل الغرير، إلا أنه يناسب تماماً هوتا وشخصيته

(1) بما أنه لا يوجد تعبير للإشارة إلى شخص يزاول مثل هذا النشاط بالعربية، ولو انّ هذه النماذج من الأشخاص موجودة بالتأكيد أينما كان، فقد تم اعتماد كلمة «العلّيق» علّها تعبّر على الأقل عن الطّابع الطّفيلي للكلمة الأصل.

النزقة سريعة الانفعال والمتعنّتة.

وأخيراً هناك «الأيقونة»، الشخصية النسائية الوحيدة إلى جانب كيو التي تلعب دوراً مهماً في القصة. وان كان لقبها يوحي مثل اسم كيو بالنقاوة الناصعة، إلا أنه أطلق عليها من باب التهكّم والسخرية لتباين شخصيتها مع فضائل كيو البسيطة والمتجذّرة عميقاً في نفسها. فذلك اللّقب المستوحى من الحضارة الغربية والذي أطلق عن غير جدارة على تلك الفتاة الشابّة، يفضح فيها الأطباع المتقلّبة السطحية التي كان سوسيكي يندّد بانتشارها السريع في اليابان مع انفتاح البلاد على الحداثة والتجديد.

■ ■ ■

تجري وقائع الرواية بجزئها الأكبر في مدينة ماتسوياما في جزيرة شيكوكو، التي كانت فيما مضى مدينة إقطاعية بنيت حول قلعة وتحوّلت إلى عاصمة محلّية، وقد قضى فيها ناتسومي سوسيكي نفسه عاماً أستاذاً للغة الإنجليزية في مدرسة متوسطة. وكانت المرحلة المتوسطة في تلك الفترة تستمرّ خمس سنوات، وهذا ما يفسر كون بوتشان لا يكبر تلامذة سوى بسنوات قليلة وكون بعضهم أطول منه قامة. يطعّم سوسيكي حوارات الشخصيات المحلية في روايته بعبارات من لهجة سكان ماتسوياما، مركّزاً بصورة خاصّة على اللازمة التي يرددونها باستمرار «أليس كذلك» أو «ألا تعتقد»،

فيكرّرها الكاتب بعدهم ويسرف في تكرارها في المقاطع الحواريّة. والمدينة ملاصقة لمنتجع للمياه المعدنية الساخنة يتّخذ أهمية في الرواية حيث يمثّل بنظر بوتشان إحدى المزايا النادرة في ذلك المكان المضجر. وبوتشان يتباهى مثل مبتكره بانتمائه إلى إيدو، ويفاخر بتلك الأطباع النزقة المتهورة التي تميز أبناء عاصمة نظام الشوغون السابقة قبل أن يغيّر اسمها لتصبح طوكيو مع اعتمادها عاصمة للحكم الجديد عام 1868. وعلى الرغم مما تتضمّنه الرواية من انتقادات كثيرة لتخلّف الحياة وتفاهتها في تلك الأنحاء الريفية، فإن القطاع السياحي في ماتسوياما يجني الكثير من شعبيّة الكتاب. غير أن سوسيكي يحرص دوماً على عدم ذكر اسم المدينة بشكل صريح، كما أنه يتجنب تحديد الحرب التي يجري الاحتفال بالنصر فيها في الفصل العاشر، ولو أنه يفترض بصورة عامة أنها الحرب الروسية اليابانية التي انتهت عام 1905 في السنة التي سبقت صدور «بوتشان».

الفصل الأول

ورثت عن عائلتي طِباعاً شقيّة متهورة لم تسبّب لي منذ الطّفولة سوى المتاعب. كنت لاأزال تلميذاً في المدرسة الابتدائية حين قفزت مرّة من إحدى نوافذ الطابق الثاني من المبنى، فبقيت أسبوعاً كاملاً عاجزاً عن المشي. قد يتساءل بعض الناس لماذا أقدم على مثل هذا العمل الخطير. لم يكن ثمة أي دافع محدّد خلف تصرّفي. كلّ ما في الأمر أنني كنت ذات يوم أمدّ رأسي من نافذة مبنى المدرسة الجديد حين أخذ أحد رفاقي في الصف يهزأ بي ويقول إنني مهما تظاهرت بالقسوة والخشونة، فأنا في الحقيقة جبان ولن أجرؤ إطلاقاً على القفز من تلك النافذة. حملني حارس المدرسة على ظهره وأعادني إلى المنزل، وهناك ثارت حفيظة والدي وقال إنّه لا يسعه أن يصدّق أن أحداً ما يمكن أن يتطوع ويقفز من نافذة في الطابق الثاني فيبقى عاجزاً عن المشي. طمأنته بأنّني في المرّة المقبلة، سوف أنجو من قفزتي دون ضرر.

أهداني أحد أقربائنا مدية جميلة مستوردة. ذات مرة كنت أرفعها عالياً ليرى أصدقائي شفرتها تلمع في الشمس، فقال لي أحدهم إنّها ربما لمّاعة لكنها على الأرجح غير حادّة لا تقطع شيئاً. أجبته أن مديتي تقطع أي شيء وأنني سوف أثبت له ذلك إن لم يكن يصدّقني. تحداني أن أحاول قطع إصبعي بها فقلت له «حسناً، انظر»، وقصصت قطعة من إبهامي الأيمن. من حسن حظّي أن المدية كانت صغيرة وعظمة إبهامي صلبة قوية، والنتيجة أن إبهامي لا يزال موصولا بيدي، مع أنه يحمل ندبة لن تزول طوال حياتي.

كان لدينا على مسافة عشرين خطوة إلى شرق منزلنا بستان صغير مزروع بالخضار تتوسّطه شجرة كستناء عالية. كانت ثمارها تلك بالنسبة لي أغلى من الحياة نفسها. في موسم الكستناء كنت أخرج حالما أستيقظ من الباب الخلفي فألملم تلك المتساقطة أرضاً لتناولها في المدرسة. الحديقة المحاذية لبستاننا غرباً كانت لمسترهن يدعى ياماشيرو يا. كان لديه ابن اسمه كانتارو يقارب الثالثة عشرة من العمر. كانتارو كان جباناً فعلاً، لكنّ ذلك لم يمنعه من تسلق سياج الخشب والخيزران لسرقة الكستناء من بستاننا. اختبأت ذات ليلة في ظل البوابة وضبطته أخيراً متلبّساً بالجرم. حين رأى أنني قطعت عليه طريق الفرار، انقضّ علي بكل ما لديه من قوة. كان يكبرني بسنتين وكان قوي البنية على الرغم من أنه جبان. حاول أن ينطحني في

صدري برأسه الضخم المفلطح، لكنّ رأسه علق داخل كمّ الكيمونو الذي كنت أرتديه. لم يكن في مقدوري استخدام ذراعي ورأسه محشور في الكمّ، فاكتفيت بالتلويح بها في حين راح رأسه يتأرجح معها إلى الأمام وإلى الخلف. وحين لم يعد يحتمل عضّني في ذراعي. شعرت بألم شديد فدفعته إلى السياج ثم قلبته من فوقه فسقط من الجانب الآخر. أرض ياماشيرو يا كانت منخفضة بمقدار ست أقدام عن مستوى بستاننا. حطم كانتارو قسماً من سياج الخيزران وهو يهوي في أرضه مطلقاً أنينا يدعو إلى الرثاء. ومع سقوطه انشطر كمّي فاستعدت أخيراً حركة ذراعي. حين قصدت والدتي ياماشيرو يا في تلك اللّيلة لتقديم اعتذاراتها، نجحت في استرداد الكمّ.

لم تقتصر متاعبي على ما ذكرت، بل وقعت في الكثير من الورطات. ذات مرة ذهبت مع كاني كو ابن النجار وكاكو ابن بائع السمك الجوال، وخربنا بستان موساكو المُسِنّ المزروع بالجزر. كان موساكو فرش على بقعة من أرضه لم ينبت فيها الجزر بعد بساطاً من القشّ شكّل لنا الثلاثة حلبة سومو. تصارعنا ساعات وحين فرغنا، كانت نبتات الجزر قد سوّيت أرضاً تحت أقدامنا. وفي مرة أخرى، سددت قسطل الماء في حقل فوروكاوا. كانت قصبة جوفاء غليظة مطمورة في جوف الأرض تعبر الحقل وتروي نبتات الأرزّ المزروعة فيه. لم أكن أدري سبب وجودها هناك وذات يوم حشوت فوّهتها

بالحصى والقشّ إلى أن توقفت المياه عن التدفق. وفي ذلك المساء بينما كنت أتناول العشاء في منزلي، دخل علينا السيد فوروكاوا الطاعن في السن على حين غرّة زاعقاً ووجهه قرمزي من شدة الغضب. أذكر أن والديّ اضطرّا إلى تعويضه بمبلغ من المال.

لم يظهر لي والدي يوماً أيّ حنان ولطالما فضّلت والدتي شقيقي الأكبر عليّ. كان وجهه شاحباً ينشر الخوف، وكان يهوى تمثيل مشاهد من مسرحيات كابوكي[1]، وتحديداً الأدوار النسائية فيها. لم تقع عينا والدي عليّ مرة إلا وردّد لي أنني سأظلّ طوال حياتي عديم الفائدة، في حين كانت والدتي تقول إنني فظّ وشرس إلى حد أنها تخشى عليّ في المستقبل. حسناً، في الحقيقة إنني لم أكن يوماً ذا نفع. وإذا أنعمتم النظر في ما آلت إليه الأمور، فستجدون أنّها كانت محقّة بأن تقلق علي. صحيح أنني نجحت في تفادي دخول السجن حتى الآن، لكنّ هذا أقصى ما يمكنني الاعتداد به.

مرضت والدتي، وقبل يومين أو ثلاثة فقط من وفاتها، كنت أقوم بشقلبات بهلوانيّة في المطبخ فاصطدمت بالفرن وأصبت برضوض في ضلوعي. أحسست بألم فظيع. جنّ جنون والدتي

(1) نوع من أنواع المسرح الياباني التقليدي يقوم على الرقص والغناء ويؤدي فيه الرجال الأدوار النسائية. وفي هذا النوع المسرحي، يقوم الممثلون بطلي وجوههم والتبرج حتى أنه يمكن للمشاهدين أن يخمنوا الشخصية التي يجسدها كل منهم من زيه وتطرية وجهه.

من شدّة الغضب وقالت إنها لم تعد تريد رؤيتي، فرحلت ومكثت في منزل أحد أقربائنا. وبعد أيام وصلنا خبر وفاتها. لم يخطر لي يوماً أنّها ستقضي بمثل هذا الوقت القصير. كان يجدر بي أن أحسن التصرّف أكثر، لكنني لم أكن أعرف أنّ مرضها شديد إلى هذا الحد. حين عدت إلى المنزل، قال لي شقيقي إنّني عار على العائلة وإنه إن قضت والدتي بهذه السرعة، فبسببي أنا. غضبت كثيراً وصفعته، الأمر الذي أوقعني في ورطة أكبر.

بعد وفاة والدتي، أكملت حياتي مع والدي وأخي. كان والدي خمولاً، لا يكلّف نفسه عناء القيام بأي شيء. ما إن أعبر أمامه حتى يكرر لازمته بأنني غير نافع. لم أفهم يوماً ما الذي زرع هذه الفكرة في رأسه. فالأمر الذي لا يقبل الجدال هو أن والدي كان غريب الأطوار! شقيقي كان يطمح لأن يصبح رجل أعمال وكان يواظب على درس اللغة الإنجليزية. على أية حال، كان ذا طبع أنثوي بعض الشيء وخبيثاً، ولم نكن نتّفق. جلسنا مرة نلعب الشطرنج فباغتني بنقلة ماكرة ثم جلس مهللاً شامتاً، في حين تململت وضقت ذرعاً في مكاني. وتملّكني غضب شديد فتناولت أحد أحجار اللعبة ورشقته به. أصابه إصابة أليمة بين عينيه وراح ينزف، فذهب وشكاني لوالدي الذي أعلن على الفور أنه سيحرمني من الميراث.

ظننت أن الأمر قد حسم وأنني سأجرّد من الإرث مثلما قال

بكلّ بساطة، غير أن العجوز كيو التي كانت تعمل خادمة في منزلنا منذ عشر سنوات، جاءت تتوسّله باكية، فهدأ خاطره في نهاية الأمر. على الرغم من كلّ ذلك، لم يكن والدي يرهبني بصورة خاصة، بل كنت أشعر بشكل أساسي بالأسف على كيو. فهي بحسب ما قيل لي متحدّرة من عائلة مرموقة، لكنّها جرّدت من ثروتها عند سقوط نظام الشوغون[1] وانتهى بها الأمر خادمة في المنازل. تلك الظّروف جعلت منها الآن مجرد امرأة عجوز مسكينة. لا أدري أيّ رابط روحي كان يقربنا، لكنها لسبب أجهله كانت تكن لي حناناً عظيماً. كان الأمر غريباً حقاً. والدتي نفسها سئمت مني قبل ثلاثة أيام من وفاتها، والدي لم يكن يدري ما يفعل بي، جيراننا جميعهم يعتقدون أنني ولد لا خير فيه ويتجنّبون التعامل معي. أما تلك المرأة المسنة، فكانت مولعة بي تماماً. أنا من جهتي سلمت بأنني لست من الصنف الذي يستسيغه أي كان، ولم يعد يزعجني أن يعاملني الآخرون وكأنّني غبار، وهذا ما كان يجعلني أستغرب اهتمام كيو لأمري إلى هذا الحد. أحياناً حين تكون في المطبخ ولا يكون هناك أحد في الجوار، كانت تثني علي وتتغنّى بما تراه فيّ من «أطباع طيّبة مستقيمة». لم يكن لديّ أي تصور لما كانت تتحدث عنه. فلو كنت

(1) بدء الفترة الحديثة من تاريخ اليابان مع إرغام الشوغون على الاستقالة في 1868 وعودة الإمبراطور ميجي إلى السلطة وإلغاء النظام الإقطاعي السابق.

أتمتّع حقاً بمثل هذه الأطباع الحميدة، لكان يجدر بالآخرين معاملتي بطريقة أفضل بقليل. كلما كانت كيو تبادرني بمثل هذا الكلام كنت أجيبها بأنني لا أحتمل الإطراء، فتنظر إليّ بإعجاب وتقول إن هذا يدلّ على مدى طيبتي. كانت وكأنما تعتزّ بصورة عني من نسج خيالها. كان في الأمر سرّ يبعث الريبة.

ازداد حب كيو لي بعد وفاة والدتي. أحياناً كنت في قرارة نفسي أتساءل عن السبب. لم أكن مرتاحاً للأمر وتمنيت لو تقلع عن ذلك. وجدت الوضع مثيراً للشفقة. لكنّها ظلت تدلّلني. كانت تنفق أحياناً من نقودها الخاصّة لتشتري لي سكاكر وحلوى. وحين يشتدّ البرد في الليل، كانت تخرج خلسة وتشتري دقيق الحنطة فتحضر إلى جانبي بعدما أذهب إلى الفراش وتضع قرب وسادتي كوباً ساخناً من العصيدة يتصاعد منه البخار. أحياناً أيضاً كانت تشتري لي طبقاً ساخناً من يخنة النودلز. ولم يكن الأمر يقتصر على الطعام، بل كانت تحضر لي كل أنواع الهدايا من جوارب وأقلام ودفاتر. حتى أنّها مرّة بعد مضي سنوات، أعطتني ثلاثة ينات وادّعت أنه قرض في حين أنني لم أطلب منها تسليفي أيّ مبلغ. أحضرت المال من تلقاء نفسها إلى غرفتي وقالت إنّه من الصعب عليّ بالتأكيد تدبر أمري دون مصروف جيب وأن عليّ بالتالي أخذ المال وإنفاقه على ما أرغب فيه. قلت لها بالطبع إنني لست بحاجة إلى المال لكنها أصرّت إلى أن

أخذته. في الواقع إنني كنت سعيداً جداً بحصولي على المبلغ. وضعت الأوراق المالية الثلاثة في صرّة وحشرتها في ردائي قبل أن أدخل إلى المرحاض، وهناك ما كان مني إلا أن أسقطتها مباشرة في البالوعة. لم يكن بوسعي سوى العودة مطأطئا لأشرح لكيو ما حصل. هبّت على الفور وتناولت قصبة وأعلنت أنها ستصطاد الصرّة لي من الحفرة. بعد قليل سمعت طرطشة مياه قرب البئر. هرعت لمعرفة ما يجري فرأيتها تمسك بالصرّة معلقة بشريطها عند طرف القصبة وتحاول غسلها. فتحناها ووجدنا الأوراق المالية باهتة الألوان وملطّخة ببقع داكنة. جفّفتها كيو فوق المشواة وناولتني إياها مجدداً معلنة لي أنها على ما يرام الآن. شممتها، فكانت رائحتها كريهة. قلت لها ذلك فطلبت مني أن أعطيها إياها لتبدّلها لي. لست أدري كيف تدبّرت الأمر لكنّها نجحت في تبديلها بثلاث قطع نقدية من فئة ين واحد. لم أعد أذكر ما اشتريته بهذه النقود. قلت لها إنني سأسددها لها قريباً، لكنني لم أفعل يوماً والآن أتمنى لو أستطيع أن أرد لها المبلغ أضعافاً، لكنّ ذلك لم يعد ممكناً.

كانت كيو تحرص دائماً حين تعطيني تلك الهدايا، على اقتناص لحظة لا يكون فيها والدي أو شقيقي في الجوار. لكن أكثر ما كنت أبغضه هو الحصول على شيء لي وحدي خلسة عن الجميع. صحيح أنني لم أكن على علاقة طيبة مع شقيقي، لكن هذا لا يعني أنّني كنت

أفرح بالحصول على سكاكر وأقلام ملونة من غير أن يدري. سألت كيو لماذا كانت تجلب لي دائماً هدايا ولا تعطي شقيقي شيئاً. أجابتني دون أن يكشف وجهها عن أي تعبير أنه ليس بحاجة إلى هداياها إذ أنّ والدي يقوم بالواجب على أفضل وجه. لم يكن كلامها منصفاً في الواقع. لا شكّ أن والدي كان قاسيا ومتصلّبا، لكنّه لم يكن من النوع الذي يفضل شقيقي عليّ على هذا النحو. غير أن كيو كانت مقتنعة بذلك. لا بدّ أنها كانت مولعة بي حقاً. لم تكن متعلّمة البتّة ولو أنها من عائلة عرفت الأمجاد في أيامها، ولم يكن بوسعي سوى أن أسلّم بالأمر. لكنّ المسألة لم تكن تقتصر على هذا القدر، بل كان مدى شغفها بي مخيفاً حقاً. كانت على ثقة كاملة بأن مستقبلاً عظيماً ينتظرني وبأنني سأصبح رجلاً مرموقاً وناجحاً. أما شقيقي، فلم تكن ترى فيه أيّ حسنة ما عدا لون سحنته البيضاء، وكانت تتوقع له أن يبقى نكرة طوال حياته. كانت مؤمنة بكل بساطة بأنّ الذين تحبّهم سيحققون لا محال إنجازات كبرى، في حين يظل الذين لا تستلطفهم محكومين بالفشل، ولا مجال لإقناعها بغير ذلك. لم يكن لديّ في تلك الفترة أيّة فكرة عما سأفعله بحياتي. لكنّ كيو كانت تصرّ وتردّد أنني سأصبح شخصية مهمة، حتى أنني بدأت أشعر تدريجياً بأن ذلك يمكن أن يتحقق. يبدو الأمر سخيفاً حين أفكّر به اليوم. سألتها مرة كيف تتصوّرني في المستقبل، لكن تبين

أنها لم تكن أكثر علما بمصيري مني. كل ما كانت واثقة منه هو أنني سأملك عربتي الخاصة يجرّها حمّال وأجول بها المدينة، وسيكون لي منزل ذو مدخل رائع.

وفي تصورها للمستقبل، كانت كيو ترى نفسها تنتقل للعيش معي حين أستقلّ ويصبح لي ذلك المنزل، وكانت تتوسّل إليّ باستمرار أن أسمح لها بالإقامة معي. صرت أنا نفسي مقتنعاً بأنني في نهاية المطاف سأتدبّر أمري بطريقة ما لامتلاك منزل خاصّ بي، فوعدتها بأنّني سأصطحبها معي. كانت تطلق العنان لمخيّلتها وتسألني أحياناً إن كنت أفضّل العيش في حي كوجيماشي أم في حي أزابو، أو تنصحني بنصب أرجوحة في الحديقة أو تأثيث غرفة على الطراز الغربي، وكأنها تخطط كل شيء مسبقاً بأدنى التفاصيل. لم أكن أكترث إطلاقاً في تلك الفترة لأمور مثل اقتناء منزل. لم يكن لديّ أي اهتمام بالمنازل، أكانت من الطّراز الغربي أو الياباني، وحين كانت كيو تنطلق بمخيّلتها الجامحة، كنت أقول لها: إنني لا أرغب في أي أملاك وثروات، غير أنّها كانت تجد في كلامي ذريعة لامتداحي على ترفّعي وقلبي النقي. مهما قلت، كانت كيو تجد في الأمر ما يدعو إلى الثناء.

استمرّت حياتنا على هذه الشاكلة نحو خمس أو ست سنوات بعد وفاة والدتي، والدي ينهرني وشقيقي يتشاجر معي في حين

تدلّلني كيو وتغدق عليّ الحلوى والمديح. لم أحلم يوماً بأكثر من ذلك، كنت راضياً بوضعي كما هو، مقتنعا بأن وضع الأطفال الآخرين شبيه به نوعا ما. غير أن كيو لم تكن تفوّت فرصة إلا وتتحسّر عليّ، إلى أن اقتنعت فعلاً بأنني فتى مسكين وتعيس مثلما تقول. وما عدا ذلك، لم يكن هناك ما يزعجني على الإطلاق سوى أنّ والدي لم يكن يمدّني بأية نقود.

بعد ست سنوات على وفاة والدتي، أصيب والدي بسكتة في شهر يناير وتوفّي. وفي أبريل من السنة ذاتها، أنهيت دراستي التكميلية في إحدى المدارس الخاصة. ثم تخرج شقيقي في يونيو في معهد لإدارة الأعمال فتوظّف في شركة ما وعيّن في مكتبها في كيوشو. أما أنا، فكان لا يزال يتوجب عليّ إتمام دراستي في طوكيو. حين أبلغني شقيقي بأنه يعتزم بيع المنزل وكل أملاك والدينا قبل الانتقال إلى كيوشو، أجبته بأنه في وسعه القيام بما يحلو له. لم أكن أرغب في أن أدين له بشيء. وحتى لو حاول فعلاً الاعتناء بي، كنت على يقين بأنه لن يفوّت فرصة ليذكّرني بذلك حين نتشاجر، وهو ما سيحصل حتماً عاجلاً أم آجلاً. لم أكن على استعداد للرضوخ لشقيق من نوعه من أجل الحصول على أيّة مساعدة هزيلة قد يتفضّل ويقدّمها لي. فكّرت أنني مهما اشتدّت الظروف، سوف أجد وسيلة ما لتدبر شؤوني وحدي، حتى لو اقتضى الأمر العمل بائع حليب.

حسناً، كنت مستعدّا لكل الاحتمالات. أحضر أخي تاجر أغراض مستعملة وحمّله لقاء مبلغ زهيد كل الخردة والمقتنيات البالية التي تراكمت في منزلنا على مر الأجيال. وجد من يساعده على التخلّص من المنزل والأرض التابعة له ونجحا في العثور على زبون ثري. بدا لي أنّهما حصلا على مبلغ كبير من المال لكنني لم أعلم بأية تفاصيل. كنت قد غادرت المنزل قبل ذلك بشهر واستأجرت غرفة في دار للإقامة في حيّ كاندا بانتظار أن أقرّر الخطوة التالية في حياتي. أما كيو، فقد غمرها حزن عميق لرؤية المنزل الذي خدمت فيه لأكثر من عشر سنوات يذهب هدراً في حين تقف هي عاجزة تماماً حيال أمر لا حول لها به. كانت تتذمّر وتنوح بلا انقطاع شاكية من أنني لو كنت أكبر سنّاً بقليل لكنت ربما ورثت المنزل والأرض. بالطبع، لو كان للسن دور في الميراث، لكنت ورثت حالاً. لم تكن المرأة العجوز تفقه شيئاً في هذه المسائل واعتقدت أن بضع سنوات إضافية كانت ستحسم أمر الأملاك لصالحي.

افترقنا أنا وشقيقي وذهب كل منا في طريقه، لكن بقيت هناك مشكلة كيو: أين عساها تذهب؟ لم يكن شقيقي بالطبع في وضع يسمح له باصطحابها معه، كما أنها من جهتها لم تكن ترغب إطلاقاً في أن يجرجرها خلفه حتى كيوشو. أما أنا، فكنت أعيش في تلك الفترة في حجرة ضيقة بالكاد تتّسع لي في دار إقامة رخيصة ولم أكن

حتّى واثقاً بأنني لن أجد نفسي في أحد الأيام في الشارع. لم يكن بوسع أيّ منا مساعدتها. طرحت المسألة في نهاية المطاف على كيو نفسها. حين سألتها إن كانت تنوي العمل في خدمة عائلة أخرى، أجابت أن لا خيار أمامها سوى الانتقال للعيش مع ابن شقيقتها إلى أن يصبح لي منزل وزوجة. هذا كان ما قرّرته. ابن شقيقتها كان كاتباً في المحكمة ووضعه المادي جيد نسبياً، وقد عرض عليها مرتين أو ثلاث مرات أن تعيش معه إن كانت تود ذلك، غير أنها رفضت في كل مرة دعوته متذرّعة بأنها تفضل البقاء في المكان الذي عاشت فيه لسنوات ولو بصفة خادمة. لكن يظهر أنها فضلت هذه المرة أن تلجأ إليه بدل أن تبدأ صفحة جديدة للعمل خادمة لدى أسرة لا تعرفها وتخشى ألا تتمكن من التكيّف معها. وعلى الرغم من ذلك قالت إنه يجدر بي أن أجد لنفسي منزلاً وزوجة بأسرع ما يمكن، عندها يصبح في إمكانها القدوم والاعتناء بي. لا بد أنها كانت تفضّلني على قريبها، ولو أنني لم أكن من لحمها ودمها.

حضر شقيقي إلى غرفتي قبل يومين من رحيله إلى كيوشو وأعطاني ستمئة ين. قال إن في وسعي توظيف المبلغ كرأسمال لتأسيس عمل لي أو إنفاقه لإكمال دراستي، القرار متروك لي، لكن عليّ ألا أنتظر منه أي شيء آخر. الواقع أن مثل هذه الخطوة من قبل شقيقي كانت مثيرة للإعجاب حقاً. هذا لا يعني أنني كنت سأنقم عليه لو لم يقدّم

لي المال، لكنّني أعجبت بتعامله مع هذا الموقف معاملة الرجال، فقبلت المبلغ وشكرته. ثم أخرج خمسين يناً إضافيّة وطلب منّي أن أعطيها لكيو، فوافقت مسروراً. وبعد يومين ودّعنا بعضنا البعض في محطة شينباشي للقطارات ولم أره منذ ذلك الحين.

استلقيت على فراشي أفكر في أفضل وسيلة لاستخدام الستمئة ين. دخول ميدان الأعمال لن يجلب لي سوى المتاعب ولن أتمكّن أساساً من الانطلاق بنجاح، خصوصاً وأن مبلغ ستمئة ين لم يبد لي كافياً لتأسيس عمل لائق. وحتى لو كان ذلك ممكناً، فإن الظروف في عالمنا اليوم غير مؤاتية لمن لا يطرح نفسه في المجتمع على أنه شخص مثقف حامل شهادات. استبعدت إذاً استخدام المبلغ كرأسمال وقررت بدل ذلك إكمال دراستي وتسديد أقساطي به. فكّرت أن أوزّع المال على ثلاثة أقسام، بهذه الطريقة يكفيني لثلاث سنوات من الدراسة على أساس مئتي ين في السنة. وإن بذلت كل ما لدي لمدة ثلاث سنوات، فلا بد أن أنجح في تحقيق أمر ما. السؤال التالي المطروح كان بشأن نوع الدراسات التي يمكنني متابعتها. فأنا لم أبد يوماً أي ميل إلى موضوع محدد. اللغات والأدب؟ قطعاً لا. ففي الشعر المعاصر مثلاً، لا أفهم سطراً واحداً من أصل عشرين. فكّرت أنّ في وسعي اختيار أي مجال دراسة، لا فرق إذ إنني كنت واثقاً بأنه لن يثير اهتمامي في كل الأحوال. صدف عندها أن مررت

بمعهد علوم الفيزياء وهناك استوقفتني لافتة كتب عليها «مطلوب تلامذة». قلت لنفسي إن هذا هو القدر، فألقيت نظرة على تنظيماتهم وشروطهم وتسجلت على الفور. حين أفكر في الأمر الآن، يبدو لي أنه كان من الحماقات الكثيرة التي يمكن وضعها على حساب ذلك التهوّر المتوارث في عائلتي.

مضت ثلاث سنوات وأنا منكبّ على الدراسة، لكنّني لم أكن أتميّز بقدر خاص من الكفاءة، ولو بحثتم عن اسمي في قوائم ترتيب التلاميذ لعثرتم عليه بسهولة أكبر إن بدأتم النظر من أسفل القائمة. مهما يكن، فقد نجحت بعد انقضاء السنوات الثلاثة في التخرّج، ولو بدا ذلك مستبعداً. أنا نفسي استغربت الأمر. غير أنه لم يكن هناك ما يمكن الاحتجاج عليه، فقبلت الشهادة دون أيّ اعتراض.

بعد ثمانية أيام على تخرّجي، استدعاني المدير. توجهت إلى مكتبه وأنا أتساءل عن سبب استدعائي، فأبلغني بوجود منصب شاغر لأستاذ رياضيّات في مدرسة تكميليّة بمكان ما في جزيرة شيكوكو لقاء أربعين يناً في الشهر. سألني إن كنت مهتماً. في الواقع إنني أنهيت للتو ثلاث سنوات من الدراسة، غير أنه لم يخطر ببالي مرة أن أصبح أستاذاً أو أن أذهب للعيش في الريف. لكن في المقابل، لم يكن لدي أدنى تصور لما يمكن أن أفعله عدا التدريس، فقبلت العرض حالاً. تلك الأطباع المتسرعة أوقعت بي مجدداً.

بعدما قبلت العرض، ترتّب علي الرحيل. لم أضطرّ طوال السنوات الثلاثة التي بقيت فيها قابعاً في غرفة ضيّقة لا تتعدى مساحتها تسع أقدام مربعة، إلى تحمّل أدنى ملاحظة أو انتقاد. كما لم أدخل مرة في شجار. كانت تلك فترة هانئة من حياتي بالمقارنة مع ما سبقها وما سيليها. وها إنّني الآن مضطر إلى مغادرة تلك الحجرة الصغيرة. المرة الوحيدة في حياتي التي خرجت فيها من طوكيو كانت حين ذهبت في رحلة إلى كاماكورا مع بعض رفاقي في الصف. غير أن الجهة التي سوف أقصدها هذه المرة أبعد بكثير. إنها منطقة نائية حقاً. حين بحثت عنها في الخريطة، وجدتها على الساحل، مجرد نقطة صغيرة كرأس الإبرة. أي مكان عساه يكون هذا؟ لم يكن لديّ أدنى فكرة عن المدينة أو سكّانها، غير أن ذلك لم يكن مهماً. فلا جدوى من التخوّف والقلق. سوف أذهب بكل بساطة. وعلى الرغم من ذلك، كان بالي مشغولاً بعض الشيء.

ذهبت عدة مرات لزيارة كيو منذ أن تخلّينا عن المنزل القديم. تبيّن أن ابن شقيقتها شخص طيب جداً. كان يستقبلني بحفاوة ويجهد نفسه في الترحيب بي حين يكون موجوداً في البيت في أثناء زيارتي. وفي كل مرة كانت كيو تغدق عليّ بالمديح وتتغنى بي أمامه، حتى أنها كانت تعلن أنني سوف أشتري منزلاً فخماً في كوجيماشي وأحصل على وظيفة ممتازة لدى الحكومة ما إن أتخرّج.

فقد تكفّلت من تلقاء نفسها برسم مستقبلي على هذا النحو، ولم يكن يسعني سوى الجلوس هناك وحمرة الخجل تصبغ وجهي. كانت تلك الجلسات شاقّة فعلاً بالنسبة لي. والأمر لم يحصل عرضاً مرة أو مرتين. أحياناً كانت تسترسل فتروي له كيف كنت أبلّل سريري وأنا طفل، وفي تلك اللحظات كنت أتمنّى لو أتوارى عن الأنظار. لست أدري ما كان يجول ببال قريب كيو وهو يستمع إلى قصصها. على أية حال، كانت تنتمي للزمن الماضي وترى العلاقة بيننا، كما في عهد الإقطاع، علاقة بين أسياد وخدم. وبما أنني كنت بنظرها سيّدها، فكانت تتصور بالتالي أنني سيّد قريبها. لا بد أن الأمر كان يتسبب له بإحراج كبير!

بعد فترة تأكد رسمياً تعييني. ذهبت لزيارة كيو قبل ثلاثة أيام من رحيلي، فوجدتها مصابة بالزكام وممدّدة في غرفة صغيرة في القسم الشمالي من المنزل. عادت إليها الحيويّة حالما رأتني فجلست وسألتني متى سيصبح لي منزل خاص بي. كانت تعتقد أنه حالما يتخرّج أحد ما، سيبدأ المال ينبت بكل بساطة في جيوبه. والأسخف من ذلك أنها كانت لا تزال تناديني «بوتشان» ولو أنني لم أعد الآن بنظرها مجرد فتى صغير بل أصبحت رجلاً مقتدراً. على أية حال، من المستبعد أن يصبح لي منزل في المستقبل القريب. حين أخبرتها بأنني ذاهب إلى الريف، بدت عليها خيبة فظيعة وراحت تمسّد بعصبيّة شعرها

المشعث المصبوغ بالشيب وتشد خصله. عزّ علي أن أراها على هذه الحال فقلت ساعياً لمواساتها «عليّ أن أرحل، لكنني سأعود قريباً. سوف أعود بالتأكيد العام المقبل في العطلة الصيفية». غير أن ذلك لم يبدّد الإحباط الظاهر على ملامحها، فسألتها «ماذا أجلب لك؟ أي تذكار تودين أن أحضره معي؟» قالت «يمكن أن تأتيني بتلك الحلوى المغلّفة بأوراق الخيزران التي يصنعونها في إيشيغو». لم يكن لديّ أدنى فكرة عن تلك الحلوى، كما أن إيشيغو تقع في اتجاه معاكس تماماً للمنطقة التي كنت سأقصدها. حين أجبتها بأنني لا أعتقد أن لديهم مطلبها في المكان الذي أقصده، سألت «في أي اتجاه أنت ذاهب إذاً؟» أجبتها «غرباً» فاستفهمت «أبعد من هاكوني أو في تلك الناحية؟» لم أدر من أين أبدأ شرحي لها.

في اليوم المقرّر لرحيلي، قدمت إلى غرفتي في الصباح لمساعدتي. أعطتني كيساً من القنّب يحتوي على فرشاة أسنان ومسحوق لتنظيف الأسنان ومنشفة اشترتها في طريقها من أحد المتاجر. أكّدت لها أنني لست بحاجة إلى كل ذلك، غير أنها أبت إلا أن آخذها معي. توجهنا إلى المحطة في عربتين يجرّهما حمّالان انطلقا بنا جنباً إلى جنب. وبعدما صعدت إلى القطار ووجدت حافلتي، وقفت على الرّصيف تحدق بي عبر النافذة. قالت لي بصوت متهدّج وعيناها مغرورقتان بالدموع «قد لا نرى بعضنا البعض بعد اليوم، أعتن

بنفسك جيداً، أرجوك». لم أكن أبكي لكنني بالكاد كنت أتمالك نفسي. وحين بدأ القطار يسرع شيئاً فشيئاً بعد مسافة، فكّرت في أنه بات في وسعي أن أمدّ رأسي من النافذة لأنظر إلى الخلف، فرأيتها لا تزال واقفة هناك. كم بدت لي صغيرة ورقيقة في البعيد!

الفصل الثاني

تسمّرت السفينة مطلقة صفّارتها، فأبحر قارب من الشاطئ مجدّفا وشقّ طريقه إلينا. كان النوتيّ عارياً تماماً إلا من مئزر لفّه حول خصره. يا له من مكان همجي! لكنه من جهة أخرى لم يكن ليحتمل ارتداء الكيمونو في مثل هذا القيظ. كانت الشمس ملتهبة تبعث شعاعها الضاري على سطح المياه فتتلألأ بوميض يؤلم العينين. تنظر إليها فتبهرك ويخيّل لك أنك لم تعد تبصر. استفهمت من الضابط المسؤول عن الركاب إن كان يفترض بي النزول هناك فرد إيجاباً. بدا لي أنها بلدة صيادي سمك تكاد لا تزيد مساحتها عن حي أوموري في طوكيو. كيف يعقل إرسالي إلى مكان كهذا؟ كيف لي أن أحتمل الأمر؟ حسناً، لم يكن بوسعي القيام بأي شيء الآن. قفزت من السفينة إلى المركب متقدماً الآخرين، وتبعني خمسة أو ستة ركّاب. حمّلوا أيضاً صندوقين ضخمين في القارب، ثم جدَّف ذو المئزر الأحمر بنا عائداً إلى الشاطئ. عند الوصول إلى اليابسة تقدّمت الجميع مرة

جديدة وقفزت. وهناك بادرت على الفور طفلاً كان واقفاً راشح الأنف لأستفهم عن موقع المدرسة التكميلية، لكنه شخص محملقاً وتمتم «لا أعرف». قرويّ أبله! البلدة برمتها لم تكن أكبر من جبهة هِرّ، فكيف يعقل ألا يعلم أين تقع المدرس التكميلية؟ اقترب رجل يرتدي كيمونو عجيباً ضيّق الكمّين وقال لي «تعال معي». تبعته إلى نزل اسمه ميناتويا أو ما شابه، حيث تهافتت مجموعة من الخادمات القميئات للترحيب بي بصوت واحد، ما جعلني أرغب في عدم الاختلاط بتاتاً بذلك المكان. توقفت في ردهة المدخل وسألت عن موقع المدرسة التكميلية. وحين أجبن أنها على مسافة لا تزيد عن ميلين وأن في وسعي الذهاب إلى هناك بالقطار، قررت الرحيل على الفور. انتشلت حقيبتيّ الاثنتين من الرجل ذي الكيمونو الضيق الكمّين وانطلقت. رمقني الجميع في النزل مستغربين.

لم أجد صعوبه في الاستهداء إلى محطّة القطارات. اشتريت تذكرة وصعدت في القطار فبدا لي ضيقاً مثل علبة كبريت. لم يمض وقت على انطلاقه حتى توجّب علي النزول. الرحلة برمتها لم تتخطّ خمس دقائق على ما أعتقد. لا عجب أن يكون سعر التذكرة زهيداً، مجرد ثلاثة سنات! جلست في عربة وتوجّه بي الحمال إلى المدرسة التكميلية. حين وصلت إلى هناك، كانت الحصص الدراسية انتهت ولم يعد هناك أحد. شرح لي الحاجب أن أستاذ المناوبة الليلية خرج

للتو لشراء غرض ما. بدا لي أن في سلوكه بعض الإهمال بالنسبة لشخص يفترض أن يؤمن مناوبة ليلية. فكرت في الاتصال بمدير المدرسة للاستفهام، لكنني كنت منهكا حقاً، ففضلت العودة إلى العربة وطلبت من الحمال أن يقلّني إلى نزل. أخذني إلى مكان يدعى ياماشيرويا. صدفة عجيبة حقاً! فالنزل يحمل اسم محلّ الدّين لقاء رهن الذي كانت تديره عائلة كانتارو.

قادتني الخادمة لسبب لم أفهمه إلى غرفة مظلمة تقع تحت السلالم. كان الحرّ فيها شديداً لا يحتمل وحين قلت لها إنني لا أريد المكوث في تلك الغرفة ردّت آسفة أنه لا يوجد غرف شاغرة أخرى، ثم خرجت تاركة حقائبي حيث كانت رمتها. لم يكن بوسعي عمل أي شيء حيال الوضع، فدخلت وجلست هناك أتصبّب عرقاً. قيل لي بعد وقت إن الحمام جاهز فتوجّهت إلى هناك وغطست على الفور في الماء مستعجلاً الخروج منه. وفي طريق العودة، تفحّصت المكان فلاحظت في الواقع العديد من الغرف الشاغرة التي كانت أبوابها مفتوحة، بدت جميلة والجو فيها لطيف. هذا مشين حقاً! إنهم زمرة من المنافقين! حضرت خادمة بعد وقت حاملة صينيّة عليها عشائي. قد يكون الحرّ في الغرفة لا يطاق، لكنّ الطعام أفضل بكثير مما كنت أتناوله في نزلي السابق. سألتني الخادمة وهي تقدم لي الوجبة عن المكان الذي قدمت منه، فأجبتها. قالت «لا شك أن طوكيو مكان

جميل». أجبت «بالتأكيد». وحين عادت بالصينية إلى المطبخ بعدما انتهيت، تناهت إليّ قهقهات عالية. لم يكن هناك ما يغري بالسهر في مكان كهذا فأويت إلى الفراش على الفور، لكنني رحت أتقلّب دون أن يغمض لي جفن. لم يكن الحر مصدر الأرق الوحيد، بل كان المكان صاخباً أيضاً. الجلبة تفوق بخمسة أضعاف الضجيج في دار إقامتي السابقة. حين غفوت أخيراً، حلمت بكيو. كانت تلتهم بعض السكاكر من ايشيغو، مبتلعة معها غلافها من أوراق الخيزران وكل ما تيسّر. نبّهتها بأن أوراق الخيزران سامّة وأنه يجدر بها عدم تناولها فقالت لا، هذا النوع مفيد، وأجهزت عليها. وقفت مذهولاً ثم انهرت ضاحكاً. في هذه اللحظة صحوت وكانت الخادمة تفتح الستائر الخشبيّة. رأيت السماء صافية رائعة كما في اليوم السابق.

قيل لي إنه من المفترض حين يسافر الواحد أن يوزّع الإكرامية من حوله، وإلا فلن يعامل معاملة لائقة. لا بد أنهم حشروني في تلك الغرفة الضيقة المظلمة لأنني لم أناولهم أي نقود. كما أن ملابسي الرثّة وحقائبي من القنب ومظلتي من تقليد الحرير لم تساهم بالتأكيد في إعطاء انطباع جيد عني. وكأنه يحق لمثل هؤلاء القرويين البائسين أن يتعالوا على أيّ كان! حسناً، سوف يرون. سوف يحصلون على إكرامية تصعقهم. ربما بدوت لهم معدماً، لكنني حين غادرت طوكيو كان لديّ في جيبي ثلاثون يناً متبقية من مدّخراتي. وبعد

دفع ثمن بطاقة القطار والرّحلة في السفينة، بقي لي أربعة عشر ينا. يمكنني أن أترك لهم المبلغ بكامله دون أن يطرح ذلك مشكلة، بما أنني سوف أبدأ بتقاضي راتبي. لكن أهل الريف بخلاء ولا شك أن خمسة ينات فقط كفيلة بجعلهم يحملقون بذهول. قلت معلّلاً نفسي وأنا أنزل بهدوء لأغسل وجهي «انتظروا وسوف ترون»، ثم عدت إلى غرفتي وجلست أنتظر. جاءت الفتاة ذاتها من الليلة الماضية. كانت ابتسامة ازدراء تعلو وجهها وهي تقدم لي الفطور. يا للوقاحة! ما الذي كانت تحملق به؟ هل تظن أنها أمام استعراض ما؟ حتى وجه شخص مثلي أفضل بالتأكيد من مشهد سحنتها. كنت مصمماً على الانتظار إلى أن تفرغ من تقديم الطعام لأناولها الإكرامية، غير أن الغضب تملكني ولم يسعني الانتظار، فأخرجت على الفور ورقة مالية من خمسة ينات وطلبت منها أن تحملها إلى المكتب. رمقتني بذهول. عندما انتهيت من تناول الطعام، توجّهت مباشرة إلى المدرسة. وظل حذائي دون تلميع.

كنت لاأزال أذكر طريق المدرسة بعدما ركبت عربة إليها في اليوم السابق. انعطفت عند مفرقين ووصلت أمام البوابة. الممر المؤدي من البوابة إلى مدخل المدرسة مرصوف بأحجار الغرانيت. أذكر أنه حين عبرت عليها العربة في الليلة السابقة، ارتطمت بها مطقطقة وأثارت جلبة تصمّ الآذان. كنت شاهدت في طريقي إلى المدرسة

أعداداً من التلاميذ يرتدون بدلات سوداء مصنوعة من قماش غليظ فوجدتهم الآن يتدفّقون من البوابة، بعضهم كان أكبر قامة مني وبدا أقوى بنية مني أيضاً. حين خطر لي أنني سوف أعلم تلامذة مثلهم، انتابني بعض القلق لهذه الفكرة. قدمت بطاقة تعريفي وتمت مرافقتي إلى مكتب المدير. كان يشبه الغرير ببشرته السمراء وشاربيه النحيفين وعينيه الكبيرتين، وكان سلوكه تقليدياً متكلفاً إلى حد فظيع. حضني على بذل أقصى ما بوسعي ثم مد لي في حركة رسمية وكأنما في مناسبة احتفالية شهادة تعييني تحمل ختماً ضخماً مطبوعاً عليها – تلك الوثيقة دعكتها لاحقاً في السفينة التي كانت تعيدني إلى طوكيو إلى أن أضحت مجرد كرة صغيرة في يدي، ورميتها في البحر. ثم قال لي إنه سيعرفني على باقي المعلمين وإنه يتعين علي تقديم أمر تعييني لكل منهم فرداً فرداً ليطلعوا عليه. بدت لي العملية معقّدة! وكان من الأسهل في هذه الحالة تعليق الورقة في قاعة الأساتذة ليومين أو ثلاثة بدل كل هذا العناء.

كان أمامنا متسع من الوقت قبل أن يجتمع المعلمون في القاعة المخصصة لهم حين يدق جرس الحصة الأولى. أخرج المدير ساعة جيبه، نظر إليها وقال إنه ينوي إجراء حديث مطول معي لاحقاً، غير أنه يود في الوقت الحاضر أن يحدد لي النقاط الرئيسية المطلوبة مني بصورة عامة. ثم استفاض في خطاب مطنب عن الروح التربوية.

وقفت هناك بالطبع أستمع ساهياً، لكن بينما استرسل في كلامه الرتيب المضجر، بدأت أفكر أنني أقحمت نفسي في متاعب كبرى بمجيئي إلى هنا. ليس من المعقول أن أقوم بكل ما يتوقعه مني المدير. أن يقول لشخص طائش متهور مثلي إنه سيكون قدوة للتلاميذ، وإنه يتحتم عليّ التصرف بطريقة تشجع الجميع في المدرسة على التشبه بي، وإن المربي الحقيقي لا يكتفي بتلقين المعرفة بل يمارس تأثيراً معنوياً إيجابياً في حياته الخاصة أيضاً... فهذه أشبه بشروط تعجيزية. هل يظن حقاً أن شخصاً نادراً ومميزاً بهذه المواصفات سيعبر كل هذه المسافة للمجيء إلى بلدة ريفية نائية كهذه لقاء أربعين يناً في الشهر؟ لطالما بدا لي أن الناس كلهم متشابهون نوعاً ما، وأنهم يتورطون حتماً في شجار أو شجارين إن حصل أمر ما أثار غضبهم، لكنني في مثل هذه الحال لن أتمكن حتى من فتح فمي، بل بالكاد سيتسنى لي الخروج في نزهة! إن كانت الوظيفة متطلبة إلى هذا الحد، كان يجدر بهم أن يشرحوا لي بشكل دقيق كل ما هو مطلوب قبل توظيفي. لم أكن أحب الكذب، فلم أجد مخرجاً أمامي سوى أن أقر بأن قدومي إلى هنا كان نتيجة سوء فهم، وأن أحسم أمري وأتخلى عن الوظيفة وأعود إلى دياري حالاً. لم يكن يبقى لي سوى تسعة ينات وبعض الفكة بعدما أعطيت العاملات في النزل خمسة ينات، وهو مبلغ لا يكفي للعودة إلى طوكيو. تلك الإكرامية كانت

حقاً حماقة! لكنني سوف أتدبر أمري بطريقة ما ولو بتسعة ينات فقط. وحتى لو لم تكن كافية لتغطية نفقات العودة إلى دياري، فهذا الحلّ أفضل من الكذب.

أبلغت المدير بأنه لا يمكنني إطلاقاً أن أرتقي إلى مستوى ما يطلبه مني وبأنني بالتالي سأعيد له شهادة توظيفي. وقف محملقاً بوجهي للحظات وعيناه الشبيهتان بعيني غرير تطرفان، ثم ضحك وقال إن كل ما قاله للتو كان مجرد مثل عليا، وإنه يدرك تماماً أنني لن أستطيع الالتزام بحرفيتها، وأن لا حاجة بالتالي إلى أن أشغل بالي. حسناً، إن كان واثقاً بذلك منذ البداية، فلم عمد أساساً إلى ترهيبي بذلك الخطاب؟!

في هذه الأثناء، قرع الجرس وتصاعدت جلبة كبيرة من قاعات الصّفوف. قال المدير إن الأساتذة قد تجمّعوا بالتأكيد في مثل هذا الوقت في قاعة المعلّمين، فلحقت به إلى هناك ودخلنا. كانت قاعة ضيّقة طويلة وقد جلس الأساتذة خلف مكاتب مصفوفة على طول جدرانها. ما إن دخلت حتى استداروا جميعاً دفعة واحدة لينظروا إلي وكأنهم اتفقوا على ذلك مسبقاً. ربما ظنوا أنهم سيشاهدون استعراضاً ما! جلت عليهم واحداً تلو الآخر طبقاً للتعليمات التي تلقيتها، ملقياً على كل منهم تحية رسمية ومقدماً له ورقة تعييني. معظمهم اكتفى بالنهوض قليلاً عن مقعده والانحناء لردّ التحية،

لكن بعضهم تعامل مع هذه المراسم بمزيد من الجدّية فتناول الشهادة من يدي حين مددتها له وقرأها بعناية قبل أن يردّها لي بمنتهى الرزانة. شعرت وكأننا نؤدي مسرحية. وعند وصولي إلى الأستاذ الخامس عشر، وهو أستاذ الرياضة، كنت بدأت أضيق ذرعاً لترداد اللياقات ذاتها مراراً وتكراراً. كان على كل منهم إلقاء التحية مرة، في حين كنت أكرر التحية ذاتها خمس عشرة مرة. كان يجدر بهم أن يفكّروا قليلاً في مشاعري في وضع كهذا!

كان مساعد المدير بين الذين ألقيت عليهم التحية في أثناء جولتي، غير أن اسمه فاتني وأنا أسلم عليه. ذلك السيد فلان كان يحمل على ما قيل إجازة في الأدب، شهادة جامعية حقيقية، ما يفترض أنه شخص مهم. كان صوته عذباً فيه نبرة نسائية غريبة. غير أن ما فاجأني حقاً كان القميص القطني الذي يرتديه على الرغم من القيظ. لا شك أنه كان يتشوى من الحر فيه مهما كان القماش رقيقاً. لكن لا بدّ أن خريجي الجامعات لا يقيمون وزناً لمثل هذه الاعتبارات. وما زاد الطين بلة أن القميص كان أحمر، وهو لون فيه قدر من الغرور والتأنق بالنسبة لمعلمين مثلنا. علمت فيما بعد أن ذلك الرجل كان يرتدي قميصاً أحمر في كل فصول السنة. خصلة غريبة حقاً! فهو أوصى على هذه القمصان خصيصاً على مقاسه، اقتناعا منه بأن ارتداء ملابس حمراء مفيد للصحة. تساءلت لم التوقف عند هذا

الحد إن كان واثقاً بأن الأحمر لون يلائم الصحة؟ يجدر به في هذه الحال ارتداء ملابس حمراء بالكامل. كان هناك أيضاً أستاذ اللغة الإنجليزية، واسمه كوغا. كانت سحنته صفراء ضاربة في الخضرة وكأنه مريض. غالباً ما يكون ذوو الوجوه الشاحبة نحيلين، غير أن وجه ذلك الرجل كان شاحباً وسميناً. حين كنت تلميذاً في المدرسة الابتدائية، كان في صفي ولد يدعى تاميسان وكان لوالده البشرة ذاتها. كان مزارعاً، فسألت كيو ذات يوم إن كان المصير ذاته ينتظر جميع المزارعين. قالت إن هذا غير صحيح، فالمشكلة برأيها أنه يتغذى حصراً من القرع الأصفر الذي ينبت في أعلى كرمه قبل أن ينضج، وهذا ما يجعله يبدو شاحباً ومنتفخاً. ومنذ ذلك الحين أقول لنفسي كلما التقيت شخصاً شاحب السحنة وسميناً، إن هذا بالتأكيد نتيجة إسرافه في تناول القرع. وأراهن على أن أستاذ الإنجليزية ذاك كان من فئة محبي القرع. في الواقع إنني لا أفهم بالضبط حتى الآن ما الذي يعطي هذا النوع من الخضار لونه الشاحب. حين عاودت طرح السؤال على كيو، اكتفت بالضحك ولم تجب. أظن أنها نفسها لم تكن تعلم السبب. بعد ذلك سلّمت على أستاذ الرياضيات الآخر، واسمه هوتا. كان رجلاً متقداً حيوية، شعره قصير منتصب بخشونة على رأسه وملامحه قاسية تذكر بوجوه أولئك الرهبان المحاربين القدامى. لم يكترث حتى للنظر إلى الوثيقة التي كنت أمدها له بوقار،

بل قال «آه، أنت الشاب الجديد، أليس كذلك؟ حسناً، عليك أن تزورني ذات يوم» وراح يضحك مقهقهاً من صميم قلبه. أين الطرافة في الأمر؟! من يرغب في معاشرة شخص فظ مثله؟ قررت أن ألقبه «الشّيهم» بسبب شعره المنتفض. أستاذ الدروس الكلاسيكية الصينية كان رسمياً كما يمكن تصور أستاذ مادة كهذه. قال لي «إذاً وصلت بالأمس؟ لا بد أنك متعب. وتعتزم بدء التعليم على الفور! إنه حقاً أمر تحمد عليه». كان ثمة ما يفتن في ثرثرة هذا الرجل المسنّ. أستاذ الرسم بدا أشبه بممثل في فرقة مسرح. كان يرتدي سترة رقيقة من الحرير فوق ردائه الكيمونو ويمسك مروحة يهوّي بها. «من أين تأتي يا سيدي العزيز؟ من طوكيو؟ آه هذا رائع! لن أكون وحيداً بعد اليوم. أعترف لك أنني نفسي أتحدر من طوكيو..». إن كان أبناء طوكيو على هذه الشاكلة، فمن الأفضل لي لو ولدت في مكان آخر. ثمة سيل لا ينضب من التفاصيل المماثلة يمكنني أن أسردها لكم عن جميع الأساتذة الآخرين، لكن هذه الصفحات لن تتسع لها، لذا سأتوقف عند هذا القدر.

بعدما فرغنا من هذه الشكليات، قال لي المدير إن هذا يكفي لليوم وإنني سأتسلم مهامي في غضون يومين بعد التشاور وفق الأصول مع الأستاذ المسؤول عن مادة الرياضيات بشأن المنهج الدراسي. سألته من هو أستاذ الرياضيات المسؤول، فأجابني بأنه الشّيهم.

يا لحظي البائس! هذا هو إذاً الشخص الذي سيترتب علي العمل تحت إشرافه! شعرت بإحباط شديد. سألني الشّيهم «أين تنزل؟ ياماشيرويا؟ حسناً، سأمرّ بك قريبا لنناقش المسائل الواجبة». وقبل أن أتمكن من الإجابة، حمل قطع طبشور وخرج من القاعة بخطى حثيثة متوجهاً إلى صفه. لا شك أن رئيس قسم يقصد بنفسه أستاذاً تابعاً له لا يمكن أن يكون له حس باللياقات. غير أنني على الرغم من ذلك أعجبت بمخالفته الرسميات.

خرجت من بوابة المدرسة معتزماً العودة مباشرة إلى نزلي، لكن لم يكن هناك ما ينتظرني في غرفتي، فقررت التسكع في المدينة ورحت أهيم في الشوارع. مررت بمركز الإدارة المحلية، كان مبنى قديماً من مخلفات حقبة ولّت. شاهدت أيضاً الثكنة العسكرية المحلية، لم تبد لي مهيبة بقدر ثكنات أزابو في طوكيو. وصلت إلى الشارع الرئيسي فوجدته لا يتخطى عرضاً نصف الشارع الرئيسي في كاغورازاكا والمباني المحيطة به أقل ضخامة بكثير. كانت هذه في الماضي مدينة كبيرة شيدت حول قصر أحد الأسياد الإقطاعيين، غير أنه لم يبق أثر يذكر من أمجادها الماضية. كنت أتنزه على هذا النحو في الشوارع متأسفاً على جميع هؤلاء السكان المحليين الذين يعتزون بالعيش في مدينة مولويّة، حين وجدت نفسي فجأة أمام نزل ياماشيرويا. كانت المدينة أصغر مما يتهيأ لي وأعتقد أنني استعرضت على الأرجح

كل معالمها. دخلت لتناول الغداء. ما إن لمحتني مديرة النزل حتى هرعت من خلف المكتب الأمامي حيث كانت جالسة ورحبت بي بانحناءة إلى أن لامس رأسها الأرض. خلعت حذائي ودخلت الردهة فظهرت خادمة اقتادتني إلى الطبقة الثانية وهي تبشرني بشغور غرفة جيدة. لم تكن الغرفة فقط في الطبقة الثانية، بل كانت غرفة فسيحة مساحتها خمسة عشر تاتمياً[1] تقارب ثلاثين متراً مربعاً، وهي تطل على واجهة المبنى وتحتوي على مضجع فخم. لم يسبق لي أن نزلت في غرفة بهذه الروعة. لم أكن واثقاً بأن فرصة كهذه سوف تتكرر، فخلعت سترتي على الفور لارتداء ثوب رقيق وتمددت في وسط الغرفة فارداً ذراعي وساقي أبعد ما يمكن. كان إحساساً رائعاً!

بعدما انتهيت من تناول الغداء، كتبت رسالة لكيو. كنت أكره كتابة الرسائل، لم أكن أجيد رصف الجمل ولا أذكر كيف أخط العديد من الكلمات. يجدر القول أيضاً إنه لم يكن لديّ من أراسله، لكنني كنت واثقاً من أن كيو قلقة علي ولا أريدها أن تعتقد أن مكروهاً ما أصابني كأن تكون سفينتي غرقت. لذا جلست وبذلت كل جهودي لكتابة رسالة طويلة لها. هذا ما كتبت:

«وصلت إلى هنا بالأمس. المنطقة لا تثير الاهتمام إطلاقاً. أقيم في

(1) غالباً ما تقاس مساحة الغرف في اليابان بعدد التاتمي أو البسط التي يمكن ان تكسو أرضها. ومساحة كل بساط تاتمي تقارب 1،80 متراً بـ 90 سنتمتراً.

غرفة مساحتها 15 تاتمياً. أعطيتهم خمسة ينات إكرامية وانحنت لي السيدة التي تدير المكان هنا إلى أن ارتطم جبينها بالأرض. لم أستطع أن أغفو في الليلة الماضية. حلمت بك تأكلين تلك الحلوى بغلافها من ورق الخيزران. سوف أعود الصيف المقبل. اليوم ذهبت إلى المدرسة ووجدت ألقاباً لجميع الأساتذة. المدير هو الغرير. مساعد المدير هو القميص الأحمر. أستاذ الإنجليزية هو القرع الشاحب، وأستاذ الرياضيات الآخر الشّيهم، وأستاذ الرسم العليق. سأكتب لك لاحقاً. إلى اللقاء!».

انتابني إحساس لذيذ بالارتياح بعدما انتهيت من كتابة الرسالة فتمددت على الأرض متمطّيا في وسط الغرفة مجدداً وغفوت. نمت نوماً عميقاً هذه المرة دون أن تراودني أية أحلام. صحوت على صوت أحد ما يزعق «هل هذه هي الغرفة؟» دخل علي الشّيهم وشرع بتوزيع التعليمات قبل أن أستعيد وعيي بالكامل فبادرني «عذراً لهذا الصباح. حسناً، بالنسبة لصفوفك..». بالكاد تمكنت في بادئ الأمر من فهم ما يقول من شدة ذهولي، لكنني أدركت حين أنصت له أن الحصص التي يكلفني بها لا تبدو على قدر خاص من الصعوبة، فأبديت موافقتي. إن كان هذا كل ما في الأمر، لأمكنه أن يطلب مني بدء الدروس غداً وليس في اليوم التالي. وبعدما انتهينا من المسائل الدراسية، أعلن لي بنبرة من حسمَ أموري وخطط لكل

التفاصيل، أنه لا يمكنني المكوث طويلاً في هذا النزل وأنه يعرف مكاناً مناسباً لا يؤجرون فيه غرفاً لأي كان، غير أنه يمكن أن يوصي بي للحصول على غرفة. قال إن علي أن أتهيأ على الفور وارتأى أن ألقي نظرة على المكان في اليوم نفسه، داعياً إلى زيارته بأسرع ما يمكن حتى أنتقل إليه في اليوم التالي قبل أن أبدأ مهامي في المدرسة. صحيح أنه من غير الوارد حتى في أحلامي أن أبقى إلى ما لا نهاية في هذه الغرفة الفخمة، فلا شك أن أجري بكامله لن يكفي لتسديد بدلها، غير أنه من جهة أخرى من المؤسف أن أغادر المكان بهذه السرعة بعدما أنفقت خمسة ينات إكرامية. لكن بما أنه سيترتب علي في نهاية المطاف الرحيل، فمن الأفضل أن أرحل حالاً وأستقر في مكان جديد. طلبت من الشّيهم القيام بالترتيبات فنصحني بمرافقته لإلقاء نظرة على المكان، وهكذا فعلنا. كان مكاناً هادئاً جداً على سفح تلة عند أطراف المدينة. صاحب الدار كان تاجر تحف أثريّة يدعى إيكاجين[1]. بدت لي زوجته أكبر منه بسنتين أو ثلاث. كنت تعلمت في المدرسة التكميلية كلمة «ساحرة» بالإنجليزية، فبدت لي المرأة من هذا الصنف. لكنني لم آبه بالطبع، طالما أنها زوجة رجل آخر. اتفقنا على أن أنتقل في اليوم التالي. وفي طريق العودة إلى النزل،

(1) اسم ينطوي على معنى مبطن: إيكا تعني «زائف» وجين «مال»، الأمر الذي يعني أن صاحب النزل منافق.

قدم لي الشّيهم كوباً من المثلجات. ظننت حين قابلته في المدرسة أنه شخص فظ ومتغطرس، لكنه تبين من خلال معاملته لي أنه ليس سيئاً على الإطلاق. كل ما في الأمر أنه انفعالي وسريع الغضب مثلي تماماً. علمت فيما بعد أنه الأستاذ الأكثر شعبية بين التلاميذ.

الفصل الثالث

حان الوقت أخيراً للذهاب إلى المدرسة. ساورني إحساس غريب حين دخلت الصف للمرة الأولى واعتليت المنبر للوقوف أمام اللوح الأسود. تساءلت في أثناء الدرس إن كان شخص مثلي يصلح ليكون أستاذاً. كان التلاميذ مجموعة من المشاكسين الصاخبين. بين الحين والآخر كان أحدهم يزعق بأعلى صوته منادياً «سيدي!» وكان ذلك يباغتني بعض الشيء. طوال دراستي في معهد علوم الفيزياء، ناديت المعلمين بالطريقة ذاتها يوميا، لكن عالماً برمته يفصل ما بين مناداة معلميك «سيدي! سيدي!» وسماع تلاميذ ينادونك هكذا. كان الأمر يبعث فيّ القشعريرة حتى أخمص قدميّ. لست جباناً ولا متخاذلاً، لكن يؤسفني الإقرار بأنني لا أتمتع بما يكفي من رباطة الجأش. وكلما كان أحدهم يصيح «سيدي!» كنت أشعر كما في الماضي، حين كان المدفع ينطلق في ساحة القصر الإمبراطوري معلناً منتصف النهار فيتردد دويه في معدتي الفارغة. تدبرت أمري

وأتممت الحصة الأولى دون أن أواجه أي سؤال شائك. حين عدت إلى قاعة المعلمين، سألني الشّيهم كيف جرت الأمور فاكتفيت بهز رأسي، ما طمأنه على ما يبدو.

حين خرجت حاملاً قطع طبشور لاستئناف الحصة الدراسية الثانية، أحسست وكأنني أغامر في أرض العدو. كان جميع تلاميذ هذا الصف أطول قامة مني، في حين وقفت هناك قصير القامة هزيلاً مثل معظم أبناء طوكيو. لا يمكن القول إنني بدوت مهيباً حتى بعدما اعتليت منبر الأستاذ. لا أتردد عند اندلاع مشادة في مهاجمة أيّ كان ولو مصارع سومو، لكن إن وضعتني أمام صف من أربعين فتى وطلبت مني فرض سطوتي عليهم بقوة لساني وحده، فهذا أمر يتخطى قدراتي. وفي المقابل، كنت على يقين بأنني إن كشفت عن علامة ضعف واحدة أمام هؤلاء الريفيين، فسوف يقضى على مصيري نهائياً. انطلقت إذاً في شرح الدرس بأعلى صوتي ولم أتردد في التكلم بلهجة طوكيو، علّ ذلك يساعد على بسط هيبتي. نظروا إليّ في البدء مندهشين وكأنهم تائهون في الضباب. قلت لنفسي إنني نلت منهم، فقررت عدم التوقف عند هذا الحد بل أخذت أرصع كلامي بعبارات عامية دارجة في طوكيو يصعب عليهم فهمها. بعد قليل نهض فجأة الفتى الجالس في وسط المقاعد الأمامية، وكان الأقوى بنية في الصف بكامله، وناداني «سيدي!». قلت لنفسي

«ها هي المتاعب تبدأ». سألته عما يريد فقال: «في الواقع، حين تتكلم بهذه السرعة، يصعب علينا فهم ما تقول. هل يمكنك أن تبطئ قليلاً، لو سمحت، أليس كذلك؟» «لو سمحت، أليس كذلك»، كم بدت لي تلك العبارة ركيكة متلعثمة. قلت: «حسناً، إن كنت أتكلم بسرعة كبيرة، فسوف أبذل جهدي، لكنني من طوكيو ولا يمكنني أن أتكلم مثلكم. وإن لم تفهموا، فعليكم أن تصبروا إلى أن تفعلوا».

هكذا انتهت حصتي الدراسية الثانية بسهولة أكبر مما كنت أتصور. وبينما كنت أهم بالخروج جاءني أحد التلاميذ حاملاً تمريناً هندسياً وقال: «هل يمكن أن تشرح لي كيف أحل هذا التمرين الهندسي لو سمحت، أليس كذلك؟» كان التمرين صعباً للغاية ولم يكن لدي أيّة فكرة عنه. لم يكن يسعني سوى أن أقول له إنه لا يمكنني حل المسألة على الفور لكنني سأشرحها في المرة المقبلة، وخرج دون إبطاء. وبينما كنت أبتعد مسرعاً، سمعت الفتيان يقهقهون وبعضهم يردد «لا يعرف! لا يعرف!». يا للأغبياء! بالطبع لا يمكنني حل هذه المسألة، ولو أنني أستاذهم! ما المضحك في أن يقول أحد ما إنه لا يعرف حين يكون لا يعرف حقاً؟ إن كنت مؤهلاً لحل مسألة رياضية كهذه، فهل كنت كلفت نفسي عناء السفر إلى هذه البقعة النائية لقاء أجر بائس لا يزيد عن أربعين يناً في الشهر؟ عدت إلى

قاعة المعلمين وهناك سألني الشّيهم كيف سارت الأمور، فهززت رأسي مرة جديدة. لكن هذه الإجابة لم تكن كافية، فقلت له إن التلاميذ في هذه المدرسة رؤوس يابسة. نظر إليّ وكأنه حائر.

جرت الحصتان الثالثة والرابعة وحصة ما بعد الظهر على النمط ذاته نوعاً ما. جميع حصص يومي الأول تضمنت خطأ ما ولو طفيفا. أدركت أن التعليم ليس بالسهولة التي نظن. أنهيت جميع حصصي الدراسية، غير أنه لم يكن بوسعي العودة إلى غرفتي، بل كان يتعيّن علي المكوث هناك والانتظار حتى الساعة الثالثة، إذ عليّ بحسب التعليمات أن أكشف على قاعة الصف بعدما يكون التلاميذ أنهوا تنظيفها، ثم إتمام سجلات الحضور، وبعدها فقط يمكنني أن أغادر. إن كنت رهنت نفسي لقاء راتب، فهل يعني ذلك أن من حقهم إرغامي على الجلوس في المدرسة أحملق في مكتبي دون أن يكون لدي ما أفعله! لكن إن كان الجميع على استعداد للتكيّف مع هذه القواعد واتباعها دون أدنى احتجاج، فلن يكون من اللائق أن يعترض عليها أستاذ جديد مثلي، لذا جلست هناك أنا أيضاً. غير أنني أعربت عن إحباطي للشيهم عندما كنا نغادر. قلت له «أمر سخيف أن يرغمونا على المكوث في كل الأحوال حتى الساعة الثالثة». اكتفى بالرد وهو يضحك «أجل، هذا صحيح»، ثم استعاد جديته وحذرني «اسمع، يجدر بك تفادي التذمر كثيراً من

هذه المدرسة. وإن فعلت، فاحرص على عدم التذمر لأحد سواي. فالبعض هنا سيّئ النية». افترقنا عند زاوية أحد الشوارع قبل أن يتسنى لي الاستفهام أكثر عما يعنيه.

حين عدت إلى غرفتي، حضر صاحب الدار وسألني إن كنت أرغب في تناول الشاي. ظننت أنه سيقدمه لي، غير أنه بدل ذلك تناول من شايي وبكوبي أيضاً. وربّما يدعو نفسه أيضاً لارتشاف الشاي في غرفتي حينما أكون في المدرسة، ما أدراني؟ شرح لي أنه لطالما كان يهوى القطع القديمة، ما قاده إلى تعاطي تجارة التحف الأثرية. ثم قال «يبدو لي أنك سيد رفيع الذوق. ما رأيك في الشروع بتشكيل مجموعة خاصة بك، هكذا لمجرد المتعة؟» هذا احتمال مستبعد كلياً! صحيح أنهم ظنوا مرة أنني قفّال حين قصدت فندق «إمبريال» قبل سنتين لشراء غرض ما. ومرة أخرى، ناداني أحد حمالي العربات «زعيم» فيما كنت أسير في جوار تمثال بوذا الكبير في كاماكورا مغطياً رأسي بدثار. ظنني الآخرون في الكثير من الأحيان على مر كل تلك السنين غير ما أنا عليه، لكنّ «سيداً رفيع الذوق» لقب لم يخطر ببال أحد من قبل! يمكنك عادة استنتاج كل ما تحتاج إلى معرفته حول شخص ما من مظهره أو ملبسه. وقد رأيت ما يفترض أن يكون عليه ذوو الأذواق الرفيعة في رسوم الحبر القديمة، حيث يظهرون مدثرين برداء شبيه برداء الرهبان يغطي

الرأس أو يمسكون ورقة استعداداً منهم لخط قصيدة في أي لحظة يباغتهم فيها الإلهام. إن أي شخص يحاول بجدية وضعي في هذه الخانة، لا بد أن يكون مريباً. أجبته بأنني أعتبر جمع التحف القديمة هواية تليق بالمسنين المتفرغين وأنني غير مهتم بهذا النشاط إطلاقاً. ضحك وأجاب بأن لا أحد ينطلق في هذا المجال عن اهتمام فعلي، غير أنه بعدما يطور إلماماً به، نادراً ما يقلع عنه. فيما كان يتحدث، صب فنجاناً ثانيا من الشاي وتذوقه بتصنع. كنت طلبت منه في اليوم السابق أن يبتاع لي بعض الشاي، غير أن هذا الصنف كان كريهاً، طعمه مر وكثيف، حتى أن فنجاناً واحداً منه كفيل بالتسبب بتشنج في المعدة. حين طلبت منه أن يجلب صنفاً أقل مرارة في المرة المقبلة أجاب «نعم سيدي» وصب لنفسه فنجاناً آخر ممسكاً الإناء مقلوباً إلى أن تأكد أنه سكب آخر قطرة متبقية في الأوراق. هكذا كان ذلك الرجل، يسرف دون حساب في تناول الشاي طالما أنه شاي شخص آخر. حين خرج، قمت ببعض التحضيرات لصفوف اليوم التالي ثم أويت إلى الفراش.

بدأت حياتي تتبع نمطاً منتظماً، فكنت أقصد المدرسة في الصباح وأنجز عملي، ثم أعود إلى غرفتي حيث يحضر صاحب الدار ويسألني إن كنت أود تناول الشاي. وبعد أسبوع على هذا المنوال، صرت خبيراً في تفاصيل ما يجري في المدرسة، وملماً بخصال

صاحب الدار وزوجته وأطباعهما. أخبرني بعض الأساتذة أنهم ظلوا قلقين طوال أول أسبوع أو شهر من عملهم، غير واثقين مما إذا كانوا يتركون انطباعاً جيداً، لكنني شخصياً لم أشعر بأي من هذا القلق على الإطلاق. حين كنت أرتكب هفوات في الصف، كنت أشعر بالارتباك، لكن هذا الإحساس كان آنيا وما يلبث أن يتبدد بعد نصف ساعة أو ما قارب فأنسى الأمر كلياً. لست من الصنف الذي يتنغص طويلاً حتى لو حاولت. لم أكن آبه لما يمكن أن تتركه هفواتي من انطباع لدى التلاميذ أو ما قد يظنه المدير ومساعده. كما سبق وقلت، قد أكون أفتقر إلى برودة الأعصاب، غير أنني حين أتخذ قراراً أو موقفاً، ألتزم به. كنت على استعداد لحزم أمتعتي والرحيل حالما أواجه متاعب في المدرسة، وبالتالي لم يكن الشّيهم ولا القميص الأحمر يرهبانني إطلاقاً. أما بالنسبة لتلاميذ صفوفي، فلم أكن أكترث حتى لكسب مودتهم. هذا الأسلوب نجح في المدرسة. أما في النزل، فلم تكن الأمور بهذه البساطة. لو كانت المسألة تقتصر على زيارات صاحب الدار المتكررة لتناول شايي، لما كان الوضع سيئاً إلى هذا الحد، غير أنه كان يحضر على الدوام أغراضاً مختلفة يعرضها علي. بدأ بعدد من القضبان الحجرية الصغيرة عرف عنها باسم «إينزاي» أو ما شابه، يمكن نحت ختم عليها. عرض أمامي عشرة من هذه القضبان الحجرية محاولاً ترغيبي في القول إن

المجموعة بكاملها لن تكلفني سوى ثلاثة ينات. غير أنني لم أكن من أولئك الفنانين الجوالين من الدرجة الثانية الذين يحتاجون إلى أختام جميلة جذابة ترفع من قيمة أعمالهم، فقلت له إنني لست بحاجة إليها. لكنه لم يستسلم وفرش بعدها لفافة مرسومة موضحا أنها لرسام يدعى كازان أو اسماً ما مشابهاً. كانت لوحة تقليدية لطيور وأزهار. علقها بنفسه في المضجع وسألني «ألا تعتقد أنها مرسومة ببراعة؟» اكتفيت بالرد «أظن ذلك» من باب التهذيب الصرف، لكنّ ذلك كان كافياً لينطلق في شرح مستفيض، موضحاً أن ثمة رسامين باسم كازان، كازان فلان وكازان علان، وأن تلك الرسمة بريشة أحدهما وليس الآخر. ثم ألح عليّ لأن أشتريها، مبدياً استعداده للتخلي عنها مقابل خمسة عشر يناً. حين أجبته أنني لا أملك هذا المبلغ، أكد لي أن الأمر لا يطرح مشكلة وأن في وسعي أن أسدد له المبلغ حين يتوافر لدي. واصل الإصرار رافضاً الاستسلام لحججي، ولم أتخلص منه إلا حين أعلنت له أنني لن أشتريها حتى لو كنت أملك المبلغ. لكنه عاد بعدها يجرّ جرناً حجرياً ضخماً للحبر بحجم حجر مزراب منحوت على سطح منزل، وراح يردّد «هذا حجر من تانكاي، حجر تانكاي[1] أصلي». وقبل أن يكرر

(1) منطقة في محافظة غوانغدونغ بالصين، مشهورة بحجارتها المستخدمة لصنع الأجران الخاصة بسحق عيدان الحبر ومزجها بالماء.

القول مجدداً، قررت التظاهر بالسذاجة وسألته ما هو حجر تانكاي، وهنا انطلق في محاضرة جديدة. شرح لي أن أجران تانكاي الحجرية مستخرجة من ثلاث طبقات مختلفة من الحجارة هي الطبقات العليا والوسطى والسفلى. وفي حين أن جميع الأحجار الموجودة في السوق حالياً مستخرجة من الطبقة العليا، فهذا الجرن بالذات جرن أصلي من الطبقة الوسطى. ثم أشار إلى بضع بقع فاتحة اللون في الحجارة الداكنة وقال «تأمل هذه العيون، لن تصادف نماذج عديدة فيها ثلاث عيون كهذه. إنه إحساس رائع فعلاً حين تفرك عود الحبر عليها. أرجو منك أن تجربها». وبينما كان يدفع الجرن نحوي سألته عن سعره فأجاب «لقد استقدمه مالكه معه من الصين ويقول إنه متلهف لبيعه. أظن إذن أن في وسعك شراءه بثلاثين يناً فقط». لا شك أنني كنت أمام رجل فاقد صوابه. كان يهيأ لي أنني قادر على التأقلم مع عملي في المدرسة، غير أنني عاجز تماماً عن تحمل المزيد من هذا التعذيب بالتحف القديمة.

لم يطل الأمر حتى بدأت المدرسة أيضاً تشكل عبئاً علي. ذات مساء كنت أتنزه في حي يدعى أوماشي حين رأيت قرب مكتب البريد لافتة كتب عليها «نودلز الحنطة السوداء على طريقة طوكيو». كنت مولعاً بنودلز الحنطة السوداء. حين كنت أعيش في طوكيو، كان مجرد العبور أمام حانة نودلز وتنشق تلك الروائح المفعمة بالتوابل

المنبعثة مع بخار الطهي كافياً لحملي على الدخول على الفور. كنت نسيت أمر النودلز بعدما انشغلت بالرياضيات من جهة والتحف الفنية من جهة أخرى، لكنني بعد أن لمحت اللافتة لم يعد بوسعي إكمال طريقي، فقررت الدخول وتناول طبق. جلت بنظري في الأرجاء فوجدت المكان مخيبا للأمل. كنت أتوقع أن يليق أكثر بعبارة «على طريقة طوكيو». ربما لم تكن لديهم أدنى فكرة عما يفعلون، أو أنهم كانوا يفتقرون إلى المال، لكن الواقع أن الحانة كانت كريهة إلى حد لا يوصف. البسط المفروشة أرضاً اتخذت مع الزمن لوناً داكناً وبات ملمسها خشناً من شدة القذارة. حتى الجدران اتخذت لوناً أسود بفعل السخام. السقف الملطخ ببقع الدخان المتصاعد من مصابيح الزيت كان خفيضاً إلى حد جعلني أحني رأسي تلقائياً. في المقابل، كانت قائمة الأسعار الجديدة المعلقة على الجدار تتباين مع المكان وقد كتبت عليها أسماء الأطباق بخط مزخرف. بدا وكأنهم اشتروا مبنى قديماً مهملاً وفتحوا الحانة فيه قبل يومين أو ثلاثة فقط. الطبق الأول على اللوح كان النودلز بالمقالي. صحت «طبق من المقالي من فضلكم». ما إن أصدرت طلبي حتى التفتت مجموعة من الزبائن كانوا جالسين في أحدى الزوايا يلعقون أطباقهم، للنظر إلي. لم ألاحظهم عند دخولي بسبب الظلمة المخيمة، لكنني أدركت عندها أنهم تلاميذ من المدرسة. انحنوا لإلقاء التحية علي وبادلتهم

السلام. كانت النودلز لذيذة فأجهزت على أربعة أطباق متتالية منها تناولتها جميعها مع المقالي، لا سيما وأنني لم أتناول طعاماً مثل هذا منذ فترة طويلة.

حين دخلت في اليوم التالي إلى الصف كالعادة، كان أحدهم كتب على اللوح بخط عريض «السيد مقالي». ما إن لمحني التلاميذ حتى انفجروا بالضحك. بدت المسألة برمتها في غاية السخافة. سألتهم أين الطرافة في تناول المقالي؟! فأجابني أحدهم «لكن أربعة أطباق، هذه كمية هائلة، أليس كذلك؟» قلت لهم أن لا دخل لهم إن تناولت أربعة أطباق أو خمسة أو الكمية التي أرغب فيها، طالما أنني أدفع ثمنها وآكلها. ثم أنهيت حصتي على عجل وعدت إلى قاعة المعلمين. حين دخلت إلى الصف التالي بعد عشر دقائق، وجدت مكتوباً على اللوح «أربعة أطباق من المقالي – ممنوع الضحك». لم آبه في المرة السابقة، لكنني هذه المرة شعرت بالغضب. حين ترددون الدعابة ذاتها، تصبح بغيضة. الأمر أشبه بخبز كعكة بالأرز حتى تتفحم، لن تجدوا عندها من يستسيغها. لكن يبدو أن القرويين يجهلون هذا الأمر، بل يعتقدون أن لا ضير في معاودة الكرة إلى ما لا نهاية. أظن أن رؤية شخص يأكل كمية من المقالي مسألة تتخذ أبعاد الحرب اليابانية الروسية بنظر ريفيين يعيشون في قرية صغيرة إلى حد يمكن استكشافها بالكامل في ساعة، لمجرد أنه ليس لديهم

مشاغل أهم من ذلك. إنهم حقاً مساكين! لا عجب وقد تربوا على هذه الحال، أن يتحولوا إلى مثل هؤلاء الأغبياء محدودي العقول، بلهاء متخلفين أشبه بتلك الأشجار القزمة المغروزة في أصصها الضيقة. لو كان سلوكهم من باب الفكاهة الصرف، لكنت شاركتهم الضحك، غير أنهم كانوا يكشفون عن خبث لا يمت بصلة إلى براءة الأطفال. محوت الكتابة عن اللوح دون التفوه بكلمة ثم استدرت وسألت التلاميذ إن كانوا حقاً يعتبرون المسألة طريفة. الواقع أنه كان مقلباً حقيراً فعلاً، إن كانت هذه الكلمة تعني شيئاً لهم. وقف أحد التلاميذ وقال لي «أليس حقيراً أن تغضب لأن أحداً ما يسخر من أمر قمت به؟» مجموعة من الفاشلين! حين أفكر أنني تركت طوكيو لأعلم أمثالهم... إنه لأمر مؤسف. حذرتهم من التمادي في الكلام وطلبت منهم الشروع في العمل وفي نهاية الأمر مضيت في الدرس. وفي الصف التالي وجدت مكتوباً على اللوح «تناول المقالي يعكر المزاج». لقد خرجت الأمور فعلاً عن السيطرة. تملكني غضب شديد وأعلنت أنني أرفض إعطاء دروس لعصابة وقحة كهذه ثم انسحبت من القاعة. قيل لي فيما بعد إن التلاميذ هللوا لإلغاء الصف. إن استمرت الأمور على هذه الحال، فسوف أجد تعاطي التحف القديمة أسهل من التعليم في هذه المدرسة.

عدت إلى الدار وبعد ليلة من النوم العميق، استيقظت لأجد

غضبي تبدد. كان التلاميذ جالسين صبيحة ذلك اليوم كل في مكانه وكأن شيئاً لم يحصل. بدت لي المسألة عبثية. جرت الأمور على ما يرام ثلاثة أيام. وفي مساء اليوم الرابع، ذهبت لتناول الفطائر في منطقة تدعى سوميدا. كانت سوميدا تبعد عن مدينتنا حوالي عشر دقائق بالقطار أو ثلاثين دقيقة سيراً على الأقدام، وفيها منتجع للمياه المعدنية الحارة، وكذلك مطاعم وفنادق ومتنزه، وإلى جانبها حي دعارة. كنت سمعت بحانة تقدم فطائر شهية عند أطراف هذا الحي، فقررت التوقف فيها في طريق العودة من الحمام لتذوق الطعام هناك. لم يكن ثمة أي تلاميذ في الجوار هذه المرة فتصورت أن أحداً لن يعرف بالأمر، لكن حين دخلت صفي الأول في اليوم التالي، كان أحدهم كتب على اللوح «طبقان من الفطائر، سبعة سن». صحيح أنني تناولت طبقين ودفعت ثمنها سبعة سن. هؤلاء الأولاد كانوا مصدر متاعب فعلاً. لا شك أن تلاميذ الصف الثاني أيضاً سيطلعون بعبارة من هذا القبيل، وهذا ما فعلوا حقا: «فطائر في حي الدعارة – لذيذة!» الأمر لا يصدق! انتهت قصة الفطائر، لكنهم سرعان ما وجدوا موضوعاً جديداً: منشفتي الحمراء. هذه المسألة كانت ضرباً من الحماقة. فقد اعتدت الذهاب يومياً إلى الحمام في سوميدا. صحيح أنه ليس في هذه المنطقة ما يمكن أن يضاهي ولو من بعيد ما نجده في طوكيو، غير أن منتجع المياه الحارة ذاك كان

من الطراز الأول. وبما أنني على مقربة، فكرت أن استفيد من الأمر وأستمتع بحمام هناك كل مساء. فكنت أتمشى إلى سوميدا يومياً قبل العشاء، ما يشكل لي أيضاً تمريناً رياضياً. كنت أحمل على الدوام وأنا في طريقي إلى هناك منشفة حمام كبيرة اتخذت صبغة تميل إلى الحمرة بسبب المياه المعدنية وخطوطها الحمراء التي بدأت تحل، ما يجعلها تبدو من بعيد قرمزية. كانت هذه المنشفة تتدلى دائماً من يدي سواء كنت ذاهباً مشياً أم عائداً في القطار، ما جعل الأولاد يطلقون علي لقب «ذي المنشفة الحمراء». أمر مزعج حقاً أن تعيش في مكان صغير كهذا حيث يعلم الجميع بشؤونك! وليس هذا كل ما في المسألة. فالحمامات كانت في مبنى حديث من ثلاث طبقات. وإن طلبت حماماً من الدرجة الأولى، يقدمون لك مئزراً قطنياً ويقوم موظف بتدليك ظهرك، كل ذلك لقاء ثمانية سن، كما تقدم لك فتاة كوباً من الشاي الأخضر في آنية أنيقة من الطراز الصيني. كنت أختار دائماً الدرجة الأولى. وحين علم التلاميذ بالأمر، سرى القول إن الحمام اليومي من الدرجة الأولى ترف في غير محله بالنسبة لأستاذ يتقاضى أربعين يناً. كنت بغنى عن مثل هذه النصائح! وهناك المزيد أيضاً. فحوض الحمام الضخم المكسو بحجر الغرانيت كانت تزيد مساحته عن أربعة أمتار بخمسة وغالباً ما تجد فيه اثني عشر شخصاً أو أكثر، غير أنني أحياناً أكون فيه وحيداً. أغطس عندها

في مياهه الساخنة فتصل إلى مستوى صدري وينتابني إحساس لذيذ حين أسبح فيها. كنت أترقب مثل هذه الأوقات حيث يكون الحوض فارغا فأستمتع بالسباحة والتخبط فيها طولاً وعرضاً. وفي أحد الأيام، بينما كنت أنزل مسرعاً من الطبقة الثالثة آملاً في أن أكون وحيداً في الحمام، وجدت لافتة كبيرة قرب مدخل الحوض كتب عليها بخط أسودِ عريض «يمنع بتاتاً السباحة في الحوض». من المستبعد أن يكون أحد سواي يسبح فيه، ولا بد بالتالي أن تكون اللافتة موجهة لي تحديداً. لم أعاود السباحة بعد ذلك، لكنني فوجئت في اليوم التالي بالمدرسة إذ رأيت مكتوباً على اللوح «يمنع بتاتاً السباحة في الحوض». بدا لي أن جميع تلاميذ المدرسة تآمروا للتجسس عليّ كفريق من المحققين. أصبت بإحباط شديد. ولكن مهما قالوا عني، قررت أن لا أدعهم يمنعونني من القيام بما أريد. غير أنّي حين تساءلت عن سبب قدومي إلى مثل هذا المكان التافه الذي يقطنه أناس بلهاء، شعرت بالاشمئزاز. عدت بعدها إلى غرفتي، لأجدني أخضع لجلسة تعذيب جديدة مع تاجر التحف المنافق.

الفصل الرابع

كان يتعيَّن على جميع المعلمين التعاقب للعمل في المناوبة الليلية في المدرسة، الجميع باستثناء الغرير والقميص الأحمر. حين سألت عن سبب إعفائهما من هذا الواجب، جاء الرد أن رئيس الوزراء هو الذي عينهما مباشرة في منصبيهما، على خلاف المعلمين الآخرين. كان الأمر سخيفاً، فهما يتقاضيان أعلى الرواتب ويعملان لأقصر فترات الدوام، وفضلاً عن ذلك يفلتان من واجب المناوبة الليلية. أليس هذا هو الظلم بحد ذاته؟ إنهما يفيدان من قاعدة اعتباطية صيغت لأجلهما خصيصاً، ثم يتصرفان وكأن الأمر طبيعي تماماً. يا للوقاحة! تملكني غضب شديد، غير أن الشّيهم أكد لي أنه لن يكون في وسعي تصحيح الوضع مهما تذمَّرت واحتججت. جادلته بأنه من المفترض أن نتمكن من معالجة قضية ما طالما أننا على حق، حتى ولو كنا أقلية صغيرة من شخص أو شخصين. لكن الشّيهم قال بالإنجليزية مؤكداً كلامه «القوة هي الحق». لم أفهم مغزى

تلك العبارة، فشرح لي بأن الأقوياء يحققون دائماً مبتغاهم. كنت أعرف هذا المبدأ ولم أكن بحاجة إلى محاضرة من الشّيهم لأدركه، لكن مسألة المناوبة الليلية كانت أمراً مختلفاً تماماً. كيف يمكن لأي كان احترام «سلطة» أشخاص مثل الغرير والقميص الأحمر؟ سواء كنت على حق أو غير ذلك، حل دوري في نهاية المطاف في المناوبة الليلية. الواقع أن أطباعي العصبية والحساسة تمنعني من الاستغراق في النوم خارج فراشي. حتى في طفولتي، قلما كنت أقضي الليل عند رفاقي. إن كنت أجد صعوبة في النوم عند أصدقائي، فسيكون الأمر أكثر صعوبة في المدرسة! لكن ذلك كان من ضمن الواجبات التي أتقاضى عليها أربعين يناً، وكان عليّ بالتالي تقبل الأمر.

بعدما غادر الأساتذة الآخرون وتلاميذ القسم الخارجي، لم يبق لديّ ما أفعله سوى الجلوس وحيداً منتظراً أن ينقضي الوقت، وأنا أحس بغباء الموقف. غرفة المناوبة الليلية تقع عند الطرف الغربي للمهاجع، خلف مبنى الصفوف. كانت الشمس الغاربة تلهب المكان وما إن دخلت الغرفة حتى غمرني حر خانق لا يحتمل. فصل الصيف ولى، غير أن الحر هنا في الريف يتمهل ككل ما هنالك. قدّم لي العشاء ذاته الذي يتناوله تلاميذ القسم الداخلي، عشاء رديء إلى حد لا يصدق. أمر مدهش أن يجد التلاميذ الطاقة الكافية للقيام بكل هذه الجلبة وهم يتبعون حمية كهذه! ثم إنهم يبتلعون الطعام على

وجه السرعة، إذ يفرغون من العشاء في الساعة الرابعة والنصف، وهو أمر جدير بالإعجاب حقاً! كان الوقت لا يزال نهاراً حين أنهيت عشائي ولم أكن أنوي الخلود إلى النوم. شعرت فجأة برغبة جامحة في الذهاب إلى الحمام. لم أكن واثقاً مما إذا كان مسموحاً للمناوب الليلي الخروج من المدرسة، لكن لم يسعني احتمال فكرة الجلوس هناك محملقاً في الفراغ مثل سجين في زنزانة انفرادية. استغربت الأمر يوم وصلت إلى المدرسة حين سألت عن المناوب الليلي وأجابني الحارس بأنه خرج لشراء غرض، لكنني أتفهمه الآن وقد اختبرت الأمر. فمن الأفضل الخروج. قلت للحارس إنني سوف أغادر لفترة قصيرة وحين سألني إن كنت سأقضي عملاً، أجبته بالنفي قائلاً إنني ذاهب إلى الحمام، وخرجت. كنت تركت للأسف منشفتي الحمراء في غرفتي، لكن في وسعي استعارة واحدة في الحمام.

استمتعت بوقتي متمهلاً وغطست طويلاً في حوض الحمام. وحين قررت العودة إلى البلدة كان قد حل المساء. ركبت القطار ثم توجهت إلى المدرسة التي تبعد أقل من مئتي متر عن المحطة. وبينما كنت أقول لنفسي إن الأمور سارت على ما يرام، لمحت الغرير يتقدم صوبي في الشارع. فكرت أنه ربما يريد أن يستقل القطار هو أيضاً للذهاب إلى الحمام. كان يسير بخطى سريعة وعندما تقابلنا تنبه

إلي. سلمت عليه بانحناءة فسألني بنبرة رسمية «أليس من المفترض أن تكون في مناوبة ليلية على ما أذكر؟» لا داعي للتظاهر بالتعجب، وقد اقترب مني قبل ساعتين بالكاد وقال لي «آه، الليلة تقوم بأول مناوبة ليلية، صحيح؟» وشكرني مسبقاً. يبدو أن التكلم بطرق ملتوية ومزعجة كهذه من المؤهلات المطلوبة لدى مدير. أجبته مستاء «نعم سيدي، أنا في مناوبة ليلية. ولذلك أنا ذاهب إلى المدرسة وأؤكد لك أنني سأقضي الليل هناك». ثم استدرت ومضيت في طريقي. لكن ما إن وصلت إلى زاوية تاتيماشي حتى صادفت الشّيهم هذه المرة. إنها حقاً بلدة صغيرة، يكفي أن تخرج من بابك حتى تلتقي حتماً شخصاً ما تعرفه.

سألني «ألست في مناوبة ليلية؟» فأجبته «نعم، هذا صحيح». تابع «حسناً، ألا تعتقد أنه من غير المناسب لأستاذ المناوبة الليلية أن يخرج في نزهة؟» أجبته مزدهيا «لا، إطلاقاً. بل من غير المناسب عدم الخروج في نزهة». رد «قد تواجه متاعب جراء هذا النوع من السلوك، أتعرف ذلك؟ خاصة إذا صادفت المدير أو مساعد المدير». كان مثل هذا الكلام آخر ما أتوقعه من الشّيهم فقررت مجابهته «الواقع أنني صادفت للتو المدير وقال لي إن الخروج في نزهة فكرة جيدة، وإلا فإن المناوبة الليلية ستكون مرهقة حقاً في حر كهذا». اعتبرت أننا استنفدنا الكلام في هذا الموضوع فاستدرت وعدت إلى

المدرسة.

بعد قليل غابت الشمس وعند هبوط الليل دعوت الحارس إلى غرفتي للتحادث معه وبعد ساعتين من الثرثرة مللت وقررت الذهاب إلى الفراش وإن لم أكن أشعر بالنعاس. خلعت ملابسي وارتديت ثوب النوم ثم زحفت تحت الناموسية، أزحت الغطاء الأحمر وقفزت على الفراش جاثماً على مؤخرتي قبل أن أتمدد على ظهري. هكذا اعتدت الذهاب إلى الفراش منذ صغري. مرة حين كنت مقيماً في تلك الدار في طوكيو، صعد طالب في القانون كان يشغل الغرفة في الأسفل يشتكي من الأمر ويقول إنها عادة سيئة. قد يكون طلاب القانون هزيلي البنية، غير أنهم سليطو اللسان وذاك الطالب شرع في خطاب مسهب استعان فيه بحجج واهية إلى أن قاطعته مؤكداً له أنه إن كان يسمع جلبة مزعجة، فلم تكن مؤخرتي هي السبب بل البناء الهش، وأنه إن كان ذلك يطرح له مشكلة فيجدر به تسويتها مع مالكي الدار. كانت قاعة المناظرة حيث أنام في الطابق الأرضي، وكان بوسعي بالتالي التمرغ في فراشي وإصدار الجلبة التي أشاء دون أن يزعج الأمر أياً كان. كنت واثقاً بأنني لن أغفو ما لم أقفز على الفراش بكل ما لدي من قوة. وبينما كنت أتمطى متلذذاً، أحسست بشيء ما يحط على ساقي. كان ملمسه خشناً غليظاً، مختلفاً عن ملمس البراغيث. صحت جافلاً «ماذا يجري؟»

ونفضت ساقي مرتين أو ثلاثاً تحت الغطاء، غير أنني شعرت بتلك الحشرات الخشنة تسرح بكثرة فوقي. كان هناك خمس أو ست حشرات على ساقي، اثنتان أو ثلاث على فخذي، أخرى سحقتها تحت مؤخرتي، وواحدة تجرأت حتى على القفز إلى سرّتي. تملكني الذعر فنهضت واثباً من الفراش واقتلعت الغطاء لأكتشف سرباً من خمسين أو ستين جندباً تعج في عمق الفراش. بدا الأمر مخيفاً قبل أن أعرف ما يجري، لكنني حين أدركت أنها جنادب، تحول خوفي إلى غضب. هل تظنون حقاً أن مجموعة من الجنادب كافية لبث الذعر في نفسي؟ سوف أجعل تلك الحشرات تدرك ما هو الذعر. حملت الوسادة ورحت ألطمها بها بعنف، لكن تلك الجنادب كانت أهدافاً صغيرة جداً ولم أستطع القيام بايّ شيء حيالها مهما اشتدت لطماتي. لم تكن لدي أيَّة وسيلة أخرى، فجلست على الفراش مجدداً ورحت أضربها بشكل عشوائي في كل الاتجاهات كمن ينفض الغبار عن بساط. ونتيجةً لقوة هجومي، راحت الجنادب المذهولة تقفز أعلى فتتطاير وترتطم بكتفي ورأسي، حتى أن بعضها حط على رأس أنفي. لم يكن بوسعي التخلص من الحشرات الراسية على وجهي بهذه الطريقة، فرحت التقطها واحدة واحدة وأرميها بعيداً بكل قوتي. لكن على الرغم من هجومي العنيف، لم أفلح بالقضاء على تلك الحشرات اللعينة بل كانت تعلق بالناموسية فتتشبث بالقماش

الرقيق الذي يتماوج حين تصدمه فتبقى قابعة هناك مطمئنة. بعد حوالى نصف ساعة من المحاولات المتتالية، تمكنت أخيراً من القضاء عليها جميعاً. ذهبت وجلبت مكنسة وبدأت أكنّس الحشرات الميتة. في هذه الأثناء، دخل الحارس وسألني عما حصل. صحت به «ماذا تعني بسؤالك عما حصل؟ هل سبق أن سمعت بمكان يربي فيه الناس جنادب في أسرتهم أيها الأبله؟» حاول الاعتذار قائلاً «لست أدري، يا سيدي» فقاطعته «هل هذا أفضل تبرير يمكنك ابتداعه؟» ورميت المكنسة بعنف في الشرفة. سارع إلى الانسحاب محرجاً، حاملاً المكنسة على كتفه.

استدعيت على الفور ثلاثة من تلاميذ القسم الداخلي ليحضروا بصفتهم ممثلين عن المجموعة الكاملة فحضر منهم ستة. لا فرق إن كانوا ستة أو عشرة أو أكثر حتى، هذا لن يردعني. وقفت في رداء النوم مشمراً على ذراعي وبدأت استجوابهم.

«لماذا وضعتهم تلك الجنادب في فراشي؟» أجاب التلميذ الواقف في مقدم المجموعة «جنادب؟ ماذا تعني؟» بدا هادئاً إلى أقصى حد. لم يكن المدير وحده من يتحايل في هذه المدرسة، بل كان التلاميذ أيضاً يتكلمون بأساليب ملتوية منحرفة. صحت بهم «ألا تعلمون ما الجندب؟ حسناً، انظروا إلى واحد». لكنني كنت للأسف كنستها كلها من الغرفة ولم أترك منها واحداً. ناديت الحارس وطلبت منه

أن يعيد إلي بعضها فقال «لقد رميتها مع القمامة. هل تريدني أن ألّمها مجدداً؟» أجبته «نعم، في الحال». ولّى مسرعاً، وبعد قليل عاد بحوال عشرة منها مكدسة على ورقة وقال «آسف سيدي، لكنني لم أتمكن من العثور على أكثر من ذلك في الظلام. غداً صباحاً أجلب لك المزيد». إنه حقاً أحمق! حملت إحدى الحشرات ووضعتها أمام أنوف التلاميذ وقلت لهم «هذا جندب. أترون كم هو كبير؟ لا تقولوا لي بعد اليوم إنكم لا تعرفون ما الجندب». أجابني تلميذ مستدير الوجه كان واقفاً إلى يسار المجموعة «لا، هذه جرادة، أليس كذلك؟» هذا الولد وقح فعلاً. كانت عيون الجميع مسلطة علي. «جنادب، جراد، الأمر سيان. إنكم مجرد مجموعة من الأغبياء اللعينين! لو تتوقفوا عن تكرار «أليس كذلك» بحماقة كلما فتحتم أفواهكم حين تخاطبون أستاذاً، فهي تزيدكم بلاهة، هذا كل ما تفعل». ظننت أنني بذلك فرضت هيبتي عليهم، غير أنهم أجابوا «ترداد «أليس كذلك» ليس دليل غباء، أليس كذلك؟» إنها حقاً حالة ميئوس منها. لا يمكنهم التوقف عن قول «أليس كذلك» حتى لو حاولوا.

– سواء أكانت جنادب أم جراداً، لماذا وضعتموها في فراشي؟ متى طلبت منكم ذلك؟

– لم يضعها أي منا هناك.

– حقاً؟ في هذه الحال كيف وصلت إلى هناك؟

– حسناً، الجراد يحب الأماكن الدافئة، ولا بد أنه قرر بنفسه المكوث هناك.

– ما هذا الهراء؟ أتظنون أن سرباً من الجنادب يقرر من تلقاء نفسه الولوج إلى فراش؟ أتظنون أنني سأصدق مثل هذه القصة؟ اشرحوا لي فقط ما الذي حملكم على تدبير مثل هذا المقلب، هيا.

– ليس لدينا ما نقوله. كيف نعترف لك بشيء لم نرتكبه؟

إنها وقاحة فعلاً! إن كانوا لا يملكون الشجاعة الكافية للمجاهرة بما فعلوا، يجدر بهم في هذه الحال عدم القيام بأي شيء أساساً. من الواضح أنهم فكروا أنه طالما ليس هناك أي أدلة ضدهم، كل ما عليهم القيام به هو التظاهر بالبراءة وسوف ينجون بفعلتهم. زمرة من الخسيسين! أنا أيضاً حين كنت تلميذاً في المدرسة التكميلية دبرت مكائد ومقالب، لكن حين كانوا يسألونني إن كنت أنا خلفها لم أحاول مرة التملص بخبث، بل كنت أقر بصراحة إن كنت أنا المذنب. إما أن أكون ارتكبت شيئاً أو لا. ومهما كان ما ارتكبته فادحاً يستوجب اللوم، كنت أحتفظ على الأقل بشرفي. إن كنت ستلجأ إلى الكذب والإنكار للإفلات من العقاب، يجدر بك عندها الامتناع عن ارتكاب أي ذنب. فسوء التصرف والعقاب متلازمان. والخوف من العقاب هو الذي يضفي لذة على الشرور

ويبعث الجرأة على ارتكابها. هل يعتقدون حقاً أن ثمة بقعة في العالم تسودها الدناءة، حيث يمكن ارتكاب حماقات ومن ثم التحصن ضد العواقب؟ هذا المنطق ذاته هو الذي يحمل أشباه هؤلاء التلاميذ على الانطلاق في الحياة باقتراض أموال يمتنعون عن تسديدها فيما بعد. في هذه الحال، لماذا يأتون إلى المدرسة أساساً؟ إن كانوا يظنون أن التربية تعني تعلم الكذب والنفاق وتدبير مقالب خبيثة للإيقاع بالآخرين، فهم لم يفهموا شيئاً. إنهم مجرد حثالة!

سئمت الجدل مع هذه المجموعة من الأولاد البغيضين فقلت لهم «حسناً، لا يهم. إن كنتم وصلتم إلى الصفوف التكميلية ولم تدركوا بعد معنى السلوك اللائق، فإنكم تثيرون الشفقة حقاً». ثم صرفت التلاميذ الستة وأرسلتهم إلى النوم. قد لا أكون أنا نفسي راقياً في حديثي أو مظهري، لكن يمكنني القول إنني أتمتع برقي في القلب والنفس لا يملكون منه ذرة. انسحبوا بهدوء دون أن تظهر عليهم أي علامات انفعال، حتى ليتهيأ لمن يراقب المشهد ويحكم عليه من خلال المظاهر أنهم أكثر رزانة مني أنا أستاذهم. لكن الحقيقة أن سلوكهم هذا بالتحديد كان خير دليل على مدى خبثهم.

عدت إلى الفراش أخيراً وتمددت، لكن كل هذه الجلبة سمحت لأسراب من البعوض بالانسلال إلى داخل الناموسية وراحت تتطاير وأزيزها يملأ أرجاء الغرفة. كان من الصعب التخلص منها بإحراقها

الواحدة تلو الأخرى بالشمعة، ففككت الناموسية وطويتها على طولها على الأرض ثم نفضتها من الطرفين إلى أن هوت إحدى الحلقات المعدنية المستخدمة لتعليقها على ظهر يدي ورحت أتأوه من شدة الألم. تمددت للمرة الثالثة وبدأ انفعالي يهدأ قليلاً، لكنني على الرغم من ذلك لم أتمكن من النوم. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف. بقيت ممدداً ورحت أفكر في هذا المكان البغيض الذي جئت إليه. إن كان التعليم في أي مدرسة تكميلية يفترض التعامل مع أولاد أمثال هؤلاء التلاميذ، فهذا مؤسف للغاية. كيف لم ينقرض الأساتذة في هذه الحالة؟ أعتقد أن هذا العمل يناسب أشخاصاً ذوي جلد يفوق الحدود وكذلك يحتاج إلى عقل بليد. الأمر الأكيد هو أنني لم أكن شخصياً أحتمله. في ظروف كهذه يدرك الواحد أهمية شخص مثل كيو. إنها مجرد امرأة عجوز أمّية لا مقام اجتماعياً لها، غير أنها من معدن إنساني نادر. لم يسبق أن أحسست بأي تقدير لها من قبل على الرغم من كل ما قامت به من أجلي، لكنّ العيش هنا وحيداً بعيداً عن دياري جعلني أدرك أخيراً مدى طيبتها. إن كانت تشتهي تلك الحلوى من إيشيغو، فلا بد من المرور من هناك لجلب بعض تلك السكاكر لها. كانت تمتدح فيّ أطباعاً مستقيمة منزهة، لكنها هي التي كانت تستحق الثناء على طيبتها اللامتناهية.

كم كنت مشتاقاً إليها!

بينما كنت أتململ في الفراش وأنا أفكر في كيو، فاجأتني جلبة قوية وكأن ثلاثين أو أربعين شخصاً يضربون أرجلهم على الأرضية الخشبية فوق رأسي مباشرة، حتى بدا لي وكأن السقف على وشك أن ينهار علي. ثم أخذوا يطلقون صيحات مدوية. قفزت من الفراش مجدداً متسائلا عما يجري. لكن خطر لي في تلك اللحظة أنهم بالتأكيد التلامذة، يسعون للانتقام مني. قلت لنفسي متوعداً: انتظروا وسوف ترون. طالما أنكم لم تعترفوا بأن ما قمتم به سيئ، فسوف تبقون مذنبين بنظري. لا بد أنكم تدركون سوء تصرفكم. يجدر بكم العودة إلى السرير وإنعام النظر في المسألة ثم بعد التفكير الاعتذار غداً. وإن لم يكن هذا في مقدوركم، يمكنكم على الأقل الإحساس ببعض الخجل والخلود إلى النوم بهدوء. لكنكم عوضاً عن ذلك، تثيرون المزيد من الفوضى. ألا تعلمون أن هذه يفترض أن تكون مهاجع، وليست زريبة خنازير؟ يجدر بكم الإقلاع عن كل هذا الهباء. انتظروا قليلاً وسوف ترون... هرعت من غرفتي وأنا لا أزال بلباس النوم وتسلقت الأدراج مسرعاً إلى الطابق الثاني. وهناك باغتني صمت حل فجأة محل الصخب الذي كنت أسمعه فوق رأسي. صمت مطبق لا يعكّره صراخ ولا دوس أقدام. أمر غريب حقاً! كانت المصابيح مطفأة ولم أتمكن من تمييز شيء في الظلمة، غير أنه تهيأ لي أن بعضهم كان قابعاً في العتمة. لم يكن ثمة مخبأ لأي

كان ولا حتى لفأر في الممر الممتد على طول المهاجع من الشرق إلى الغرب. كان نور القمر يضيء بقعة في نهاية الممر. انتابني إحساس غريب كما منذ سنوات حين كانت تراودني أحلام عجيبة فأستيقظ مرتعداً وأبدأ بالهذيان، جالباً لنفسي سخرية الجميع. حلمت ليلة حين كنت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر أنني عثرت على ماسة فوثبت من الفراش ورحت أنهر شقيقي النائم إلى جانبي وأسأله ماذا فعل بها. بقيت ثلاثة أيام أضحوكة المنزل، كان الأمر صعباً علي. هل يعقل أن أكون الآن أيضاً أعيش حلماً؟ غير أن الجلبة التي سمعتها كانت حقيقية.

كنت لاأزال واقفاً مستغرقاً في أفكاري حين ارتفعت فجأة وسط الصمت المخيم عشرات الأصوات تصيح «واحد، اثنان، ثلاثة... واهههههه». كانت الصيحة قادمة من أقصى طرف الممر، من البقعة الغارقة في نور القمر، وتبعها على الفور الصوت ذاته الذي سمعته من قبل، صوت أقدام تضرب الأرضيّة الخشبية. صرخت بصوت علا على الضجيج «أوقفوا هذا الصخب! إننا في منتصف الليل» واندفعت نحو نهاية الممر. كانت الظلمة من حولي حالكة ولم يسعني سوى التوجه إلى البقعة التي كان يضيئها القمر. ما إن تقدمت بضع خطوات حتى ارتطمت رجلي بشيء صلب في وسط الممر، فهويت أرضاً محدثاً صوت ارتطام مدوياً. استجمعت قواي

ونهضت وأنا ألعنهم في قرارة نفسي، غير أنني مهما حاولت لم يكن بوسعي الركض. بكل بساطة، كانت ساقي ترفض الامتثال. رحت أقفز على رجلي السليمة ودمي يغلي في عروقي إلى أن وصلت إلى طرف الممشى، غير أن الضجيج والصراخ توقفا في هذه الأثناء وعاد الصمت ليخيم على المكان. مهما انحدر الناس، لا يمكن أن ينحطّوا إلى مثل هذا المستوى الخفيض. كنت أواجه خنازير وليس بشراً. هكذا إذا! قررت أنني لن أغادر المكان قبل أن أخرجهم من مخابئهم وأرغمهم على الاعتذار مهما استغرق الأمر. لكن حين حاولت فتح باب إحدى الغرف، لم يتزحزح من مكانه. لا بد أنهم أقفلوه أو ثبتوه من الداخل بواسطة مكاتب أو قطع أثاث أخرى وضعوها خلفه. حاولت دفعه بالقوة لكنني لم أفلح. انتقلت إلى الباب المقابل، لكنه بقي موصداً كالأول. وبينما كنت أواصل محاولاتي لاقتحام الغرف والقبض على أحد هؤلاء الفتيان، عاد طرق الأقدام والصياح مجدداً متصاعداً من طرف الممر الآخر.

أدركت أخيراً ما يجري، فهؤلاء العفاريت تآمروا ليوقعوا بي من الجانبين. ماذا عساي أفعل؟ قد أكون شجاعاً، لكن أقر بأن ذكائي ليس بمستوى شجاعتي، وحين أقع في ورطة كهذه، لا أعرف إطلاقاً كيف أتصرف. لكنني على الرغم من ارتباكي، أقسم أنني لن أخرج من هذا الموقف مهزوماً. سوف يلحق بي العار إن استسلمت الآن.

لن أدعهم يدّعون بأن أبناء طوكيو جبناء. إن قيل إنني سمحت لهذه الزمرة من السوقيين أن يهزأوا بي ولجأت إلى غرفتي لمجرد أنني لم أحسن التعامل معهم، فسيشكل ذلك إذلالاً لن أقوى على التعايش معه. مهما كانت سيئاتي، فأسلافي كانوا من الأسياد الإقطاعيين التابعين مباشرة للشوغون، أسياد من سلالة محاربين ترتقي إلى الإمبراطور سايوا وتتحدر من ميناموتو نو ميتسوناكا العظيم. فأنا من أصول أرقى بكثير من فلاحي العدم هؤلاء، أؤكد لكم ذلك. لو أجد وسيلة فقط! لو تأتيني فكرة للخروج من هذا المأزق! لن أستسلم مهما حصل. بصراحة، لم يكن هناك أي مخرج لشخص بنزاهتي. لكن من جهة أخرى، إن لم تكن الغلبة في هذا العالم للنزاهة، فما الذي تبقى؟ حسناً، قررت في هذه الحالة أنني إن لم أنتصر الليلة، فسوف أنتصر غداً. وإن لم أفعل في الغد، ففي اليوم التالي. وإلا، فسوف أستقدم وجباتي من غرفتي إلى هنا وسوف ألازم مكاني حتى أنتصر عليهم. تربعت أرضاً في وسط الممر، على استعداد للانتظار حتى الصباح. كانت البعوضة تئز حولي، لكنني لم آبه. مررت يدي على ساقي التي صدمتها قبل قليل، فأحسست بسائل دبق ينساب عليها. لا بد أنها تنزف. حسناً، لا أبالي إن نزفت طوال الليل. غلبني التعب أخيراً وغفوت. غير أنني استفقت على هرج ومرج فنهضت ألعن حظي. كان الباب إلى يميني مشقوقا وكان ولدان يقفان هناك

أمامي. ما إن استعدت وعيي حتى انقضضت على ساق التلميذ الأقرب إلي وجذبتها نحوي بكل قوتي فهوى على ظهره. لقد نال ما يستحق! وقف الولد الآخر مذهولاً فوثبت عليه وأمسكته بكتفيه وهززته بعنف. أصيب بدهشة شديدة وبقي كأنما كان مصعوقاً وعيناه ترفان. قلت «حسناً، أنتما الاثنان ستأتيان معي» ودفعتهما إلى غرفتي دون أن يبديا أدنى مقاومة. كنت محقاً باعتبارهما جبانين. كان الفجر قد طلع.

حين عدنا إلى غرفة المناوبة الليلية، شرعت في استجوابهما، لكن مهما فعلت، فالخنزير يبقى خنزيراً، وكل ما نجحت في الحصول عليه كان عبارة «آه، لا أعرف» مراراً وتكراراً. لم يكونا على استعداد للاعتراف بأي شيء. بدأ باقي التلاميذ يتقاطرون الواحد تلو الآخر ويتجمعون أمام باب غرفتي. بدوا ناعسين وعيونهم متورمة. مجموعة من الضعفاء الحقيرين! كيف تعتبر نفسك رجلاً إن كانت ليلة واحدة من الأرق تتركك في هذه الحال؟! طلبت منهم أن يذهبوا ويغسلوا وجوههم ثم يعودوا لنتكلم، لكن أياً منهم لم يحرك ساكناً.

بعدما قضيت حوالى ساعة أستجوب أكثر من خمسين تلميذاً دون الحصول على جواب واحد، دخل علينا الغرير بشكل مفاجئ. اكتشفت فيما بعد أن الحارس قصده في منزله ليبلغه بالجلبة الجارية

في المدرسة. وكأنه من الضروري إزعاج المدير لمجرد تفاهات! ذلك الرجل شخص وضيع، ولا عجب أن انتهى به الأمر حارساً في مدرسة.

قدمت للمدير تقريراً كاملاً عما حصل ثم استمع إلى حجج بعض التلاميذ قبل أن يعلن أنه يعتزم اتخاذ الإجراءات المناسبة لاحقاً وأنه يتوجب عليهم في الوقت الحاضر مواصلة دروسهم كالعادة. ثم أمرهم أن يغتسلوا على وجه السرعة ويتناولوا الفطور حتى لا يتأخروا عن صفوفهم، وصرفهم بكل بساطة. كان في سلوكه الكثير من التساهل حيالهم. لو توقف الأمر علي، لكنت طردتهم جميعاً على الفور. ليس من المدهش في ظل هذا التهاون أن يعمدوا إلى مضايقة المناوب الليلي. التفت المدير صوبي وقال لي إنني معفي من صفوفي هذا اليوم؛ إذ لا بد أنني مرهق بعد كل هذه المتاعب. فأجبته «لا سيدي، لست مرهقاً على الإطلاق. مثل هذا الأمر لا ينهكني حتى لو تكرر كل ليلة من ليالي حياتي. سوف أواصل إعطاء دروسي وإن عجزت مرة عن التعليم لمجرد أنني لم أتمكن من النوم لليلة، فسوف أعيد إلى المدرسة الجزء المتوجب من أجري». لم أعرف ما دار في بال المدير لكنه تأملني لبرهة ثم قال «وجهك متورم، هل تعلم ذلك؟» صحيح أنني كنت أشعر برأسي ثقيلاً وخدراً بعض الشيء وكان وجهي يحكني. أجبته وأنا أفرك سحنتي دون توقف

«مهما كان وجهي متورماً، مازلت أتحكّم بفمي بشكل كامل. لن يؤثر الأمر على صفوفي اليوم». قال لي ضاحكاً «إنك حقاً شخص صلب!» لا أعتقد أنه كان يثني علي، بل بدا لي متهكماً.

الفصل الخامس

سألني القميص الأحمر «ما رأيك لو نذهب لصيد السمك؟».

كان صوته ناعماً إلى حد يثير القشعريرة. مستحيل أن تميز ما إذا كان صوت رجل أم امرأة. على الرجل أن يتكلم بصوت رجولي، خصوصاً إن كان خريج جامعة. إن كان شخص مثلي اقتصر تعليمه على معهد علوم الفيزياء يتكلم بصوت خشن، فمن العار على حامل شهادة جامعية أن يكون له صوت كهذا.

أجبته «أجل، لم لا؟» دون أن أبدي الكثير من الحماسة. غير أنه أصر بشيء من الغلاظة فسألني إن سبق وذهبت إلى صيد السمك. صحيح أن هذا لم يحصل لي مراراً، لكنني مرة حين كنت طفلاً اصطدت ثلاث سمكات شبوط فضية في بحيرة في كومومي. ومرة أخرى في خلال مهرجان في معبد بيشامون في طوكيو، علقت في صنارتي سمكة شبوط يقارب طولها عشرين سنتيمتراً، لكن حين حاولت إخراجها سقطت مجدداً في الحوض ورشّت الماء من

حولها. مازلت حتى الآن أشعر بالأسف كلّما تذكرت كيف أفلتت مني. حين رويت القصة للقميص الأحمر، اكتفى برفع ذقنه مطلقاً ضحكته المتأنّثة تلك. لم أفهم ما المضحك في المسألة.

قال بنبرة معتدّة «أستنتج من ذلك أنك لم تختبر ملذات صيد السمك. سوف يسعدني أن أعرفك عليها إن شئت». هل يظن فعلاً أنني أرغب في ذلك؟ أنا أعتقد أصلاً أن صيادي السمك والطيور ذوو قلوب قاسية، وإلا لما كانوا وجدوا أي لذة في قتل كائنات حية. الأسماك والطيور تفضل بالتأكيد البقاء على قيد الحياة على أن تقتل. إن كنت تصطاد أسماكاً أو طيوراً لتأمين قوتك، فهذا أمر مختلف. أما إن كنت تعيش في وفرة وعلى الرغم من ذلك لا يمكنك الخلود إلى فراشك قبل أن تخرج وتقتل كائنات حية، فذلك يتخطى الحدود. راودتني تلك الأفكار، غير أنني لا أجيد التعبير كما يفعل خريج جامعة، فتجنبت الدخول في جدل معه ولم أفصح عن رأيي. لا بد أنه ظن أنه تغلب علي، فواصل الكلام بإصرار «دعنا نباشر تعلم الصيد حالاً. ما رأيك في الذهاب اليوم إن كان لديك متسع من الوقت؟ سوف نستمتع بالرحلة أكثر أنا ويوشيكاوا، أرجوك أن تأتي».

يوشيكاوا كان أستاذ الرسم الذي لقّبته العليق. يقضي وقته متردداً إلى غرفة القميص الأحمر ويلحق به أينما ذهب، وكأنه مساعده الشخصي وليس زميله. كنت على يقين بأنه إن ذهب

القميص الأحمر إلى مكان ما، فلا بد أن يأتي العليق أيضاً، ولم أفاجأ بالتالي أن يكون سيشارك هو أيضاً في رحلة صيد السمك. لكن ما الذي يدفعهما إلى دعوة شخص غير اجتماعي مثلي للانضمام إليهما بدل أن يستمتعا بوقتهما وحيدين؟ أعتقد أنهما كانا يرغبان في استعراض مهارتهما والاعتداد بهذه الهواية الراقية بنظرهما. وكأنني من النوع الذي ينبهر بسهولة! هل يظنان حقاً أنني سوف آبه إن نجحا في التقاط سمكتين أو ثلاثاً من التن؟ في مطلق الأحوال، أنا لا أقل رجولة عنهما ولا بد أن أنجح في التقاط شيء ما سواء كنت مبتدئا أم لا. كما أن القيمص الأحمر سوف يظن إن لم أقبل الدعوة، أن ذلك لأنني صياد رديء، وليس بسبب عدم اهتمامي بالأمر. قلت له في نهاية الأمر إنني سأذهب. وبعد انتهاء الدروس عدت إلى غرفتي لأستعد ثم ذهبت إلى المحطة للقائهما وتوجهنا معاً إلى المرفأ. كان هناك قارب واحد، كان قارباً طويلاً ضيقاً لا يشبه أي قوارب شاهدتها في طوكيو. لم ألحظ أي قصبة صيد. كيف يفترض بنا التقاط أسماك دون قصبة صيد؟ سألت العليق عن الأمر، فأجابني وهو يداعب ذقنه متظاهراً بأنه خبير ضليع في هذا الشأن، بأن صيد السمك في عرض البحر لا يتطلب قصبة صيد بل مجرد خيط. من الأفضل أن أبقي فمي مغلقاً إن كنت سأحصل على هذا النوع من الإجابات المذلّة.

كان البحار يجدّف ببطء وانتظام منجزاً عمله ببراعة وحنكة، وسرعان ما بدا الشاطئ مجرد بقعة صغيرة في البعيد حين استدرت لإلقاء نظرة إلى الميناء. بدا معبد كوهاكو ببنائه العالي منبثقاً مثل إبرة وسط دغل من الأشجار. من الجانب الآخر من القارب، تراءت لنا الجزيرة الخضراء عائمة على سطح المياه. يقال إنها غير مأهولة ولا عجب في ذلك، إذ تبدو إن أنعمتم النظر مجرد صخور وأشجار صنوبر. كان القميص الأحمر مستغرقاً في تأمل المنظر وأعلن أنه رائع، فرد العليق بأنه حقاً بديع. لم أكن واثقاً تماماً من مدى روعته، غير أنني كنت بالتأكيد أشعر بسرور كبير. من الممتع أن أجد نفسي على هذه المساحة الشاسعة من المياه تلفحني برودة ريح بحرية. بدأت أشعر بالجوع.

قال القميص الأحمر «انظر إلى شجرة الصنوبر تلك، الشجرة ذات الجذع المستقيم والتي تفلش أغصانها مثل مظلة، تبدو أشبه بلوحة لتيرنر»، فسارع العليق إلى الرد مستعرضاً معرفته «نعم، نعم إنها حقاً تشبه لوحات تيرنر، انظر إلى التوائها، تلك الانحناءات، هذا بالتأكيد أسلوب تيرنر». لم يكن لديّ مطلق فكرة عما هي عليه لوحات تيرنر ذاك، لكنه لم يتهيأ لي أنه يستحق العناء، فاكتفيت بلزوم الصمت.

التف القارب عن يسار الجزيرة. كانت صفحة المياه ملساء لا

تعكر سكونها موجة واحدة، حتى تكاد تنسى أنك عائم في البحر. كنت مديناً للقميص الأحمر بهذه الرحلة الجميلة. وددت لو نتوقف في الجزيرة، لكنني حين سألتهم إن كان من الممكن أن يتوقف القارب عند أحد الصخور، قال القميص الأحمر إن ذلك ممكن غير أن الصيد لن يكون جيداً إن اقتربنا كثيراً من الصخور. قاطعنا العليق بمداخلة سخيفة تماماً «ما رأيك سيدي، لو نطلق عليها من الآن فصاعداً اسم جزيرة تيرنر؟» وجد القميص الأحمر الفكرة ممتازة. قلت لنفسي إنني لست معنياً بكل ذلك، بل إن تسمية الجزيرة الخضراء تناسبني تماماً. ثم أتحفنا العليق باقتراح جديد فقال «لو ننصب لوحة العذراء لرافاييل فوق تلك الصخرة، فسوف يكون المشهد موضوعاً جيداً للوحة»، غير أن القميص الأحمر رد هذه المرة «دعنا لا نتكلم عن العذارى والأيقونات» مطلقاً ضحكته الرقيقة الملتبسة. بدا منزعجا فطمأنه العليق قائلاً إنه ليس من داع للقلق إذ ليس هناك من يستمع إلى الحديث، ثم ألقى نظرة صوبي وخفض عينيه مبتسماً ابتسامة قصد بها تلميحاً مبطّناً، غير أنها بدت بكل بساطة غبية. بدأت أشعر بالاستياء. لم أكن معنياً إطلاقاً بأي حديث عن أيقونات أو ما شابه ذلك. يمكنهما تثبيت من يشاءان هناك، فالأمر لا يهمني. لكن التحدث عن مسائل لا يفهمها الآخرون والتظاهر بأنه غير مهم إن سمعوا لأنهم لن يفهموا في أي حال، فهذا أمر في منتهى

الفظاظة. ومن ثم يتباهى العليق بأنه من مواليد طوكيو! تصورت أن تلك العذراء أو الأيقونة التي كانا يتحدثان عنها هي في الواقع لقب غيشا كان القميص الأحمر يتردد إليها. إن كان يرغب في لصق حبيبته تحت شجرة صنوبر في جزيرة مهجورة، فلا مانع لدي. وإن أراد العليق رسم صورتها على زيتية وتعليق اللوحة في معرض ما، فليفعل!

أعلن البحار أننا في بقعة ممتازة وألقى المرساة في البحر. سأله القميص الأحمر عن عمق المياه في تلك الناحية فقدّره بحوالي عشرة أمتار. قال القميص الأحمر وهو يلقي خيطه في المياه إنه لا يدري كيف سيكون من الممكن العثور على سمك الأبراميس على هذا العمق. إذا كان المعلم الكبير يلاحق الأبراميس! هدف طموح حقاً! غير أن العليق بادر على الفور إلى امتداحه وأكد وهو يلقي خيطه بدوره في المياه، أن صياداً بمهارته وخبرته لا بد أن يلتقط ولو سمكة واحدة، لا سيما والبحر هادئ كصفحة من الزيت. بدا لي من المدهش أن لا تحمل الخيوط عوامات. فالصيد دون عوامة أشبه بقياس حرارة أحد ما دون ميزان حرارة. لم أفهم المغزى من ذلك، غير أن القميص الأحمر شجعني «هيا، حاول بدورك. أليس لديك خيط؟» أجبته أنني أحمل الكثير من الخيوط لكن دون عوامات، فرد أن العوامات للهواة. شرح لي «حين يصل الخيط إلى القعر، تثبته

على حافة القارب بسبابتك وترقب أي حركة تشده إلى الأسفل. مثل الآن، انظر!» سارع القميص الأحمر إلى رفع خيطه على الفور وهو يصيح وبدا واثقاً بأنه اصطاد سمكة، غير أن ما تدلى عند طرف الخيط كان صنارة عارية نزع عنها الطعم. هذا ما يستحقه!

قال العليق متاسفاً «يا للخسارة! لا بد أنها كانت سمكة كبيرة. إن استطاعت الإفلات من خبير مثلك سيدي، فعلينا حقاً أن نحترس اليوم. لكن على الرغم من ذلك، يبقى الأمر أفضل من الجلوس محملقاً في عوامة كمبتدئ، أليس كذلك؟ فذلك أشبه بمن يعجز عن قيادة دراجة دون فرامل» واصل رصف الكلام المعسول الفارغ حتى وددت لو أنهال عليه ضرباً علّه يتعلم درساً. أعني أنني أيضاً بشر، ولا أعتقد أن مساعد المدير صادر البحر برمته لاستخدامه الشخصي. ثمة متسع لنا جميعاً! ربما تأتي سمكة بونيت لذيذة سمينة وتعض صنارتي! ألقيت خيطي في الماء محدثاً طرطشة ورحت أحركه متكاسلاً برؤوس أصابعي.

بعد فترة شعرت بشيء ما يشد على الخيط. فكرت أنها بالتأكيد سمكة. أي شيء يمكن ان يضغط بهذه القوة لا بد أن يكون حياً. لقد أفلحت! بدأت أرفع الخيط بأسرع ما يمكنني. صاح العليق ساخراً «عجباً، ها أنت أمسكت بشيء ما! إنه الحظ حليف المبتدئين!» أخرجت الخيط بكامله تقريباً من الماء ولم يبق منه سوى حوالى

نصف متر متدلياً. مددت رأسي فوق حافة القارب وحدقت في البحر فتراءت لي سمكة ذهبية راحت تتخبط في كل الاتجاهات حين رفعتها. بدأت الأمور تأخذ منحى ممتعاً! أخرجت السمكة إلى سطح المياه فأحدثت طرطشة بلّلت وجهي. نجحت أخيراً في وضع يدي عليها لكنني لم أتمكن من نزع الصنارة من فمها. شعرت بالسمكة دبقة في يدي وكان إحساساً مقززا! تخليت عن محاولاتي ورميتها في قعر القارب مع الخيط والصنارة وكل ما هنالك وقضت على الفور. كان القميص الأحمر والعليق يراقبان المشهد بذهول. غطست يديّ في ماء البحر وفركتهما جيداً ثم شممتهما: كانت رائحة السمك لا تزال تنبعث منهما. هذا علمني درساً، لن ألمس أي شيء قد أصطاده بعد الآن. والأرجح أن السمكة أيضاً لم تستمتع بالأمر. كان هذا القدر كافياً بالنسبة لي فلففت خيطي دون إبطاء.

قال العليق متحذلقاً من جديد «حسناً فعلت! فقد سجلت النقطة الأولى، غير أنها مجرد سمكة غوروكي!». تدخل القميص الأحمر بنكتة «غوروكي؟ يبدو لي وكأنه التقط كاتب قصص قصيرة روسياً»، فسارع العليق كعادته إلى المزايدة «آه أجل! إنه غوركي، الكاتب الروسي. إنك على حق!» حسناً، إذاً غوركي هو أديب روسي، وماروكي مصور في طوكيو، والمفتاح تفتح به الباب، وكلاهما اخترعا البارود. ما قصة القميص الأحمر وذاك

الهوس بطرح أسماء أجنبية يلفظها بلهجة غربية أياً كان الشخص الذي يخاطبه؟ إنها عادة كريهة إلى أقصى حد. عليهما أن يدركا أن لكل منا مجال اختصاصه. كيف يفترض بأستاذ رياضيات مثلي أن يميز ما بين غوركي وبوركي؟ من الأفضل ألا أحاول حتى. إن كان لا يتمالك نفسه عن ذكر تلك الأسماء الأجنبية، فيجدر به على الأقل الاكتفاء بالأسماء التي سمع بها أمثالي، كمذكرات بنجامين فرانكلين. أحياناً كان يجلب معه إلى المدرسة مجلة بعنوان «الأدب الإمبراطوري» غلافها أحمر لماع، فيقرأ فيها بوقار وكأنها أعظم ما يمكن العثور عليه. حين سألت الشّيهم عن الأمر، قال لي إنه يستمد منها كل تلك الأسماء الأجنبية التي يرصع بها كلامه. وهذا يجعل من تلك المجلة بنظري شريكة في الجريمة.

واصل القميص الأحمر والعليق الصيد وتمكنا معاً من التقاط خمس عشرة أو ست عشرة سمكة خلال ساعة تقريباً. المضحك في الأمر أنهما كلما كانا يلتقطا سمكة، يتبين فيما بعد أنها سمكة غوروكي. لا أثر لأي أبراميس على الإطلاق! قال القميص الأحمر «إنه يوم مجيد للأدب الروسي»، فرد العليق متملقاً «إن كان خبير مثلك يصطاد الغوروكي، فلا أمل بالتأكيد لشخص مثلي باصطياد أي صنف آخر». أوضح لي النوتيّ أن هذا الصنف من السمك لا يصلح للأكل لأنه مليء بالحسك وطعمه كريه، غير أنه يستخدم

كسماد. إذاً فإن القميص الأحمر والعليق كانا طوال هذا الوقت منهمكين في اصطياد السماد! أمر يدعو إلى الرثاء! هذا يعني أن السمكة اليتيمة التي اصطدتها كافية ووافية، ومنذ ذلك الحين وأنا مستلق على ظهري في قعر القارب أتأمل السماء. إنها حقاً طريقة لقضاء الوقت أكثر متعة من صيد السمك.

بدأ زميلاي يتكلمان بصوت خفيض. لم يكن بوسعي سماعهما، ولم أكن أرغب في ذلك أساساً. كنت سارحاً في السماء أفكر في كيو. لو كنت أملك بعض المال، لكنت جلبتها إلى هنا لتنعم بهذا المكان الجميل. مهما كان المشهد رائعاً، فإن صحبة أمثال العليق كفيلة بإفساده. قد تكون كيو عجوزاً متجعدة الوجه، غير أنني لن أشعر بأي إحراج في اصطحابها أينما ذهبت، في حين لا أحتمل مخالطة أشخاص مثل العليق أينما كان، سواء في عربة أو على متن سفينة أو حتى على سطح برج من اثني عشر طابقاً في متنزه أكوسا في طوكيو. لم يكن لدي مطلق شك بأنه لو كنت أنا مساعد المدير والقميص الأحمر أستاذاً بسيطاً مثلي، لكان ذلك الرجل الآن يتملقني ويستهزئ به. يقولون إن أهل طوكيو بوجهين، وقد بدأت الآن أدرك السبب. فإن كان عليق كهذا يجوب البلدات معلناً للجميع كلما سنحت الفرصة أنه من أبناء طوكيو الأصيلين، فلا عجب عندها أن يصبح لقب «منافقين» على لسان الريفيين مرادفاً

لسكان طوكيو.

بينما كانت هذه الأفكار تجول في بالي، سمعت الاثنين يضحكان ويواصلان حديثهما همساً بين قهقهاتهما المكتومة. لم أكن أسمع ما يقولانه لبعضهما لكنني كنت أميز بعض الكلمات متقطعة هنا وهناك دون أن أتابع الحديث بشكل عام. «ماذا؟ لا يمكن أن يكون..». «هذا أمر فظيع... لم أكن على علم... أمر مخز..». «كيف أمكنه؟..». «نعم، جنادب... أؤكد لك ذلك..».

لم أكن أعير اهتماماً، لكن حين سمعت العليق يتفوه بكلمة «جنادب»، لفت الأمر انتباهي. فهو لسبب ما تقصد التشديد على هذه الكلمة كأنما للتثبت من أنني سوف اسمعها بوضوح، قبل أن يتابع الحديث همساً. لم أحرك ساكناً لكنني أنصت.

«ها إن هوتا عاود الكرة... هذا محتمل... مقالٍ... هاهاها... وحرض على... فطائر أيضاً؟..».

كان هذا كل ما استطعت سماعه، لكن هذه الكلمات المتقطعة - «جنادب» و«مقال» و«فطائر»- تشير إلى أنني كنت محور كل هذه المداولات السرية. إن كانا يرغبان في التكلم في موضوع ما، فلم لا يفعلان ذلك بصوت عال؟ وإن كان هذا الموضوع سرياً، فلم طلبا مني الانضمام إليهما؟ إنهما مثيران للاشمئزاز. جنادب أو جراد، لا فرق، لم أكن أنا المذنب. ذلك الغرير المدير قال إنه سيتولى معالجة

الحادث بنفسه، فقبلت وتجنبت التدخل حتى الآن. من يظن العليق نفسه لينظّر في المسألة بهذه الطريقة؟ هو أساساً لا علاقة له إطلاقاً. كان يجدر به الانهماك بريشته وأقلامه وعدم التدخل في القضية. في مطلق الأحوال، كنت واثقاً بأنني سوف أسوّي مشكلاتي عاجلاً أم آجلاً ولم أكترث لثرثراتهما عني، غير أن عبارات مثل «هوتا عاود الكرة» و«حرض على» أيقظت الشكوك في نفسي. هل يعنيان بذلك أن الشّيهم حرضني على إثارة مشكلة كبرى حول هذا الحادث؟ أم أنه حرض التلاميذ على مضايقتي؟ لم أتمكن من فهم حقيقة كلامهما. وبينما كنت أحدق في السماء، بدأت أشعة الشمس تخفت شيئاً فشيئاً، في حين تهب ريح باردة خفيفة. تشكلت في عمق السماء الصافية غيوم مبعثرة كدخان متصاعد من عود بخور وراحت تنشر غلالة رقيقة من الضباب.

سأل القميص الأحمر فجأة «هل نعود؟» وكأنه تذكر شيئاً ما، فأثنى العليق على هذه الفكرة السديدة وقال «هذا الوقت المناسب تماماً للعودة»، ثم سأل القميص الأحمر «هل تنوي زيارة الأيقونة هذا المساء؟». فأجابه القميص الأحمر مقوماً جلسته بعض الشيء بعدما كان متكئا بكسل على حافة القارب «لا تقل حماقات، هذا قد يجلب المتاعب». ضحك العليق ساخراً «هاهاها، لا تقلق. حتى لو سمع..». حين استدار لإلقاء نظرة خاطفة صوبي، حملقت به

ناقماً بعينين جاحظتين كفنجانين، فتمتم وهو يحك رأسه ويحني كتفيه متظاهراً بأنه لا يحتمل نظراتي «آه، لم أعد أقوى». دجّال ماكر!.

راح النوتيّ يجدِّف عائداً بنا إلى الشاطئ فوق المياه الساكنة. بادرني القميص الأحمر «يبدو لي أنك لم تستمتع كثيراً بصيد السمك». أجبته أنني أفضل التمدد وتأمل السماء. رميت عقب سيجارتي من فوق حافة القارب فسقطت في الماء محدثة نشيشاً طفيفاً ثم طفت خلفنا متأرجحة على الأمواج التي كان المجداف يثيرها. انتقل القميص الأحمر فجأة إلى موضوع آخر قائلاً «التلاميذ مسرورون جداً بوجودك بينهم. نأمل أن تبذل أقصى جهودك معهم».

– لا يبدو لي أنهم مسرورون كثيراً.

– لا، غير صحيح. لست أقول ذلك من باب المجاملة. بل هم مسرورون فعلاً. أليس كذلك، يوشيكاوا؟».

أجاب العليق وعلى وجهه تعبير ملتبس «بل أكثر من مسرورين، إنه جذل حقيقي». أمر عجيب إن أي كلمة يتفوه بها هذا الرجل تثير أعصابي.

تابع القميص الأحمر «لكنك قد تواجه متاعب كبيرة إن لم تحترس».

– أعلم ذلك. ومهما حصل، سوف أكون على استعداد. الواقع

أنني كنت مصمماً على أحد الأمرين: إما أن أحصل على اعتذارات من جميع تلاميذ القسم الداخلي أو أن أطرد من عملي.

قال القميص الأحمر «حسناً، إن كان هذا قرارك، ماذا عساي أقول لك؟ لكنني أفاتحك بالأمر بصفتي مساعد المدير لأنني لا أريد لك سوى الخير. آمل ألا تسيء فهمي».

تدخل العليق كعادته «هذا صحيح، السيد مساعد المدير متعاطف معك تماماً. وبما أن كلينا من طوكيو، أرجو أن نتضامن مع بعضنا البعض إلى أقصى حد ممكن. وأنا على الرغم من تواضع مقامي، أبذل كل ما في وسعي في الكواليس لدعمك». بدا لي لأول مرة أنه يتكلم كأي شخص عادي، لكنني كنت أفضل أن أشنق نفسي على أن أكون مديناً بأي شيء لشخص مثله!

– كما قلت، التلاميذ مسرورون حقاً لمجيئك إلى مدرستنا. لكن ثمة في الوقت نفسه جملة ظروف ينبغي أخذها في الحسبان. أعرف أنك ستواجه أحياناً مواقف ستثير استياءك، لكن آمل أن تتمالك نفسك وتصبر على الأمر. أنا من جهتي لن أقدم على أي خطوة يمكن أن تلحق بك الأذى.

– جملة ظروف؟ ماذا تعني بذلك ؟

– حسناً، الأمر معقد بعض الشيء، لكنك ستفهم الأمور بنفسك شيئاً فشيئاً. لا حاجة إلى أن أشرح لك أي شيء، فالمسائل ستتكشف

من تلقاء نفسها في الوقت المناسب. أليس كذلك، يوشيكاوا؟

- «نعم نعم، بالطبع، الوضع معقد جداً، ليس وضعاً يمكنك فهمه بين ليلة وضحاها. لكنك سوف ترى الأمور بوضوح بنفسك شيئاً فشيئاً. لا حاجة إلى أن أشرح لك أي أمر، فالمسائل ستتكشف من تلقاء نفسها في الوقت المناسب». كان يردد حرفيا ما قاله القميص الأحمر للتو.

- إن كانت تلك الظروف معقدة إلى هذا الحد، فلست بحاجة بالفعل إلى معرفة المزيد، لكنني فكرت أن أطرح السؤال بما أنكما أثرتما الموضوع.

- صحيح، أنا من أثار الموضوع، وكان من غير اللائق بالتالي أن لا أوضح الأمر لك. حسناً، دعني أقول لك أمراً. اعذرني، لكنك تخرجت حديثاً وهي أول تجربة لك في التعليم. ثمة في أي مدرسة اعتبارات شخصية معقدة على أكثر من صعيد ينبغي الأخذ بها، ولن يجديك نفعاً معالجة الأمور بالطريقة المباشرة والصريحة التي كنت تعتمدها وأنت طالب.

- إن كانت صراحتي لا تنفع، فما الذي سيكون مجدياً؟

- هذا تحديداً ما أردت قوله. إن الإفصاح عن رأيك بهذه الصراحة إنما هو دليل على عدم خبرتك.

- بالطبع لا أملك خبرة. فأنا عمري لا يتعدى اثنين وعشرين

عاماً وأربعة أشهر كما هو مكتوب في أوراقي.

– وهذا تحديداً ما يجعل من السهل على البعض استغلالك بطرق لن تخطر ببالك.

– لن أخشى شيئاً مهما حاول الجميع، طالما أنني نزيه ومستقيم.

– بالطبع لن تخشى شيئاً، ليس هناك ما يدعو للخوف، لكن البعض سيسعى على الرغم من ذلك لاستغلالك. الواقع أن سلفك في هذا المنصب وقع في الفخ، ولهذا السبب أردت أن أنبهك وأطلب منك لزوم الحذر.

لاحظت فجأة أن العليق لم يتفوه بكلمة طوال هذا الوقت. نظرت من حولي فوجدته قد انتقل إلى مؤخرة القارب حيث كان مستغرقاً في حديث مع النوتيّ حول صيد السمك. من الأسهل أن أتكلم مع القميص الأحمر في غيابه. سألته:

– من استغل سلفي؟

– لا يمكنني أن أكشف لك ذلك، علينا أن نراعي سمعته. كما أنني لا أملك أدلة دامغة بعد، لذلك لن يكون من الصائب التكلم في الوقت الحاضر. مهما يكن، الآن وقد بدأت العمل، لا أريد أن تذهب كل الجهود التي بذلناها لنحضرك إلى هنا سدى إن حصل أي مكروه. أرجوك أن تلزم الحذر.

- أجل، لكن لا يمكنني أن أكون أكثر حذراً مما أنا عليه. سأكون على ما يرام طالما أنني لم أرتكب بنفسي أي خطأ، ألا تعتقد ذلك؟.

اكتفى القميص الأحمر بالضحك، ولو أنني لم أر الطرافة في ما قلت. لطالما كنت على قناعة راسخة بأن هذه هي الطريق الصواب. لكنني أدركت الآن بعد التفكير في الأمر أن معظم الناس في الواقع يحضونك على الشر، وكأنهم يعتقدون أنه لا يمكن للواحد أن ينجح في الحياة ما لم يكن منافقاً. وإن التقوا بين الحين والآخر شخصاً طيباً مستقيماً، نظروا إليه بازدراء باعتباره طفلاً، فتى عديم الخبرة. يجدر في هذه الحال إلغاء دروس الأخلاق في الصفوف الابتدائية والتكميلية حيث يطلب منكم الأستاذ على الدوام أن تلزموا الصدق وتحذروا الغش والكذب. لم لا تقوم المدارس عندها بتعليم أساليب الكذب والخداع واستغلال الآخرين؟! ربما يصبح حينها الناس والعالم عموماً أفضل حالاً. لقد سخر مني القميص الأحمر معتبراً أنني بسيط. إن كان الصدق والبساطة يجعلان المرء عرضة للاستهزاء، فهذا يعني أنه لم يعد هناك أمل في هذا العالم. كيو لم تهزأ بي مرة لسبب كهذا. لو قلت لها ما قلت للقميص الأحمر، لكانت أعجبت بي إعجاباً شديداً. الحقيقة أنها أرقى بكثير من القميص الأحمر.

- سوف تكون على ما يرام بالتأكيد إن لم ترتكب خطأ، لكنك

حتى لو لم تقترف ذنباً، فقد تواجه متاعب جدية إن لم تدرك إلى أي مدى يمكن أن يكون الآخرون سيئي النية. قد تلتقي شخصاً يبدو لك ودوداً وصادقاً ولا يألو جهداً لمساعدتك في العثور على مسكن، لكن لو كنت مكانك، لراقبته عن كثب... بدأ الطقس يبرد، ألا تعتقد؟ حسناً، إنه الخريف. انظر إلى ذلك الضباب حبريّ اللون الذي يغلف الشاطئ. إنه مشهد رائع!

استدار القميص الأحمر نحو العليق وناداه «هاي، يوشيكاوا! ما رأيك في منظر الشاطئ؟ رائع، ألا تعتقد هذا؟» بالطبع، لم يفوت العليق الفرصة لمساندة مساعد المدير في رأيه فقال «إنه مشهد رائع حقاً. لو كان لدينا وقت كاف لكنت رسمته. لكن للأسف..».

أضيء مصباح في الطابق الثاني من النزل في المرفأ وتصاعدت صفارة قطار في البعيد، في حين انزلق مقدم قاربنا على الرمل وتسمر. وقفت صاحبة النزل على الشاطئ ترحب مجدداً بالقميص الأحمر. قفزت من فوق حافة القارب مطلقاً صيحة عالية حين وطئت قدماي الرمال.

الفصل السادس

لم أكن أحتمل العليق. لو ربط أحد ما صخرة كبيرة بعنقه وألقاه في المحيط، لكان أسدى خدمة عظيمة لليابان. أما القميص الأحمر، فكان وقع صوته يبعث فيّ الغثيان. لا بد أنه لا يتكلم بصوته الطبيعي بل يفتعل نبرته المتكلفة لتكون له تلك العذوبة. في وسعه التكلف قدر ما يشاء، لكن وجهه كفيل بإفشال كل محاولاته. مظهره لا ينطلي على أحد سوى على أيقونته تلك. في كل الأحوال، كان وقع كلامه أقوى في نفسي من وقع كلام العليق، كونه مساعد المدير. بعدما عدت إلى غرفتي وفكرت مليّاً في ما قاله، وجدت أن فيه شيئاً من المنطق. غير أنه لم يصدر أي اتهامات واضحة، ولم أكن بالتالي واثقاً بأنني أحسنت فهم مغزى كلامه، ولو أنه كان يشير بشكل أساسي إلى أن الشّيهم رجل سيئ فيجدر بي الاحتراس منه. إن كان ذلك صحيحاً، كان يجدر به أن يكون رجلاً ويسمي الأمور بأسمائها. وإن كان الشّيهم فعلاً أستاذاً رديئاً إلى هذا الحد، فمن الأفضل له أن

يطرده على الفور! قد يكون مساعد المدير يحمل شهادة جامعية، غير أنه ضعيف الشخصية إلى حد مدهش. لا بد أنه جبان حتى ينم على شخص خلف ظهره دون أن يجرؤ على الإفصاح عن اسمه. غالباً ما يكون الضعفاء طيبين، وهذا ما يجعلني أتوقع بعض الطيبة من القميص الأحمر أيضاً، طيبة تتناسب مع تلك الرقة الأنثوية في شخصيته. اللّطف والصوت أمران مختلفان تماماً، ومن الخطأ عدم الإقرار بطيبته لمجرد أن صوته لا يعجبني. إنه عالم غريب فعلاً، هذا الذي يحوي شخصاً تمقته فيبادلك الود، في حين يوجد آخر قريب منك يضمر لؤماً. عالم مهزلة! ربما هذه حال الأرياف حيث كل شيء على عكس ما في طوكيو. يجدر بك الاحتراس في مكان كهذا، فالنار فيه قد تنقلب فجأة جليداً، والصخور كتل توفو. لكن على الرغم من ذلك هل يعقل أن يكون الشّيهم يحرض التلاميذ ضدي؟ فهو لا يبدو من النوع الذي يلحق الأذى بالآخرين. لكنه من جهة أخرى الأستاذ الأكثر شعبية، وربما يمكنه القيام بما يحلو له والنجاة بفعلته. لكن على الرغم من ذلك... بصراحة، إن كان يريد التعرض لي، لكان من الأسهل عليه مواجهتي شخصياً وإثارة شجار معي مباشرة، من اختيار مثل هذه الأساليب الملتوية. إن كنت أمثّل له مشكلة ما، يمكنه بكل بساطة أن يأتي إلي ويطلب مني الاستقالة. ما من مشكلة من هذا الصنف إلا وتجد لها تسوية بالتراضي. وإن

تبين أنه على حق، عندها أكون على استعداد لتقديم استقالتي صباح اليوم التالي. هذه ليست الوظيفة الوحيدة المتاحة على وجه الأرض، ومهما حصل لي، أنا واثق بأنني سأتدبر أمري ولن أتضور جوعاً. كان بوسع الشّيهم التصرف بطريقة منطقية أكثر.

كان الشّيهم بادر عند وصولي إلى دعوتي لتناول كوب من المثلجات. صحيح أن الدعوة اقتصرت على المثلجات، لكن قبولها من شخص مثله بوجهين سيبقى وصمة عار علي. لم أتناول سوى كوب واحد، ولم أكلفه بالتالي أكثر من سن ونصف. لكن أن أكون مديناً لمنافق من هذا الصنف ولو بسن واحد أو حتى نصف سن، ذلك سينغص حياتي بكاملها. قررت أن أرد له المال في الغد ما إن أصل إلى المدرسة. كنت اقترضت من كيو قبل خمس سنوات ثلاثة ينات لم أردها لها حتى الآن، ليس لأنني لا أملك المبلغ، بل لأنني بكل بساطة لم أفعل أو لم أشأ. هي نفسها لم تكن تنتظر مني أن أردّ لها المبلغ ذات يوم. لم أكن أنوي إطلاقاً القيام بذلك، لأن تسديد المال لها كان سيعني أن الأمر مجرد صفقة مالية بين شخصين غريبين. ولو عاملتها بهذه الطريقة، لكان بدا وكأنني أشكك في سخاء كيو وفي صدق مشاعرها حيالي. لم أكن أحاول خداعها واستغلالها بعدم رد المال لها، بل كنت أعتبرها جزءاً مني، من كياني. بالطبع، لست بوارد التشبيه بين كيو والشّيهم، فثمة عالم يفصل بينهما، لكن حين

يدعوك أحد لتناول شيء ما، سواء أكان كوب مثلجات أو مجرد كوب من الشاي، وتقبل الدعوة دون تردد، فهذا يعبر عن احترامك لهذا الشخص وطيبة نواياك حياله. يمكن بسهولة أن تدفع بنفسك ثمن ما تتناوله، لكن التقدير الذي تشعر به في قلبك حيال شخص ما عندما تقبل منه معروفاً هو بحد ذاته نوع من المبادلة يتخطى كل ما يمكن شراؤه بالمال. قد لا أكون أتمتع بمنصب أو موقع يثير الإعجاب، لكنني على الرغم من ذلك إنسان حر وناضج. وحين يعتبرك رجل كهذا جديراً بالاحترام، فهذا أمر ثمين لا تضاهيه كل ثروات العالم.

صحيح أنني قبلت من الشّيهم أن يدفع عنّي ذلك المبلغ الزهيد، غير أنني في الواقع سمحت له بالحصول على ما يفوقه أضعافاً في المقابل. كان يجدر بالتأكيد أن يشعر بتقديره إياي، وها هو، عوضاً عن ذلك، يحيك لي مؤامرات ومكائد خلف ظهري. هذا يكشف كم أنه شخص كريه! غداً أذهب وأرد له المال ولا يعود أي منا مديناً بشيء للآخر. وبعدما أنتهي من مسألة الدين هذه، أكون جاهزاً لمواجهته.

تملكني النّعاس بعد كل هذه الأفكار والتأملات وغفوت أخيراً مستغرقاً في نوم عميق. في الصباح ذهبت إلى المدرسة أبكر من العادة لتنفيذ خطتي وانتظرت وصول الشّيهم، غير أنه لم يأت. وصل القرع الشاحب، ثم أستاذ الأدب الصيني الكلاسيكي وبعده العليق. حتى

القميص الأحمر وصل، في حين ظلَّ مكتب الشّيهم خالياً إلا من قطعة طبشور على سطحه. كانت قبضتي مطبقة على القطع النقدية منذ أن خرجت من غرفتي كمن يمسك النقود لدفع ثمن دخوله إلى الحمام، وكنت سأناوله إياها ما إن يدخل قاعة المعلمين. حين بسطت قبضتي أخيراً، وجدتها مبللة بالعرق. لا شك أنه سيبدي تعليقا ما إن أعطيته النقود دبقة كما هي، ففردتها على مكتبي ونفخت عليها إلى أن جفت ثم أمسكتها مجدداً. اقترب عندها القميص الأحمر وراح يعتذر عما حصل في اليوم السابق. قال «لا بد أنه كان يوماً شاقاً لك» فأجبته «لا، على الإطلاق، بل إن ما حصل أثار شهيتي». وضع عندها أحد مرفقيه على مكتب الشّيهم وقرب وجهه العريض المسطح إلى أن كاد يلتصق بأنفي وقبل أن يتسنى لي القيام بأيَّة حركة طلب مني أن أبقي ما قالاه هو والعليق بالأمس في طريق عودتنا بالقارب سراً، مستفهماً إن كنت أطلعت أياً كان على حديثنا. ذلك الصوت الأنثوي كان يكشف مدى توتّره. بالطبع لم أفش بشيء حتى هذا الحين، غير أنني أعتزم بالتأكيد القيام بذلك، وقبضتي لا تزال مطبقة على النقود على استعداد لمدها ما إن يدخل الشّيهم. سوف أجد نفسي محرجاً إن حاول منعي من الكلام.

غريب سلوك القميص الأحمر! فهو يطرح علي لغزاً حله بديهي، متجنباً في الوقت نفسه التكلم بصراحة وذكر الشّيهم بالاسم، ثم

يأتي ويحذرني من قيام مشكلة إن فككت رموز اللغز. ليس هذا هو التصرف المسؤول الذي يمكن توقعه من مساعد مدير! كان من الأفضل له وقد بدأت المعركة مع الشّيهم تلوح في الأفق، أن يتأهب لخوض غمارها إلى جانبي. هذا هو السلوك المنتظر من مساعد مدير، وهو السلوك الذي يمكن أن يبرر ارتداء ذلك القميص الأحمر.

حين قلت له إنني لم أتفوه بشيء حتى الآن غير أنني أعتزم مفاتحة الشّيهم بالمسألة عند وصوله، بدا القميص الأحمر في غاية العصبية وقال لي «لا، هذا سيكون تصرفاً خاطئاً وسيقود إلى مشاكل. لا أذكر أنني قلت شيئاً محدداً بشأن السيد هوتا. إن قمت الآن بأي خطوة متسرعة، فسوف تضعني في موقع صعب جداً. ولا أعتقد أنك انضممت إلى فريقنا لزرع الشقاق والفتنة». لم يسعني رداً على هذا الهذيان العجيب سوى تأكيد أنه لن يكون لائقاً بالطبع وأنا أتقاضى راتبي من المدرسة، أن أثير المشاكل فيها. فقال وقد بدأ العرق يتصبب منه من شدة القلق «إذاً، أرجو منك أن تبقي حديثنا بالأمس سراً بيننا ولا تنقله لأي كان». طمأنته «حسناً، لن يكون الأمر سهلاً علي، لكنني سألتزم به إن كان سيسبب لك كل هذه المتاعب». لم يكتف بردّي بل أصرّ «يمكنني الاعتماد عليك إذاً؟» إلى أي مدى يمكن لذلك المخنّث أن يصل؟ لو كان جميع خريجي الجامعات على هذه الشاكلة، لما كان لحملة الشهادات أي قيمة. فهو

يطلب مني أمراً غير منطقي ويقول كلاماً غير مترابط، ثم يشكك في وعدي. مهما كان يظن بي، فأنا رجل وهل يمكن لرجل أن ينحدر إلى حد أن يطعن بأحد وينكث بوعد قطعه؟!

في هذه الأثناء وصل أستاذان وجلسا إلى المكتبين المحيطين بمكتبي فسارع القميص الأحمر إلى التراجع عائداً إلى مكتبه. حتى مشيته بدت متكلفة، فكان يحرص وهو يعبر الغرفة على السير بخفة حتى لا يصدر صوتاً وهو يطأ الأرض بنعليه. أن يكون المشي بخطى صامتة مصدر اعتزاز، هذا احتمال لم يخطر لي من قبل. فالمشية العادية كأي شخص طبيعي تبقى الأنسب ما لم تكن تتمرن لامتهان السرقة والاختلاس. دق جرس الحصة الدراسية الأولى ولم يكن الشّيهم قد وصل بعد. تركت النقود على مكتبي وتوجهت إلى الصف.

استغرق الدرس أطول من الفترة المحددة له بقليل وحين عدت إلى قاعة المعلمين كان جميع الأساتذة الآخرين جالسين خلف مكاتبهم يتحادثون وقد وصل الشّيهم أخيراً. كنت أظن أنه سيغيب عن المدرسة، غير أنه تأخر فقط. ما إن لمحني حتى بادرني قائلاً إنني مسؤول عن تأخيره وإنه يجدر بي تسديد غرامة عن ذلك التأخير. لمت النقود عن مكتبي ووضعتها على مكتبه موضحاً أنها ثمن المثلجات التي قدمها لي من قبل. سألني ضاحكاً «ماذا تعني؟» لكن

حين لاحظ أنني لا أمازحه بل أعني ما أقول، أعاد النقود إلى مكتبي طالباً مني الإقلاع عن هذا المزاح السمج.

أجبته «لست أمزح، بل إنني بمنتهى الجدية. لا داعي ليقدم لي أمثالك أي مثلجات، وأنا مصر على تسديد المبلغ لك. لماذا لا تأخذه بكل بساطة؟

– حسناً، إن كانت بعض النقود تعني لك هذا القدر، فسوف أستردها. لكن لماذا تذكرت المسألة فجأة، وكأنها خطرت لك للتو؟

– لا فرق إن كان الآن أو في أي وقت آخر، المهم أن تعود النقود. لا أريد منك أي خدمات، استرجع نقودك، هذا كل ما في الأمر.

تأملني الشّيهم ملياً ببرودة ثم رفع كتفيه بازدراء. لو لم أكن قطعت وعداً للقميص الأحمر، لكنت فضحت مكره وسوّيت الأمر معه هنا حالاً، لكنني تعهدت بلزوم الصمت ولم يكن بوسعي عمل أي شيء. وجدت نفسي في موقف لا يحتمل، فالغضب يغلي داخلي في حين اكتفى هو بهز كتفيه.

– حسناً، سأسترد ثمن المثلجات. والآن أرجو منك أن تحزم أمتعتك وتغادر الغرفة التي استأجرتها.

– خذ المال فحسب. أما أن أغادر غرفتي أو أبقى فيها، فهذا شأني وليس شأنك.

– الواقع أنه شأني. فقد جاء إليّ صاحب النزل أمس وأبلغني بأنه يريدك خارج الغرفة، وحين شرح لي السبب، بدا لي الأمر منطقيا تماماً. لكنني فضلت الذهاب والتحقق من المسألة بنفسي. لذلك توقفت عند النزل هذا الصباح في طريقي إلى المدرسة، وهذه المرة أخبرني كل شيء».

لم يكن لدي أي فكرة عما يتكلم. قلت له «كيف يفترض بي أن أحزر ما قاله لك؟ ومن نصّبك حكماً أساساً؟ إن كانت هناك مشكلة، فمن الواجب مناقشتها أولاً. كيف تتجرأ وتفترض أنه على حق ومن ثم تعاملني بهذه الفظاظة؟

– حسناً، سأقول لك ما المسألة: سلوكك سيئ إلى حد لم يعد أي منهما يعلم كيف يتصرف معك. السيدة التي تملك النزل ليست خادمتك الشخصية، ألا تعلم ذلك؟ تتمادى عليها فتمدّ لها رجليك وتطلب منها أن تمسحهما، هذا سلوك مشين!

– متى طلبت منها ذلك؟

– ربما لم تفعل ذلك، لكن الواقع أنهما سئما منك. يقولان إنه في وسعهما بيع لوحة في أي وقت وكسب عشرة أو خمسة عشر يناً، ولا حاجة لنزلاء من أمثالك.

– هذان المنافقان الوقحان! لماذا قبلا أصلاً بتأجيري الغرفة إن كانا على هذا القدر من الحذاقة؟

– كيف لي أن أعرف؟ فقد قبلا والآن نفد صبرهما منك ويريدانك أن تترك الغرفة. إذاً عليك الخروج.

– حسناً، لن أبقى هناك يوماً واحداً حتى لو توسلا إلي. لكن لا تنس أنك أنت من عرفني بهذا الزوج من الدجالين. الذنب ذنبك.

– ذنبي أنا؟ ألا تظن أنك شخص لا يحتمل؟».

ذاك الشّيهم كانت أطباعه لا تقل حدة عن أطباعي ولم يكن ليدعني أرفع النبرة دون أن يرد بالمثل. كان جميع من في القاعة يحاولون فهم ما يجري ويراقبوننا فاغرين أفواههم. أنا من جهتي كنت واثقاً بأنني لم أرتكب شيئاً مخزياً فوقفت بوسط القاعة أواجههم جميعاً وأحدّق بهم الواحد تلو الآخر. كان الذهول يرتسم على وجوه الجميع باستثناء العلّيق الذي كان جالساً يبتسم وكأنه يستمتع بمشهد طريف. حملقت بوجهه الأبله متوعداً وكأنني أسأله إن كان يسعى هو أيضاً للمتاعب، فمسح الابتسامة عن سحنته متخذاً تعبيراً أكثر رزانة. بدا لي مضطرباً بعض الشيء. بعد لحظات دقّ الجرس من جديد فقاطع شجاري مع الشّيهم وذهب كل منا إلى صفه.

كان من المقرر أن يعقد الأساتذة مجلساً تأديبياً بعد الظهر لمناقشة الإجراءات الواجبة بحق تلاميذ القسم الداخلي الذين أساؤوا التصرف في الليلة السابقة. كانت تلك أول مرة أشارك في مجلس تأديبي ولم تكن لدي أي فكرة عن هذا النوع من الاجتماعات،

لكنني افترضت أن يجتمع المعلمون ويعرض كل منهم وجهة نظره، ثم يخرج المدير بقرار ملائم يعكس حلاً وسطاً بين كل هذه الآراء. هذه هي الطريقة المثلى لمعالجة مشكلة يصعب حسمها بسبب غموض وقائعها. لكن في حالتنا تلك التي لا يمكن لأي شخص عاقل إلا أن يعتبرها مشينة، يكون عقد مجلس تأديبي مجرد مضيعة للوقت. فالوقائع واضحة وضوح الشمس وكان يجدر بالمدير اتخاذ تدابير على الفور، لكنه عوضاً عن ذلك أبدى تردداً وتقاعساً. إن كان هذا سلوك المديرين، فهذا يعني أنهم غير جديرين إطلاقاً وأن لقب «مدير» مجرد مرادف لـ«ضعيف متخاذل».

عقد الاجتماع في قاعة طويلة ضيقة ملاصقة لمكتب المدير وتخصص عادة لتناول الطعام. وضعت في وسطها طاولة طويلة صف من حولها ثلاثون مقعداً جلدياً أسود، ذكرتني بالمطاعم غربية الطراز في منطقة كاندا في طوكيو. جلس المدير على رأس الطاولة وإلى جانبه القميص الأحمر. قيل لي إن جميع الأساتذة الأخرين يجلسون أينما يشاؤون، باستثناء أستاذ الرياضة الذي يختار دائماً الجلوس بتواضع عند الطرف المقابل من الطاولة. لم أكن أتقن تلك الشكليات، فجلست بين أستاذ العلوم وأستاذ الأدب الصيني الكلاسيكي. في الجهة المقابلة جلس الشّيهم والعليق جنباً إلى جنب. كانا فعلاً على طرفي نقيض، العليق بملامحه التي تشير كلها

إلى الانحطاط والصغر، والشّيهم بمظهره المهيب، أقر له بذلك ولو أنه الآن عدوي. ذكرني منظر الشّيهم برسمة رأيتها خلال جنازة والدي، وقد شرح لنا الراهب عندها أن الرسم يصور إلهة تدعى إيداتا، حامية المعابد البوذية. كان الشّيهم لا يزال غاضباً وراح يلقي نظرات حانقة في أرجاء القاعة وكأن عينيه تدوران في محجريهما، وحين كانت عيناه تقعان علي، كنت أبادله النظر محملقاً فيه حتى لا يظن أنني أخشاه. إن كان يظن أن في وسعه هزمي بنظراته، فعليه أن يعيد حساباته. قد لا تكون عيناي جميلتين لكنهما لا تقبلان المقارنة من ناحية الحجم، حتى أن كيو كانت تتنبأ لي دائماً بمستقبل زاهر في التمثيل إن ذهبت إلى مسرح كابوكي.

قال المدير مستهلاً الاجتماع «يبدو لي أن الجميع حاضر»، فقام سكرتير المدرسة كاوامورا بتعداد الموجودين. تبين أن أحد المعلمين كان غائباً فقال «ينقص أستاذ» محاولاً تبيان اسم الغائب. كان واضحا أن الأستاذ الذي لم يأت هو القرع الشاحب. لست أدري إن كان ثمة رابط خفي بيننا يعود ربما إلى حياة سابقة، غير أنني منذ أن رأيت ذلك الرجل للمرة الأولى ووجهه مطبوع في ذهني. إنه أول من تتجه إليه عيناي عندما أدخل قاعة المعلمين وتبقى صورته ماثلة في ذهني حتى وأنا أتسكع في مكان ما. أذهب إلى الحمام، فيتراءى لي أحياناً جالساً في مياه الحوض بوجهه الشاحب المنتفخ.

وحين ألقي عليه التحية، يرد على سلامي متمتماً وينحني بتواضع ما يجعلني أشعر بالأسف نحوه. لم يكن أي من أساتذة المدرسة يتمتع بهدوء القرع الشاحب. نادراً ما كان يبتسم، نادراً ما يتفوه بكلمة واحدة أكثر مما ينبغي. كنت أصادف أحياناً كلمة «حكيم» في الكتب، لكنني لطالما ظننت أنها مجرد كلمة من كلمات القاموس لا نماذج لها في الحياة الواقعية، إلى أن التقيت القرع، فبدأت من شدة إعجابي به أفكر للمرة الأولى في حياتي أنها قد تكون في نهاية المطاف أكثر من كلمة.

انتبهت لغياب القرع ما إن دخلت قاعة الاجتماع، ولا عجب في ذلك وقد أصبحت له هذه المكانة بالنسبة لي. الحقيقة أنني كنت أنوي الجلوس إلى جانبه ورحت أقلب النظر خلسة من حولي بحثاً عنه، لكن المدير قال إنه لن يتأخر بالتاكيد. أزال شريط حرير أرجوانياً ملفوفاً حول رزمة أوراق وضعت أمامه على الطاولة وراح يدقق في إحدى الوثائق المنسوخة. أخذ القميص الأحمر يمسح غليونه الكهرمان بمحرمة من الحرير. كانت هذه إحدى خصاله، خصال تتوقعها تماماً من رجل مثله. أما الآخرون، فكانوا يتهامسون فيما بينهم، وبعضهم ينشغل بخط رسوم على الطاولة بالممحاة المثبتة على طرف أقلامهم، لمجرد تقطيع الوقت. قام العليق بمحاولتين فاشلتين لبدء حديث مع الشّيهم، غير أنه لم يحصل في المقابل سوى على تمتمة

وتنهدات. يبدو أن الشّيهم كان يركز اهتمامه عليّ فيرمقني بنظرات ساخطة أردّها له في كل مرة حتى لا يتوهم أنه الأقوى.

وصل القرع أخيراً بعد طول انتظار وكان مثيراً للشفقة كعادته. حيّا الغرير بانحناءة وقورة واعتذر عن تأخره الناتج عن ظروف قاهرة على علاقة بقضية ما. أعلن الغرير «حسناً، إذاً، فليبدأ الاجتماع الآن» وكلف السكرتير كاوامورا بتوزيع نسخ من الوثائق. البند الأول المدرج على جدول أعمال الاجتماع كان «العقوبات»، يليه «فرض النظام على التلاميذ»، ثم موضوعان أو ثلاثة. اتخذ الغرير تلك النبرة الخطابية المملة التي يعتمدها حين يسعى لطرح نفسه كتجسيد حي لروحية التنشئة واتحفنا بخطاب قال فيه على وجه التقريب:

«إن أي حالات يسجل فيها سوء تصرف في هذه المدرسة، سواء أكان من جانب التلاميذ أو المعلمين، إنما أعتبرها دليلاً على إخفاق أخلاقي شخصي من جانبي. وكلما سجل حادث كهذا، ينتابني إحساس بالخزي يدفعني إلى التأمل في أعماق نفسي والتشكيك في جدارتي بوصفي مديراً. أتوجّه إليكم للأسف مرة جديدة اليوم أيها السادة الكرام لأقدم اعتذاراتي المتواضعة والصادقة عن أحداث جديدة من هذا النوع وقعت مؤخراً. لكن ما حصل حصل، ويتعين الآن بالتالي اتخاذ الإجراءات المناسبة. وبما أنكم على علم بالوقائع،

أطلب منكم بالتالي أن تساعدوني وتشاطروني بكل صراحة تصوركم لأفضل طريقة لتصحيح الوضع».

وبينما كنت أستمع إلى هذا الخطاب، اقتنعت بإعجاب بأن أشخاصاً من صنف المدير الغرير أنعم عليهم الله حقاً بطلاقة اللسان. وإن كان المدير يشعر فعلاً بأنه يتحمل مسؤولية الحادث برمته، ذاهباً إلى حد وصف المسألة على أنها خطأ ارتكبه هو نفسه وإخفاق أخلاقي من جانبه، أليس من المفترض عندها أن يسقط مسألة فرض عقوبات على التلاميذ ويقدم استقالته بكل بساطة؟ وعندها لما كان من الضروري أساساً في هذه الحال أن يكلف نفسه عناء عقد اجتماع للمعلمين. المسألة لا تتطلب سوى القليل من المنطق، فهي واضحة جلية: كنت جالساً مسالماً في مناوبتي الليلية حين أساء التلاميذ التصرف. ليس الذنب ذنبي، ولا هو ذنب المدير، بل من الواضح أنه ذنبهم وحدهم دون سواهم. وإن كان الشّيهم لعب دوراً في تحريضهم، فمن الواجب عندها التخلص منه هو أيضاً معهم. هل سمعتم يوماً بشخص يقضي وقته في تغطية أخطاء الآخرين ويدعي أمام الجميع أنها في الواقع أخطاؤه؟ هذا تصرف شاذ لا يمكن أن يخطر سوى ببال غرير. بعدما انتهى من خطابه الفارغ، نظر من حوله راضياً عن أدائه. لم يكن لأي منا ما يقوله. أستاذ العلوم جلس محدقاً في غراب حطّ على السقف، في حين كان أستاذ الأدب

الصيني الكلاسيكي منهمكا بطي ورقته المنسوخة وببسطها مراراً وتكراراً. كان الشّيهم لايزال يحدق بي. إن كانت كل الاجتماعات على شكل هذه المهزلة، فمن الأنسب مقاطعتها واغتنام هذا الوقت للقيام بقيلولة.

بدأ الصمت يستثيرني فقررت خرقه بخطاب بليغ من ارتجالي. هممت بالنهوض عن كرسي، غير أن القميص الأحمر بدأ الكلام فتسمرت في مكاني. وضع غليونه جانباً وراح يتكلم وهو يمسح وجهه بمحرمة حرير مضلعة. لا بد أنه نجح في انتزاع هذه المحرمة من الأيقونة، فمحارم الرجال من القطن الأبيض. بادرنا قائلاً «أنا أيضاً خجلت من قلة جدارتي بوصفي مساعد المدير حين علمت بسلوك تلاميذ القسم الداخلي، وينتابني إحساس عميق بالخزي لإخفاقي في إعطاء الإرشاد الأخلاقي الواجب لهؤلاء الشبان. إن أحداثاً من هذا النوع تكون حتماً نتيجة خلل معين في مكان ما. إن نظرنا إلى هذا الحادث تحديداً على أنّه حادث معزول، قد يبدو لنا أن التلاميذ وحدهم مذنبون، لكن لو وضعناه في إطار المشهد الشامل، لوجدنا عندها أن المسؤولية الفعلية تقع على عاتق المدرسة ككل. أعتقد بالتالي أن معالجته على أنه مجرد ظاهرة سطحية بإنزال عقوبات صارمة قد يؤدي في الواقع إلى تبعات سلبية مستقبلاً. من جهة أخرى، من المستحيل أن نكون هنا أمام تعبير عفوي عن

فيض من الحيوية الشبابية، بل يبدو لنا أن المقالب كما ارتكبت، إنما وقعت في حالة شبه لاواعية لم يكن التلاميذ يميزون فيها ما بين الخطأ والصواب. بالطبع، يعود للمدير وحده اتخاذ أي إجراء تأديبي يراه مناسباً، ولا أعتزم إطلاقاً التعدي على صلاحياته، لكن أتمنّى عليه أن يأخذ بالاعتبار الظروف التخفيفية وأن تكون الإجراءات التي سيتخذها متساهلة قدر الإمكان».

إن كان الغرير تصرف كما يمكن توقعه من غرير، فقد كان القميص الأحمر بمستوى التصورات لشخص مثله. ها هو إذاً، يؤكد بشكل صريح لا لبس فيه أنه إن كان التلاميذ قد تجاوزوا كل الحدود، فهذا ليس ذنبهم بل ذنب الأساتذة. بكلام آخر، إن قام مجنون ما بسحق رأس شخص آخر، فهذا الشخص الذي يتم التعدي عليه هو المذنب الحقيقي، وهذا تحديداً ما دفع المجنون لضربه. يبقى لي أن أشكر هذا الجمع البليغ! هكذا إذاً، إن كان التلاميذ يعانون من طفرة حيوية شبابية، فليخرجوا إلى الملعب وليوظفوها في مصارعة السومو، لكن هل يتوقعون مني فعلاً أن أقتنع بأنهم كانوا في ما يشبه الغيبوبة حين وضعوا الجنادب في فراشي؟ يمكنهم وفق المنطق ذاته أن يقطعوا عنقي وأنا نائم، وسوف يدّعي القميص الأحمر على الأرجح أنهم فعلوا ذلك في شبه غيبوبة ويدعهم ينجون بفعلتهم.

بينما كانت كل هذه الأفكار تتدافع في رأسي، فكرت أن أنهض

وأقول شيئاً ما، لكن علي في هذه الحال أن أتكلم ببلاغة تصعقهم وإلا فلا جدوى من الأمر. فأنا أتلعثم تماماً حين يشتد بي الغضب، وما إن أتفوّه بكلمة أو كلمتين حتى ينقطع حبل أفكاري وأقف عاجزاً. قد لا يكون الغرير والقميص الأحمر يضاهيانني شجاعة وقوة شخصية، لكنهما بالتأكيد فصيحان ولا أود إعطاءهما ذريعة للاستهزاء بي لمجرد أنني لم أحسن اختيار الكلمات الملائمة. كنت جالساً أفكر في وسيلة لإيجاد الكلمات التي تعبر على أفضل وجه عن أفكاري، حين فوجئت بالعليق ينهض في الجهة المقابلة من الطاولة لتولي الكلام. العليق، آخر من كنت أتصور أن يتكلم! هل كان هذا البهلوان يظن فعلاً أن لرأيه أي قيمة؟ بدأ يتلو بصوته الرتيب السخيف «إن حادث الجندب الأخير وما تلاه من بلبلة هما حقاً حوادث مشؤومة وعلى قدر من الخطورة كفيل بإثارة مخاوف كبرى لدينا كمربين حريصين على مستقبل زاهر لمدرستنا. يعود لنا جميعاً كمربين في هذا الظرف الحرج، أن ننكبّ باندفاع كامل على مراجعة متأنية لسلوكنا وتصرفاتنا وأن نعمد إلى إعادة فرض حسّ بالانضباط والنظام في مدرستنا. إن الآراء التي عبر عنها مديرنا ومساعد المدير للتو تنطوي على تحليل ثاقب يخوض في جوهر المسألة المطروحة علينا، وأودّ التعبير عن تأييدي المطلق لها. دعونا نتساهل أقصى ما يمكن في العقوبات التي سنفرضها». كان هذا

كلاماً طنّانا غير أنه فارغ. ذلك العليق يرصّع حديثه بعبارات متأنقة مقتبسة عن الأسلوب الصيني، وبالكاد يمكنني فهم أي شيء منها. كل ما فهمته من كلامه كان التأييد المطلق.

لم أفهم وجهة النظر التي كان العليق يسعى لعرضها، غير أن غضباً شديداً تملكني ولم يعد بوسعي التريث فهببت ناهضاً دون حتى أن أرتّب في رأسي مخططاً لما سأقوله وتمتمت «أنا من جهتي أعبّر عن معارضتي المطلقة..». كان هذا أقصى ما تمكنت من التفوه به قبل أن أتلعثم، وبعد وقت بدا لي طويلاً نجحت في إضافة «لا يسعني تقبّل مثل هذا المنحى العبثي الذي تتخذه الأمور». ما إن تفوهت بتلك الكلمات حتى انفجر الجميع بالضحك. تابعت «المسؤولية تقع بالكامل على التلاميذ. وإن لم نرغمهم على الاعتذار، فسوف يعاودون الكرة. لن يكون من المبالغ به إن تم طردهم. هذا القدر من السفاهة... لمجرد أن هناك أستاذاً جديداً..». جلست فتلاني إلى الكلام أستاذ العلوم الذي كان جالساً إلى يميني، مؤيداً الخيار الضعيف في معالجة المسألة وقال «صحيح أن سلوك التلاميذ يستوجب اللوم، لكنّ إنزال عقوبات شديدة الصرامة بهم قد يكون له مفعول عكسي يدفع الأمور إلى الأسوأ. إنني أوافق مساعد المدير الرأي بأنه من الأفضل اعتماد نهج متساهل». كذلك أيد أستاذ الدروس الصينية الكلاسيكية إلى يساري سياسة التهاون، وأبدى أستاذ التاريخ أيضاً

رأيا مماثلاً. اللعنة! الجميع تقريباً من رأي القميص الأحمر. إن كان هؤلاء الأشخاص يتصورون أنه من الممكن إدارة مدرسة على هذا النحو، فليتضامنوا معاً وليفعلوا. أما أنا، فكنت أحسم المسألة ما بين أمرين: إما أن نرغم التلاميذ على الاعتذار، أو أن أقدم استقالتي. وفي حال غلبت وجهة نظر القميص الأحمر، فكنت على استعداد للعودة إلى غرفتي وحزم أمتعتي. كنت أعلم أنني لا أتمتع بالبلاغة الكافية لإقناع هذه الزمرة بمطلق فكرة، وحتى لو كانت لي تلك البلاغة، لم أعد واثقاً حتى بأنني مازلت أرغب في التعاطي معهم. وبما أنه لن يعود هناك ما يربطني بهذه المدرسة بعد الآن، فما همني ما سيؤول إليه هذا الاجتماع؟ مهما قلت الآن سوف يعاودون الضحك بالتأكيد. لذلك فضلت الجلوس ولزوم الصمت.

وبينما كانت هذه الأفكار تجول ببالي، هبّ الشّيهم عن مقعده واقفاً بحزم بعدما بقي منذ بدء الاجتماع ينصت دون أن يقول كلمة. كنت واثقاً بأنه سينضم بدوره إلى رأي القميص الأحمر، ولم يكن ذلك يهمني أصلاً بما أنه بات عدوّي. عوضاً عن ذلك، صاح بصوت مدوّ هز زجاج النوافذ «إنني على خلاف تام مع مساعد المدير ومعكم جميعاً. أيّاً كانت الزاوية التي ننظر منها إلى هذه القضية، لا يمكننا التغاضي عن أننا هنا أمام مجموعة من عشرين تلميذاً من القسم الداخلي قاموا بمحاولة تنم عن قلة احترام للاستهزاء

بأستاذ انضم حديثاً إلى فريقنا. يبدو أن مساعد المدير يعتقد أن سبب الحادث يكمن في شخصية الأستاذ المعني، لكنني شخصياً أخشى أن يكون للأسف أساء فهم الظروف. هذا الأستاذ الجديد كان مكلفاً بالمناوبة الليلية في مهاجع التلاميذ بعد قليل من وصوله إلى هنا، ولم يكن يعرف التلاميذ سوى منذ عشرين يوماً بالكاد. لم تكن مهلة أقل من عشرين يوماً كافية حتى يتمكن التلاميذ من تقييم شخصيته ومدى معرفته بمادّته عن حق. لو تمت معاملته بهذه الطريقة المهينة لأنه أثبت أنه غير جدير بالاحترام، فقد يكون هناك عندها مبرر لإيجاد ظروف تخفيفية لسلوك التلاميذ، لكن اختلاق أعذار لتصرف تلاميذ وقحين يستهزئون بأستاذ جديد دون أي مسوّغ سينتقص بنظري من سمعة هذه المدرسة. إن جوهر التعليم لا يقتصر على نقل المعرفة والمعلومات، بل يكمن أيضاً في التنشئة على قيم النبل والاستقامة والرجولة، ما يتطلب بنظري استئصال الخصال غير المستحبة كالبذاءة والسطحية والغطرسة. إن سمحنا لأنفسنا بالتسويف والتغاضي بدافع الخوف سواء من رد فعل عكسي أو من تفاقم الأحداث، من يدري إن كانت ستسنح لنا الفرصة مجدداً لتصحيح هذه النزعات السيئة؟ مهمتنا في هذه المدرسة تقتضي منا تحديداً المكافحة من أجل استئصال هذه النزوات، وأعتقد أنه لما كان يجدر بنا أساساً أن نمتهن التربية إن كنا سنهمل هذا الواجب. لهذه

الأسباب، أعتبر من الضروري إرغام جميع تلاميذ القسم الداخلي على الاعتذار مباشرة من الأستاذ المعني بالقضية». انتهى الشّيهم من عرض رأيه وجلس متثاقلاً على كرسيه. خيّم صمت مطبق في القاعة. القميص الأحمر انهمك مجدداً في فرك غليونه. أما أنا، فشعرت بسعادة عارمة. بدا لي وكأن الشّيهم عبر تماماً عن كل ما كنت أود قوله. وفي غمرة سروري وطيبتي العفوية، نسيت كلياً الخلاف بيننا ونظرت إليه مقدِّراً، لكنه تجاهلني كليّاً.

بعد لحظة، نهض الشّيهم مجدداً وقال «أود إضافة نقطة أخرى نسيت أن أذكرها. علمت أنه في أثناء مناوبته الليلية، خرج الأستاذ من المدرسة ليذهب إلى الحمام. أعتقد ان هذا الأمر لا يمكن تبريره. أن يقوم شخص مكلف مراقبة المدرسة، باغتنام الوضع والخروج، وإلى أين؟ إلى الحمام في منتجع، لمجرد أنه ليس هناك من يحاسبه، فذلك سوء تصرف خطير وآمل أن يوجه المدير على الفور لوماً صارماً إلى الطرف المعني، بموازاة اتخاذ إجراءات تأديبية بحق التلاميذ».

إنه حقاً شخص عجيب، ذلك الشّيهم. تخاله يمتدحك، وها هو يكمل حديثه فاضحاً أخطاءك. كنت افترضت بسذاجة بعد خروج أستاذ المناوبة الليلية ليلة وصولي، أن مثل هذه الأمور مسموح بها، فخرجت بدوري قاصداً الحمام. غير أنني أدركت بعدما عرض المسألة على هذا النحو، أنني كنت على خطأ، ولا عجب في هذه

الحال إن تعرضت لانتقادات. نهضت وقلت «صحيح إنني ذهبت إلى المنتجع في حين كنت مكلفاً بالمناوبة الليلية. كان هذا خطأ فادحاً وأعتذر عنه». ثم جلست في حين قهقه الجميع مرة أخرى. بدا لي أنهم يضحكون كلما فتحت فمي. يا لهم من شلة فاشلة! وددت لو أراهم مرة ينهضون ويقرون صراحة بخطأ ارتكبوه! لكن هذا يتخطى قدرتهم، ولذلك على الأرجح يكتفون بالضحك.

أعلن المدير عندها أنه بعدما عبر الجميع على ما يبدو عن آرائهم، سوف يفكر ملياً في ما قالوه قبل أن يتخذ قراره. وما حصل في نهاية المطاف أنه تم حجز تلاميذ القسم الداخلي في المدرسة لمدة أسبوع وأرغموا على الاعتذار لي. ربما كان من الأفضل لو لم تجر الأمور كما كنت أريد، حيث كنت مستعداً لتقديم استقالتي والعودة إلى دياري على الفور لو لم يعتذروا، أن لا يعاقب التلاميذ لكان ذلك جنبني المتاعب التي واجهتها على الرغم من كل شيء في نهاية الأمر. في كل الأحوال، تواصل المجلس بعدها بكلمة ثانية للمدير قال فيها: «بما أنه يتعيَّن على المدرسة أن تمارس تأثيراً إيجابياً في التلاميذ من خلال إعطائهم المثل الصالح، أود أن أطلب من الأساتذة أولاً عدم التردد إلى الأماكن العامة حيث يقدم الطعام والمشروب. يمكن بالطبع القيام باستثناءات للمناسبات الخاصة مثل حفلات الوداع وما شابه من تجمعات رسمية، لكنني أود منكم الامتناع عن تناول الطعام

على انفراد في أماكن متدنية المستوى لا تتمتع بسمعة طيبة، أماكن كمحلات النودلز مثلاً أو الفطائر..». ما إن تفوه بهذه الكلمات حتى انفجر الجميع بالضحك مرة أخرى. التفت العلّيق إلى الشّيهم بنظرة من يشاطره سراً وتمتم «المقالي»، لكن الشّيهم تجاهله ولم يحرك ساكناً. حسناً فعل!

لم أكن شخصاً لامع الذكاء، فوجدت من الصعب فهم ما يقوله الغرير. فكرت إن كانت مهنة التعليم غير مؤاتية لمن يتناول طعامه في أماكن مثل حانات النودلز والفطائر، فليس هناك أدنى فرصة لشخص شره مثلي. إن كان هذا ما يريدون، فليكن، لكن كان يجدر بهم في الأساس توظيف شخص لا يشتهي النودلز والفطائر. وعوضاً عن ذلك، عينوني أنا دون أن يكترثوا لتنبيهي إلى ذلك، وقد انتظروا حتى الآن ليقولوا لي إنه غير مسموح بتناول النودلز وغير مسموح بتناول الفطائر. هذه ضربة قوية تسدد إلى شخص مثلي لا يملك من سبل الترفيه غير ملذات الطعام. مرة أخرى، تولى القميص الأحمر التعقيب على كلام المدير «إن أساتذة المدارس التكميلية ينتمون بالطبع إلى الدرجات العليا من السلم الاجتماعي. وبناء عليه، فإن سبل الاستجمام التي يلاحقونها يجب ألا تقتصر على الملذات المادية البحتة. فالاكتفاء بهذه الملذات حصراً لا يمكن سوى أن يؤثر سلباً في أطباعهم. لكنهم بشر، ولا يمكن أن نتوقع من بشر تحمل تقشف

الحياة الريفية دون متنفس ما يروّح عن أنفسهم. لهذا السبب يكون من المستحسن أن يجدوا لأنفسهم سبل تسلية مرهفة تغذّي الروح، مثل صيد السمك ومطالعة أعمال أدبية وتأليف الهايكو أو القصائد الحديثة، وما شابه».

جلسنا صامتين في حين استرسل القميص الأحمر في هبائه وقد أطربته نبرة صوته. إن كان يدرج في خانة النشاطات الذهنية الرفيعة الخروج في البحر لصيد السماد، واختلاق دعابات غبية حول سمك الغوروكي والكتّاب الروس، وتأمل غيشا محبوبة تقف تحت أغصان شجرة صنوبر، وتأليف هايكو حول ضفادع تقفز في بحيرات قديمة، فلا بدّ من أن تتّسع هذه الخانة أيضاً لتناول النودلز والتهام الفطائر. لكان من الأفضل لو انصرف إلى غسل ذلك القميص الأحمر السّرمدي الذي يرتديه بدل أن يلقي علينا عظاته المضجرة حول وسائل التسلية الغبية تلك التي يبتدعها. بادرته سائلاً وقد سيطر علي الغضب «هل تصنّف زيارة الأيقونة أيضاً في فئة التسلية الروحية؟» هذه المرة لم يضحك أحد بل اكتفوا بتبادل النظرات بارتباك في حين وقف القيمص الأحمر مطأطئا رأسه وعلى وجهه تعبير أليم. لقد سجلت هدفاً بالتأكيد. نلت منك هذه المرة! الوحيد الذي شعرت ببعض الأسف حياله كان القرع الشاحب الذي ازداد اصفراراً عند سماع كلامي.

الفصل السابع

أخليت غرفتي في الليلة ذاتها. وبينما كنت أحزم أمتعتي حضرت صاحبة الدار تستفهم إن كان ثمة ما يزعجني. قالت إنني إن كنت مستاء من أي شيء، فليس علي سوى الإفصاح عنه وسوف يقومان بالترتيبات الضرورية لمعالجة الأمر. عجيب أمرها! غير معقول كم يحوي العالم أشخاصاً متقلبين على هذا الشكل. كيف يفترض بي أن أميز إن كانت تريدني أن أبقى أو أن أرحل؟ لا بدّ أنها مختلة. من المعيب لشخص متحدر من طوكيو يحترم نفسه الدخول في جدل مع أمثالها. غادرت على الفور وخرجت بحثاً عن حمّال ينقل حقائبي في عربته.

من السهل أن أغادر المكان، لكن لم أكن أدري إطلاقاً أين أذهب. سألني الرجل أين أريده أن ينقل أمتعتي، فسألته أن يلزم الصمت ويتبعني وسوف يرى، وانطلقت مسرعاً. خطر لي أن أعود إلى ياماشيرويا، لكن هذا لن يكون حلاً بل مصدر إرباك إضافي

إذ سيتحتم علي الرحيل من جديد. إن واصلت تجوالي، فسوف أصادف حتماً في نهاية المطاف نزلاً أو مكاناً ما عليه لافتة تشير إلى غرفة شاغرة للإيجار. ستكون العناية الإلهية دبرت لي هذا المكان. أكملت تجوالي في شوارع جميلة بدا لي العيش فيها أمراً حسناً، إلى أن وجدت نفسي في كاجياشو حيث توجد فيها منازل فخمة تقيم فيها العائلات الراقية من طبقة الساموراي. لم يكن هذا الحي المناسب للبحث عما يشبه النزل أو دور الإقامة. كنت على وشك العودة إلى أحياء أكثر اكتظاظاً وشعبية حين خطرت لي فكرة ممتازة: تذكرت أن زميلي العزيز القرع الشاحب يقيم في الجوار ولا شكّ أنه يعرف المنطقة جيداً. لو عرّجت عليه وسألته، ربّما يقترح حلاً مناسباً. لحسن الحظ، كنت زرته مرة من قبل ولم أجد صعوبة في الوصول إلى عنوانه. وصلت إلى المنزل، وقفت عند المدخل وصرخت مرتين «عفواً!». خرجت امرأة بدت لي في الخمسينيات من العمر، تحمل مصباح زيت من الطراز القديم. لا يمكن القول إن لدي مشكلة مع النساء الشابات، لكن رؤية امرأة في سن ناضجة يبعث فيّ على الدوام إحساساً دافئاً طيباً. أعتقد أن الحنان الكبير الذي أكنّه لكيو ينعكس على جميع السيدات المسنات اللواتي التقيهنّ. كانت سيدة جليلة، شعرها القصير مربوط خلف رأسها على طريقة الأرامل في الماضي. كانت على شبه كبير بالقرع

فافترضت أنها والدته. دعتني بلياقة للدخول، لكنني شرحت لها أنني أود فقط الاستفهام منه بشكل سريع حول مسألة ما، فنادته ليقابلني عند الباب. عرضت عليه وضعي وسألته إن كان على علم بأي حلول متوافرة قد تكون مناسبة لي. أبدى تعاطفه معي في هذا الظرف الحرج، ووقف مستغرقاً في أفكاره لوهلة. ثم تذكر زوجين مسنَّين من آل هاجينو يقطنان منزلاً في الشارع خلف بيته. فهما قالا له مرة إن لديهما غرفة شاغرة من المؤسف أن تبقى فارغة، وإنهما على استعداد لتأجيرها إن أوصاهما بمستأجر جدير بالثقة. لم يكن واثقاً بأنها ما زالت متوافرة، لكنه اقترح أن نذهب معاً ونلقي نظرة عليها. كان لطيفا جداً ورافقني إلى هناك.

صرت منذ تلك الليلة أبيت في منزل آل هاجينو. لكنني ذهلت بل أصبت بصدمة حين اكتشفت أنني ما إن أخليت غرفتي في نزل آل إيكاغين حتى انتقل إليها العليق وكأن شيئاً لم يكن. ألا يحوي هذا العالم سوى دجالين، كل منهم منهمك في تدبير مكائد لخداع الآخرين؟ سئمت الأمر.

إن كانت تلك حال البشر، فعليّ أن أتكيّف معها وأنافس الآخرين على الدهاء، وهذه الفكرة تبعث على الإحباط. فإن كان اعتماد أساليب النشل والسلب هو الطريقة الوحيدة لتأمين ثلاث وجبات طعام في اليوم، أتساءل إن كانت الحياة تستحق فعلاً هذا

الثمن. من جهة أخرى، إن ذهبت وشنقت نفسي وأنا بصحة جيدة وجسد سليم، فسوف يكون الأمر عاراً على أجدادي ووصمة على سمعتي. تبين لي بعد كل ما حصل أنه كان من الأفضل لو استثمرت الستمئة ين تلك للانطلاق في عمل ما سواء بيع الحليب أو أي شيء آخر، بدل الانتساب إلى معهد علوم الفيزياء وتعلم شيء عديم الجدوى كالرياضيات. لو فعلت ذلك، لكانت كيو بقيت معي ولما كنت الآن قابعاً هنا مشغول البال عليها. لم أنتبه للأمر حين كنا نعيش معا، لكنني أدركت الآن مدى طيبتها، بعدما انتقلت للعيش في الريف. إن بحثتم في جميع أرجاء اليابان، لما وجدتم الكثير من النساء الفاضلات من أمثالها. كانت تعاني من زكام طفيف حين غادرت طوكيو، ولا أدري الآن إن كانت بصحة جيدة. لا بد أنها فرحت كثيراً بتلقي رسالتي. لكن كان ينبغي أن يصلني ردّ منها. بقيت هذه الأفكار تراودني طوال يومين أو ثلاثة.

بدأت أشعر بالقلق، فكنت أسأل صاحبة المنزل أحياناً إن كانت تردني رسائل من طوكيو، لكنها في كل مرة تنظر إلي متأسفة وتقول لي إنها لم تتسلم أي رسالة. الزوجان هاجينو كانا مختلفين عن الزوجين اللذين كنت أقيم عندهما سابقا. فهما يتحدران من سلالة من الساموراي، وقد ورثا عن أصولهما ذلك الرقي وكرم الأخلاق. في المساء كان الرجل المُسّن يلقي مقاطع غنائية من مسرحيات النو

بصوت غريب، وكان من الصعب بعض الشيء احتمال الأمر، لكنه لم يقتحم يوماً غرفتي ليسألني إن كنت أرغب في تناول الشاي. إذاً وضعي هنا أفضل بكثير. أحياناً كانت تزورني السيدة المسنة في غرفتي لتدردش قليلاً فتسألني لماذا لم أصطحب زوجتي معي إلى هنا لأستقرّ وأبني أسرة. حين سألتها لو كنت أعطي حقاً انطباعاً بأنني رجل متزوج في حين لم أتجاوز بعد الثالثة والعشرين من العمر، ارتأت بلهجتها المحلية البليدة أنه «أمر طبيعي تماماً أن يكون لرجل في الثالثة والعشرين زوجة، أليس كذلك؟» ثم أصرت على إثبات وجهة نظرها فعددت لي لائحة رجال تعرفهم تزوجوا في التاسعة عشرة من العمر أو كان لديهم طفلان في الواحدة والعشرين، أو ما شابه. لم يكن بوسعي الرد على هذا السيل من الحجج، فسألتها محاولاً قدر الإمكان التكلّم بلهجتها القروية، إن كان بوسعها أن تساعدني في العثور على زوجة مناسبة، بما أن سن الثالثة والعشرين صالح للزواج، أليس كذلك؟

لكنها أجابت «هل تعني ذلك حقاً، أليس كذلك؟».

– أجل، بالطبع. أتوق إلى الزواج إلى حد لم أعد احتمل وضعي.

– نعم، بالتأكيد، أليس كذلك؟ هذه هي حال جميع الشباب. فاجأني كلامها ولم أدر ما أقول. أضافت «لكنني واثقة سيدي

الكريم، بأنك متزوج. أترى، كشفت أمرك، أليس كذلك؟

– هكذا إذاً! أنت حاذقة حقاً. وكيف عرفت الأمر؟

– كيف؟ ألست تترقب على الدوام رسالة من طوكيو وتسألني يومياً إن ورد أي شيء بعد، أليس كذلك؟

– غير معقول كم أنك متبصرة!

– إذاً أنا على حق، أليس كذلك؟

– همم... نعم، ربما.

– لكن شابات اليوم لسن كما في الماضي، أتعلم؟ عليك أن تراقبهن على الدوام في أيامنا، يجدر بك الاحتراس، أليس كذلك؟

– ما معنى ذلك؟ هل تعنين أن زوجتي لها عشيق في طوكيو؟

– آه لا... زوجتك أنت زوجة جيدة، لكن...

– الحمد لله! لقد طمأنتني. لكن في هذه الحال لماذا عليّ أن أحترس؟

– حسناً، زوجتك فاضلة، إنها فاضلة بالتأكيد، لكن...

– من هنّ إذا الزوجات الأقل فضيلة؟

– تجدهن بأعداد كبيرة هنا. أتعرف تلك الفتاة توياما سيدي؟

– لا، لا أعرفها.

– لم تتعرف عليها بعد، أليس كذلك؟ إنها أجمل فتاة في هذه الناحية، أليس كذلك؟ الواقع أنها رائعة الجمال حتى أن جميع

الأساتذة في المدرسة ينادونها على الدوام «الأيقونة»، أليس كذلك؟ ألم تسمع بهذا الاسم، أليس كذلك؟

– تلك هي الأيقونة إذاً! ظننت أنه اسم غيشا.

– لا، لا، إنها من تلك العبارات الأجنبية، يبدو أنهم يعنون بها فتاة جميلة، أليس كذلك...

– أجل ربما. إنها قصة مذهلة.

– سمعت أن من أطلق عليها هذا الاسم هو أستاذ الرسم، أليس كذلك؟

– تعنين العل...

– لا لا، السيد يوشيكاوا أعطاها هذا الاسم، أليس كذلك...

– وتلك الأيقونة، أهي من الفتيات المشكوك بفضيلتهن؟

– أجل، إنها أيقونة غير مستقيمة، أليس كذلك...

– خسارة! لكن أنت على حق في ما تقولين. ما من امرأة أطلقت عليها ألقاب إلا وكانت مصدر متاعب.

– هذا صحيح، أليس كذلك؟ نجد مثالاً على ذلك اوماتسو الشيطانة في مسرحية كابوكي، وكذلك أوهياكو مصاصة الدماء، أليس كذلك؟

– والأيقونة، هل تشبههما؟

– الأيقونة تلك، دعني أخبرك قصتها أليس كذلك. أتعرف

السيد كوغا من المدرسة، الأستاذ الذي أفضل علينا وجلبك إلى هنا، أليس كذلك؟ حسناً، كانت على وشك الزواج منه، لكنها بعد ذلك، أليس كذلك...

– ماذا؟ أكاد لا أصدق. ما كان ليخطر ببالي أن القرع محظوظ إلى هذا الحد في حياته العاطفية! هذا يثبت أن المظاهر قد تخدع. أعتقد أن عليّ أن أحترس أكثر من الآن فصاعداً.

– لكن والد السيد كوغا توفي العام الماضي. كانت العائلة ميسورة حتى ذلك الحين، كما كانت تملك أسهماً في البنك، وكانت أوضاعها ممتازة. لكن مع وفاته، لا أدري ما حصل، كل ما أعرفه أن أوضاعهم انقلبت بين ليلة وضحاها. الواقع أن السيد كوغا رجل طيب أكثر مما ينبغي، وهذا ما جعله يقع في الفخ، أليس كذلك. تم تأجيل موعد الزفاف مرة تلو المرة بأعذار شتى، ثم قدم مساعد المدير ذاك وطلب يدها، أليس كذلك؟

– تقصدين القميص الأحمر؟ ذلك المنافق! كنت على يقين بأن ذلك القميص يخفي خامة رديئة... ماذا حصل بعدها؟

– أرسل أحد معارفه ليتواسط له مع عائلة تویاما. أجابوا ما معناه أنه لا يمكنهم الرد على الفور لأنهم مرتبطون مع السيد كوغا، غير أنهم سيدرسون العرض بجدية، أليس كذلك؟ ثم عثر السيد القميص الأحمر على من يقدّمه مباشرة إلى عائلة تویاما فبدأ يتردد

إليهم بانتظام ونجح شيئاً فشيئاً في الفوز بقلب الفتاة، أليس كذلك؟ السيد القميص الأحمر ارتكب خطأ، لكن الفتاة أيضاً لم تحسن التصرف، والآن بات الجميع ينتقدها. كانت وعدت السيد كوغا بأن تتزوجه، وما إن ظهر في الأفق حامل شهادة حتى بدلت رأيها وغيرت هواها. هذا إثم وقد أساءت إلى الله في ذلك اليوم، أؤكد لك ذلك!

– بل ارتكبت خطيئة كبرى في ذلك اليوم، وكل الأيام التي تلته على السواء!

– بعد ذلك شعر السيد هوتا، صديق السيد كوغا، بالأسف عليه فقصد مساعد المدير وتكلم معه، غير أن السيد القميص الأحمر أكد له على ما علمت أن لا نية له في سرقة فتاة مخطوبة لرجل آخر، وأنه إن فسخت هذه الخطبة لسبب ما، فقد يطلب يد الفتاة. لكن زياراته حالياً إلى عائلة توياما هي لمجرد تقطيع الوقت ولا يمكن أن يكون للسيد كوغا أي اعتراض على ذلك. عاد السيد هوتا إلى منزله خائبا دون أن يسعه إضافة أي شيء في تلك المرحلة. ويقال إن العلاقات بينهما ساءت منذ ذلك الحين، أليس كذلك؟

– يبدو لي أنك تعرفين كل ما يجري. إنني معجب بك حقاً! كيف تعرفين كل هذه التفاصيل؟

– من السهل أن تسمع بكل شيء في مكان صغير كهذا، أليس

كذلك؟

بل إنها تعرف أكثر مما ينبغي بنظري. ومن المحتمل في هذه الحال أن تكون على علم أيضاً بقصتي مع المقالي والفطائر. العيش في تلك البلدات ليس بالأمر السهل، ولو أن له حسناته. فأنا الآن أعرف من هي الأيقونة واتّضحت في ذهني العلاقات بين القميص الأحمر والشّيهم، وذلك سيعود عليّ حتماً بالفائدة ذات يوم. المسألة الوحيدة التي لا تزال تحيّرني أنني لم أكن أميّز الصالح من الطالح في هذه القصة. من هو الشرير في الحقيقة؟ فمن الصعب على شخص بسيط مثلي حسم موقفه إلى جانب أي طرف ما لم تكن الأمور واضحة أمامي بالأسود والأبيض.

– أترى من من الاثنين أفضل، القميص الأحمر أو الشّيهم؟

– الشّيهم؟ ماذا تعني؟

– هذا اللقب الذي أطلقه على السيد هوتا.

– حسناً، إن كنت تتحدث عن القوة، فالسيد هوتا يبدو الأقوى بالتأكيد، لكن السيد القميص الأحمر هو الذي يحمل شهادة جامعية، فهو بالتالي الأكثر اقتداراً، أليس كذلك؟ أما بالنسبة للرقّة، فالسيد القميص الأحمر هو الأكثر لطفاً أيضاً، لكنني سمعت بأن السيد هوتا أكثر شعبية بين التلاميذ، أليس كذلك؟

– إذاً أيهما الأفضل؟

– حسناً، لا شك أن الذي يتقاضى الراتب الأعلى هو الأفضل، أليس كذلك؟

لم يعد لحديثنا جدوى، فاكتفيت بهذا القدر. بعد يومين عدت من المدرسة لأجد السيدة تنتظرني وعلى وجهها ابتسامة مشعّة. استقبلتني بالقول «ها أنك عدت أخيراً» وناولتني رسالة. لاحظت بعدما غادرت أن الرسالة من كيو وقد ألصقت عليها ورقتان استنتجت منهما أن الرسالة أحيلت من ياماشيرويا إلى دار آل ايكاغينو ومن ثم إلى منزل عائلة هاجينو. وقد مكثت في ياماشيرويا حوال أسبوع، وكأن هذا النزل لا يستضيف المسافرين فقط بل الرسائل أيضاً. تبين لي حين فتحتها أنها رسالة طويلة جداً. بدأت القراءة:

«عزيزي بوتشان:

وددت أن أكتب لك أنني تسلمت رسالتك، لكنني لسوء الحظ بقيت مسمّرة في السرير لمدة أسبوع بسبب الزكام، لذلك استغرق الأمر بي كل هذا الوقت حتى أكتب لك. إنني متأسفة. كما أنني لا أحسن القراءة والكتابة كفتيات هذا العصر، وبالتالي يصعب عليّ الكتابة، حتى وإن اقتصر الأمر على رسالة خرقاء كهذه. كنت سأطلب من ابن شقيقتي أن يكتب عني، لكنني رأيت أن الرسالة لن تكون جيدة إن لم أكتبها بخط يدي، فوضعت كل ما أردت قوله في مسودة وأقوم الآن بنقله إلى نسخة نظيفة. لم يستلزمني نقل الرسالة

سوى يومين، لكنني احتجت إلى أربعة أيام لكتابة كل شيء في المرة الأولى. أعرف أنه قد يصعب عليك قراءة خطي، لكنني بذلت أقصى جهودي وأرجو منك بالتالي أن تقرأ الرسالة بتأن حتى النهاية».

كانت الرسالة مكتوبة على ورقة واحدة مطوية طولها أكثر من متر إن بسطتها. كتبت كيو فيها كل ما خطر ببالها، وكان من الصعب فعلاً قراءتها. لم تكن الصعوبة في خطها الرديء فحسب، بل إن الكلمات والجمل متلاصقة إلى حد يصعب تمييز نهاية الواحدة من بداية الأخرى. أنا أطباعي عصبية وأفقد صبري بسرعة، ولا مجال في الظروف الطبيعية أن أقرأ رسالة طويلة وشاقة كهذه ولو تقاضيت خمسة ينات للقيام بذلك. لكنني هذه المرة ركزت انتباهي وقرأت الرسالة بالكامل من الكلمة الأولى حتى الأخيرة. كنت أجهد كثيراً لفكّ رموز الكلمات الواحدة تلو الأخرى، فيفوتني معناها مترابطة في جمل، واضطررت إلى قراءة الرسالة مرة ثانية منذ البداية. بدأت العتمة تلف أرجاء الغرفة ولم أعد أرى بشكل واضح، فخرجت حاملاً الرسالة إلى الشرفة، جلست على الحافة وقرأت الرسالة بكاملها بعناية وانتباه. كانت الأوراق العريضة المتدلية من نبتات الموز ترتعش في نسمات بدايات الخريف وكنت أشعر بالريح تداعب بشرتي قبل أن تعصف بالرسالة فتروح تتماوج في الهواء وأسمع حفيفها وهي تتطاير بخفة. كان يكفي أن أفلت طرفها حتى

تنزلق من بين يدي، فيحملها الهواء إلى الشجيرات التي تسيّج طرف البستان. لكنني كنت منهمكاً في قراءة الرسالة ولم يكن بالي في مثل هذه الأمور. كتبت كيو:

«بوتشان عزيزي، أطباعك مستقيمة وصافية كعود خيزران، لكنك حاد وسريع الغضب، وهذا ما يقلقني... إن أطلقت كل أنواع الألقاب على الناس، فسوف تعطيهم مبرراً لينقموا عليك. يجب أن تنتبه متى وأين تستخدم هذه الألقاب وأن تمتنع عن إطلاقها إلا في رسائلك لي... سمعت أشياء بغيضة عن أهل الأرياف وأريدك أن تتجنب الوقوع في أي ورطة. حتى الطقس هناك ليس مستقراً على ما أعتقد كما في طوكيو، انتبه حتى لا تبرد في الليل في نومك فتصاب بالزكام. كانت رسالتك قصيرة، ولم أتمكن من تشكيل صورة واضحة عن وضعك هناك. أرجو منك في المرة المقبلة أن تكتب لي رسالة لا تقل عن نصف رسالتي هذه... أمر جيد أن تعطي خمسة ينات إكرامية للعاملين في النزل، لكن بشرط أن لا ينفد منك المال لاحقاً. تذكر أن نقودك هي سندك الوحيد في الريف، وعليك بالتالي أن تحدّ قدر الإمكان من نفقاتك حتى يكون لديك ما يكفي في حال طرأ ظرف ما واحتجت فعلاً إلى المال... لا بد أن الأمر صعب إن لم يكن لديك بعض المال الإضافي للمصروف، أرسل لك بالتالي حوالة بريدية بقيمة عشرة ينات. أودعت الخمسين يناً التي

أعطيتني إياها في حساب توفير بريدي حتى تستعين بها حين تعود إلى طوكيو وتشتري بيتاً، ويبقى من هذا المبلغ أربعون يناً بعد سحب الينات العشرة، أعتقد أنه سيكون كافياً..».

صحيح أن النساء شديدات الحرص ويولين اهتماماً لأدنى التفاصيل.

فبينما كنت جالساً تائها في تأملاتي على الشرفة والرسالة تترنح في الريح، فتحت السيدة هاجينو الباب الجرار حاملة صينية العشاء. قالت متعجبة «يا إلهي! مازلت تقرأ رسالتك، أليس كذلك؟ إنها بالتأكيد رسالة طويلة، أليس كذلك؟» أجبتها «نعم، هذه رسالة ثمينة. أدعها أولاً تتأرجح في الهواء لبرهة، ثم أقرأ قسماً منها، فأتركها تتأرجح في الهواء مجدداً وأقرأ المزيد منها». لم أكن أنا نفسي واثقاً بما يعنيه كلامي هذا. لقد أعدّت كما في كل مساء طبقاً من البطاطا الحلوة المغلية. الزوجان هاجينو يعاملانني بالتأكيد أفضل مما عاملني الزوجان إيكاغين، وهما أكثر وداً ولياقة، لكن الطعام هنا رديء للغاية. عشائي الليلة بطاطا حلوة مرة أخرى، تماماً كما في الليلة الماضية والليلة التي سبقتها أيضاً. صحيح أنني قلت لهما إنها من مآكلي الشهية المفضلة، لكن حمية غذائية تقتصر على البطاطا الحلوة حصراً ستقضي علي. كنت أهزأ بزميلي القرع الشاحب، فأجدني الآن على وشك أن أتحول أنا نفسي إلى بطاطا شاحبة.

لو كانت كيو هنا، لكانت أعدت لي تلك الأطباق اللذيذة... شرائح السوشي الرقيقة بالتونا، فطائر السمك المشوية، وغيرها من الأكلات الشهية التي لن تخطر ببالي حتى في أحلامي في عائلة ساموراي فقيرة وشحيحة كهذه. كيفما نظرت إلى المسألة أرى أنني بحاجة إلى كيو بجانبي. إن تبين لي أنني سأبقى لفترة من الزمن في هذه المدرسة، فسوف أستقدم كيو إلى هنا من طوكيو. حظر علي تناول النودلز والمقالي، وحرمت من الفطائر، وأعود في المساء إلى الغرفة التي استتأجرتها لدى عائلة فلا تطعمني سوى البطاطا الحلوة إلى أن أشحب وأصفرّ بدوري... كم هي شاقة حياة أساتذة المدارس! حتى الرهبان في دير الزن يعيشون في ترف بالمقارنة مع وضعي هنا! التهمت البطاطا وحين أفرغت الطبق تماماً، أخرجت من الدرج في طاولتي بيضتين نيئتين، كسرتهما على حافة كوب الأرز وابتلعتهما لاستمد القوت الكافي حتى أواصل نشاطي. أين أجد الطاقة الضرورية لتدريس إحدى وعشرين حصة في الأسبوع إن لم أتناول البيض النيء؟

في تلك الليلة، كنت مأخوذاً برسالة كيو وتأخرت عن موعدي اليومي في الحمام. لكنني اعتدت الذهاب إلى هناك في كل ليلة ولم أكن مرتاحاً لتفويت يوم. قررت إذا أن أذهب ولو متأخراً وخرجت لأستقل القطار، حاملاً منشفتي الحمراء المعهودة. حين وصلت إلى

المحطة، كان القطار انطلق قبل دقيقتين أو ثلاث، فجلست على مقعد أنتظر القطار التالي. أشعلت سيجارة وإذا بالقرع يدخل المحطة. صرت أشفق عليه أكثر من قبل بعدما أخبرتني السيدة هاجينو قصته. لطالما أحسست بالتعاطف معه من شدة ما يحرص على البقاء في الظل وعدم إبراز نفسه وكأنه مجرد عابر سبيل في هذا العالم، لكن كلمة تعاطف لم تعد كافية للتعبير عن مشاعري حياله. وددت لو كان في مقدوري أن أضاعف راتبه وأزوّجه بابنة آل تویاما وأرسله إلى طوكيو في عطلة لشهر. رحّبت به من كل قلبي وسألته إن كان ذاهباً هو أيضاً إلى الحمّام وأنا أهمّ بالنهوض لتقديم مكاني على المقعد له. لكن القرع تمتم «لا، أرجوك، لا تزعج نفسك من أجلي»، دون أن أتبين ما إذا كان رفضه من باب التهذيب او التواضع. وقف هناك محرجاً، والارتباك باد على وجهه. عاودت محاولتي موضحاً له أننا سنضطر إلى الانتظار لبرهة ومن الأفضل له أن يجلس وإلا فسوف يتعب. الحقيقة أنني كنت أشفق عليه إلى حد أنني رغبت يائساً في أن يجلس معي. وافق أخيراً مستأذناً بلياقة «حسناً، إذاً لو تعذرني». عالم غريب حقاً ذلك الذي نعيش فيه! فيه المغرورون أمثال العليق الذين لا يترددون في حشر أنفسهم في أماكن لا دخل لهم فيها. فيه أيضاً أمثال الشّيهم، يتطاوسون معتدّين كمن يقول إن اليابان ستكون في ورطة إن غابوا عنها. ثم هناك أمثال

القميص الأحمر الواثقون بأنهم يحتكرون الجمال الفتاك والسحر الرجولي في الأسواق، أو الغرير الذي يوحي كل شيء فيه بأنه لو تقمصت رسالة التربية في مظهر بشري لكان هو أبهى تجلياتها في سترة رسمية. العالم يغص بأمثالهم، كل منهم مشبع بأهميته يجرجر ذاتاً متضخمة على طريقته، غير أنني لم أر أحداً يشبه السيد القرع الشاحب، رجل متواضع وديع إلى حد الامحاء، وكأنه دمية رهينة في هذا العالم، إلى حد تجد نفسك أحياناً تتساءل إن كان موجوداً حقاً. صحيح أن وجهه منتفخ، لكن إن أقدمت الأيقونة فعلاً على نبذ رجل ممتاز مثله وفضلت عليه القميص الأحمر، فلا بد أنها فتاة طائشة متهتكة إلى حد ميئوس منه. حتى إن جمعت معاً دزينة من أمثال القميص الأحمر، فلا أمل بالحصول على زوج صالح من طينة القرع الشاحب!

– هل تعاني من شيء ما؟ تبدو لي متوعكاً...

– لا، على الإطلاق، ليس لديّ ما أشكو منه بصورة خاصة، لكن...

– يسرني سماع ذلك. لا نفع للحياة دون الصحة، أليس كذلك؟

– أنت في المقابل، تبدو بالتأكيد بصحة ممتازة.

– نعم، قد أكون هزيلاً لكنني لا أمرض. الواقع أنني لا أحتمل

أن أكون مريضاً.

ابتسم مستظرفا كلامي.

انبثقت في تلك اللحظة ضحكة نسائية مفعمة بالحيوية والشباب عند مدخل المحطة. استدرت لإلقاء نظرة ففوجئت بمشهد رائع. كانت امرأة فاتنة طويلة القامة ناصعة البشرة شعرها مصفف بتسريحة أنيقة، واقفة عند مكتب التذاكر إلى جانب سيدة مهيبة تقارب الخامسة والأربعين من العمر. لست بارعاً في وصف جمال امرأة ولن أحاول، لكن تلك الفتاة كانت حقاً ساحرة. مجرد النظر إليها بعث فيّ إحساساً وكأنني أداعب في راحة يدي كرة من البلور تفوح منها عطور دافئة. كانت المرأة الأربعينية أقصر قامة، لكنها كانت تشبه الفتاة إلى حد لا يعقل إلا أن تكون والدتها.

ما إن وقعت عيناي على هذا المشهد الفاتن حتى بقيت شاخصاً إليها، متناسياً القرع إلى جانبي. لكنني فوجئت به يقف على حين غرة ويتقدم في اتجاه السيدتين. قلت لنفسي عندها إن تلك الفتاة ربما تكون الأيقونة. تبادل الثلاثة السلام واللياقات عند مكتب التذاكر. كانوا يقفون بعيداً ولم يكن بوسعي تمييز أي من كلامهم.

نظرت إلى ساعة الحائط المعلقة في المحطة ورأيت أنه ما زال يترتب علينا الانتظار خمس دقائق قبل وصول القطار. لم يعد لدي من أتحدث معه لقضاء الوقت، فتمنّيت لو يصل القطار بأسرع ما يمكن.

وبينما كانت تراودني هذه الأفكار، دخل مسافر المحطة مسرعاً: إنه القميص الأحمر. كان يرتدي ما يشبه كيمونو رقيقاً من الحرير ثبته بربطة خصر متراخية تتدلى منها كعادته سلسلة ساعة جيب ذهبية. كانت تلك السلسلة زائفة، غير أن القميص الأحمر كان واثقاً بأن أحداً لا يميز ذلك وكان يتباهى بها على الدوام ويستعرضها، لكن خدعته لم تكن تنطلي علي. هرع داخلاً وهو يتلفّت بعصبية في جميع الاتجاهات، وحين أبصر الثلاثة واقفين يتحادثون عند مكتب التذاكر، انحنى قليلاً ملقياً التحية عليهم وتبادل معهم على ما تهيّأ لي بضع كلمات، لكنه استدار فجأة وتوجه بمشيته المتأنية الاعتيادية إلى الناحية التي كنت جالساً فيها. بادرني «إذاً أنت أيضاً ذاهب إلى الحمام؟ كنت أخشى أن يفوتني القطار فجئت مهرولاً، لكنني أرى الآن أنه ما زال لدينا بضع دقائق. أتساءل إن كانت ساعة المحطة تعطي التوقيت الصحيح..». أخرج ساعة جيبه الذهبية وبعد التدقيق، أعلن أن ثمة فرقاً قدره دقيقتان عن ساعة المحطة، ثم جلس إلى جانبي. لم يلتفت مرة إلى السيدتين بل جلس سانداً ذقنه إلى طرف عصاه وعيناه مسمّرتان أمامه. كانت السيدة الأربعينية ترمقه بنظرها بين الحين والآخر، إلا أن الفتاة لم تلتفت إليه مرة. أصبحت واثقاً الآن بأنها الأيقونة.

وصل القطار أخيراً مطلقاً صفارته. تدافع الركاب المحتشدون

على الرصيف للدخول إلى المقطورات. اندفع القميص الأحمر شاقاً طريقه إلى مقطورة الدرجة الأولى. لم يكن هناك ما يستحق التباهي بالجلوس في مقاعد الدرجة الأولى، فالرحلة إلى الحمام في الدرجة الأولى كلفتها خمسة سن، في حين أن الدرجة الثانية كلفتها ثلاثة سن. وبالتالي فإن الفرق لا يتعدى سنين. إن كان شخص في وضعي على استعداد لدفع ذلك المبلغ الإضافي الزهيد الشراء تذكرة الدرجة الأولى تلك البيضاء، وهو ما كنت اعتزم القيام به فعلاً، فهذا معناه أن ذلك لم يكن أمراً استثنائياً. غير أن أهل الأرياف يبدون لي بخلاء ويفضل معظمهم الجلوس في مقاعد الدرجة الثانية. لا شك أنه كان يصعب عليهم إخراج سنين إضافيين من جيوبهم. أما القرع، فلم يكن يخطر حتى في باله أن يجلس في مقاعد الدرجة الأولى. وقف لبرهة عند باب مقطورة الدرجة الثانية متردداً، وحين لمحني سارع إلى الصعود. أحسست بشفقة لا توصف حياله وصعدت في إثره. لا أعتقد أن أياً كان سيجد مانعاً لو صعدت في الدرجة الثانية حاملاً تذكرة للدرجة الأولى.

بعدما وصلنا إلى المنتجع، التقيت القرع مجدداً عند نزولي إلى الحوض متدثراً برداء الحمام. كان يفطر قلبي. قد أعجز في الاجتماعات الرسمية وغيرها من المناسبات عن إخراج كلمة واحدة من حلقي الجاف حين يحين دوري في الكلام، لكنني بطبيعتي أحب

التواصل وحاولت بلا توقف بدء حديث معه ونحن في الحوض. لم أكن أحتمل رؤيته على هذا القدر من التعاسة. فكرت أن من واجب ابن بار من طوكيو أن يواسي الآخرين ويروّح عن أنفسهم في لحظات الغمّ، ولو بكلمة أو كلمتين. غير أنه لم يتجاوب مع محاولاتي. مهما كنت أقول له وأياً كانت المواضيع التي كنت أختلقها، لم أتمكن من الحصول منه على أكثر من «آه» أو «همم»، وحتى هذان الصوتان كنت أستخرجهما منه بعناء. وفي نهاية المطاف استسلمت وأعفيت نفسي من هذه المهمة المضنية.

لم ألمح القميص الأحمر في الحمام. هناك بالطبع في المنتجع قاعات كثيرة فيها أحواض، وحتى لو وصلنا في القطار نفسه، لم يكن من المحتم أن نتقاسم الحوض نفسه. رأيت القمر بدراً متألقاً في السماء عند خروجي من الحمام وكانت أشجار الصفصاف ترتفع من جانبي الطريق وأغصانها تلقي دوائر من الظل على الأرض. قررت القيام بنزهة قصيرة. وصلت عند الطرف الشمالي للبلدة، وهناك رأيت إلى يساري بوابة ضخمة تفتح على طريق مؤدّ إلى معبد بوذي وتحيط به بيوت دعارة. بدا لي موقع هذه المواخير في جوار مكان عبادة، ظاهرة غير مسبوقة. رغبت في القيام بجولة لإلقاء نظرة سريعة على المنطقة، لكنني كنت أخشى أن يلقي علي الغرير إحدى عظاته المشؤومة في اجتماع الأساتذة التالي في المدرسة،

فقررت الامتناع عن الأمر والمضي في سبيلي. إلى جانب البوابة كان يرتفع مبنى صغير أوصدت نوافذه بشبك حديدي وعلقت عند مدخله ستارة داكنة. كان هذا مطعم الفطائر الذي أوقعني في ورطة من قبل. كان مصباح كروي يتدلى عند مدخله كتب عليه «حساء الفاصوليا الحلوة» و«حساء بكعك الأرزّ»، وكان يلقي بقعة ضوء على جذع شجرة صفصاف مزروعة على مقربة من سطح المبنى الأمامي. كان بودي الدخول لكنني قاومت هذه الرغبة وواصلت طريقي.

قد يكون من المحزن ألا تتمكن من تناول الفطائر حين تشتهيها، لكن الفاجعة الحقيقية هي أن تتركك خطيبتك وتهدي قلبها إلى رجل آخر. دعني من الفطائر. بالمقارنة مع قصة القرع، لا يمكنني حقاً أن أشكو من أي شيء حتى لو اضطررت إلى البقاء ثلاثة أيام دون أي طعام على الإطلاق. الواقع أن البشر هم أقل ما يمكن الاعتماد عليه في هذا العالم. كيف لي أن أتصور حين أنظر في وجهها، أن مثل هذه المرأة الساحرة قادرة على القيام بعمل بهذه القسوة؟ غير أنها على الرغم من ذلك فعلت، في حين أن كوغا بوجهه المتورم والشاحب كقرع منتفخ، هو رجل طيب ونبيل. عليّ أن أبقى حذراً متيقظاً. كنت أعتقد أن الشّيهم رجل بسيط وصادق، ثم قيل لي إنه يحرض التلاميذ... وحين اقتنعت بأنه هو من كان يحرك التلاميذ،

ها هو يحض المدير على إنزال عقوبة شديدة بهم... كنت أعتقد أن القميص الأحمر هو كتلة متنقلة من الذمائم، وها هو يفاجئني ويجهد نفسه ليكون لطيفاً معي ويحذرني من خطر محدق بي... لأكتشف لاحقاً أنه كان يلعب تلك اللعبة مع الأيقونة. ومن ثم يؤكد أنه لا ينوي الارتباط بالفتاة طالما أنها مخطوبة إلى السيد كوغا. الزوجان إيكاغين يختلقان الحجج للتخلص مني، ثم ينتقل العليق فوراً إلى غرفتي... كيفما نظرت إلى الأمور، لا أعرف أبداً ماذا ولا من أصدق. لو كتبت لكيو أخبرها بكل ذلك، فأنا واثق بأنها سوف تبقى مشدوهة. قد تقول إن أي مكان أبعد من هاكوني لا بد أنه يعج بالمسوخ والوحوش.

لطالما كانت أطباعي غير مبالية ولم أدع أي شيء حتى الآن يقلقني أو يعكّر مزاجي، لكن شهراً واحداً انقضى على وصولي إلى هذه البلدة وأخذت فجأة أرى العالم مكاناً مخيفاً. لم يحصل لي أي أمر مروّع، لكنني على الرغم من ذلك أشعر وكأن خمس سنوات أو ستاً انقضت. ربما من الأفضل أن أغادر هذه البلدة على وجه السرعة وأعود إلى طوكيو... وبينما كانت هذه الأفكار تتوارد في ذهني، وجدتني أعبر جسراً حجرياً إلى الضفة المقابلة من نهر نوزيري. قد توحي تسمية النهر بهدير مياه غزيرة دافقة، لكن في الواقع كان أقرب إلى خرير جدول ينساب على عرض مترين بالكاد. على

مسافة أكثر من كيلومتر بمحاذاة النهر إلى الأسفل تقع قرية تدعى أيوي أقيم فيها معبد لإلهة الرحمة كانون.

التفت إلى البلدة فرأيت مصابيحها الحمراء متوهجة في نور القمر وتناهت إليّ أصداء طبول التايكو الضخمة تتصاعد على الأرجح من حي المواخير. كانت مياه الجدول رقيقة لكنها تندفع متوثّبة فتتراقص ويتلألأ سطحها وكأنها تتحرّق لهفة. واصلت تسكعي على طول الضفة وبعدما قطعت مسافة نصف كيلومتر على ما تهيأ لي، تراءت أمامي ظلال. كان البدر ساطعاً فميزت شخصين أو ثلاثة ظننت أنهم شبان من القرية عائدون إلى منازلهم بعد زيارة إلى الحمام. غير أنهم لم يكونوا يغنون ويحدثون جلبة كما يمكن توقعه من شبان في نزهة ليلية، بل كانوا صامتين هادئين إلى حد مدهش.

بدا لي أنني كنت أمشي بخطى أسرع منهم، وكلّما اقتربت كان الظلان يرتسمان بشكل أوضح أمامي. تهيّأ لي أن أحدهما ظل امرأة. حين صرت على بعد أقل من عشرين متراً خلفهما، استدار الرجل فجأة فأضاءه القمر من خلفي كاشفاً ملامح وجهه بشكل واضح. أكملا طريقهما فتبعتهما حاثاً خطاي، وفي ذهني خطة معينة أعتزم تنفيذها. لم يلحظا وجودي وواصلا نزهتهما بخطى متكاسلة متباطئة. بات بوسعي سماع صوتهما بوضوح وكان يكفي أن أمدّ يدي حتى ألمسهما. كان عرض الطريق المحاذي لمجرى النهر

أقل من مترين وبالكاد يتسع لثلاثة أشخاص معاً. لم أجد صعوبة في إدراكهما فتجاوزتهما ملامساً كمّ الرجل وبعدما تقدمتهما بمقدار خطوتين، استدرت فجأة وحدّقت في وجه الرجل. كنت الآن مواجهاً للقمر فأضاء نوره وجهي مباشرة، من شعري المقصوص قصيراً إلى دقني. أطلق الرجل صيحة تعجب مكبوتة عند التعرف إليّ، ثم استدار صوب رفيقته وهمهم لها «دعينا نعود أدراجنا» فعادا أدراجهما في اتجاه الحمام.

لم أدر إن كان القميص الأحمر يحاول خداعي بوقاحة سافرة بحثاً عن مخرج من هذه الورطة، أم أنه فزع بكل بساطة وولّى هارباً دون أن يكون قد تعرّف إليّ، لكن المؤكد في كلا الحالين أنني لم أكن الوحيد في هذا المكان الذي يزجّ نفسه في مواقف حرجة.

الفصل الثامن

بدأت الشكوك تساورني بشأن الشّيهم منذ رحلة الصيد تلك مع القميص الأحمر. وحين طالبني بمغادرة نزل الزوجين إيكاغين بحجة واهية، أكد ذلك شكوكي بأنه لا يضمر لي خيراً. غير أنه بعدها فاجأني مجدداً خلال الاجتماع حين قام بتلك المداخلة البليغة مطالباً بلزوم الصرامة حيال التلاميذ، ولم أعد واثقاً بما هو عليه. ثم علمت من السيدة هاجينو بأنه حاول التدخل لصالح القرع لدى القميص الأحمر، فشعرت بأنّ علي أن أقر له بهذه الفضيلة. وإذ بدأت أفكر بأن الشّيهم قد لا يكون في نهاية الأمر هو الشرير في هذه القصة، وبأن القميص الأحمر هو ربما اللئيم الذي زرع كل هذه الشكوك التي تبدو ظاهرياً محتملة لكنّها غير مبنية على أي أساس، وها إنني ضبطته يصطحب الأيقونة في نزهة على ضفة نهر نوزيري. كانت هذه النقطة التي حسمت رأيي به: لا بد أن يكون القميص الأحمر هو الشرير. الواقع أنني لم أكن على الرغم من كل

ذلك واثقاً بما إذا كان شريراً أم لا، لكن المؤكد أنه لا يمكن وصفه بالرجل الطيب، بل هو خبيث ذو وجهين. ولا يمكن الوثوق برجل إن لم يكن مستقيماً كعود القصب. الرجل الصادق والنزيه يترك في نفسك إحساساً طيباً حتى لو دخلت في شجار معه، في حين أن شخصاً مثل القميص الأحمر، شخص مرهف مزهوّ بأناقته يبادرك بالمجاملات واللياقات ويستعرض متعالياً غليونه الكهرمان، إنما هو نموذج الرجل الذي يجدر بك عدم الوثوق به، وهو من الصنف الذي يستحسن عدم الدخول في معركة معه. وإن حصل ذلك على الرغم من كل شيء، فلن تكون معركة ترتاح لها كما ترتاح لمشاهدة مصارعي السومو يخوضون مباراة في طوكيو. إن نظرت إلى الأمور من هذه الزاوية، فإن الشّيهم الذي دخلت في شجار معه حول سن ونصف السن أثار بلبلة وفوضى في قاعة المعلمين، إنما هو أكثر طيبة وفضيلة بكثير. كرهته وهو يحدق بي بنظراته الحادة الثاقبة خلال اجتماع الأساتذة، لكنني أدركت فيما بعد أن ذلك كان أفضل من التعاطي معي بكلام معسول ماكر كما فعل القميص الأحمر. الحقيقة أنني حاولت مرة أو مرتين بعد انتهاء الاجتماع إصلاح الأمور بيننا، لكن الوغد لم يتجاوب مع محاولاتي بل نظر إليّ بعينين غاضبتين، فنقمت عليه من جديد واستمر الخلاف بيننا.

منذ ذلك الحين والشيهم يرفض التكلم معي. النقود التي وضعتها

على مكتبه لا تزال في مكانها يتراكم عليها الغبار يوماً بعد يوم. لم أكن لألمسها بالطبع، كما لم يكن هو على استعداد لوضعها في جيبه. ذلك السن ونصف السن باتا حاجزاً يقف بيننا، وطالما أنه قائم، لم يكن بوسعي قول كلمة واحدة له مهما رغبت في ذلك، في حين تعنّت من جانبه في صمته. بات الأمر بمثابة لعنة حلت علينا. وفي نهاية المطاف أصبح مجرد الحضور إلى المدرسة ورؤية تلك النقود معاناة حقيقية.

بينما بقي الكلام مقطوعاً بيني وبين الشّيهم، استمرت علاقتي بالقميص الأحمر على ما هي. اقترب من مكتبي عندما وصلت إلى المدرسة في الصباح الباكر غداة الحادث على ضفة نهر نوزيري، وراح يكلمني في مواضيع شتى، فيسألني عن مسكني الجديد إن كان يناسبني، وإن كنت أودّ الذهاب في رحلة جديدة لصيد الكتّاب الروس، وإلى ما هنالك. وجدت سلوكه قميئاً فذكّرته بأننا التقينا مرتين في الليلة السابقة. أجاب «أجل، في المحطة. هل تخرج على الدوام في مثل هذه الساعة؟ كان الوقت متأخراً، ألا تعتقد ذلك؟» حين فاتحته بلقائنا قرب نهر نوزيري، أنكر أن يكون ذهب إلى هناك، مؤكداً أنه خرج من الحمام ليعود رأساً إلى بيته. منافق! يمكنه إنكار الأمر قدرما يشاء، الحقيقة أنني رأيته هناك. إن كان رجل مثله مؤهلاً ليكون مساعد مدير مدرسة تكميلية، فلا بد أنني جدير بأن أكون

رئيس جامعة. منذ ذلك اليوم لم أعد أثق بالقميص الأحمر. لكن في حين كنت لاأزال أتكلم مع شخص لا يبعث فيّ سوى الريبة، بقي الكلام مقطوعا بيني وبين الشّيهم الذي صرت أكن له الإعجاب. عجيب أمر هذا العالم!

طلب مني القميص الأحمر ذات يوم أن أزوره في منزله لمناقشة مسألة ما معي. كان هذا سيفوّت عليّ موعدي اليومي المعتاد في الحمام وكان الأمر مزعجاً، لكنني على الرغم من ذلك ذهبت إلى منزله قرابة الساعة الرابعة. لم يكن القميص الأحمر يسكن غرفة على الرغم من أنه لا يزال عازباً، بل انتقل منذ زمن للعيش في بيت يليق.بمنزلته بوصفه مساعد مدير مدرسة. سمعت أن إيجاره لا يزيد عن تسعة ينات ونصف في الشهر. خطر لي وأنا واقف في المدخل المهيب أنه إن كان من الممكن الحصول على منزل كهذا بهذا المبلغ الزهيد، فيتعين علي أن أدلّل نفسي وأستأجر منزلاً فخماً مثله ثم أجلب كيو من طوكيو. كم ستكون سعيدة! دخلت فاستقبلني شقيق القميص الأحمر عند الباب. كنت أعلّمه الحساب والجبر في المدرسة، وكان من تلاميذي الفاشلين. وبما أنه تنقّل في المنطقة قبل الوصول إلى هنا حديثاً، كان أكثر خبثاً من هؤلاء الريفيين المحليين.

سألت القميص الأحمر عما أراد مفاتحتي بأمره. أخرج غليونه بعظمة، نفث دخان تبغه كريه الرائحة وأعلن لي «منذ أن بدأت تعلم

في مدرستنا، حقق التلاميذ تقدماً أكبر بكثير منه في عهد سلفك، والمدير مسرور جداً لحصولنا على أستاذ بارع مثلك. نحن جميعاً نعتمد عليك وآمل أن تستمر في بذل كامل جهودك للقيام بمهامك على أفضل وجه.

– هكذا إذاً؟ حسناً، في ما يتعلق ببذل كامل جهودي، لست أرى عملياً كيف يمكن القيام بأكثر مما أقوم به حالياً...

– ما تقوم به حالياً ممتاز. آمل منك فقط ألا تنسى تلك المسألة الصغيرة التي تحدثنا عنها قبل وقت.

– تقصد تلك المسألة المتعلقة بشخص يساعدني في العثور على مكان للإقامة ويوقعني في متاعب جدية؟

– حسناً، حين تعبر عن المسألة بمثل هذا الكلام الصريح الواضح، تفقد كل معناها، لكن نعم، هذا فحوى الأمر. أعتقد أنك فهمت جوهر كلامي... في مطلق الأحوال، إن واصلت العمل على هذا النحو، فإن المدرسة تلاحظ دائماً هذه الجهود وسوف نكون على استعداد بعد فترة قصيرة لمعالجة مسألة راتبك...

– تعني زيادة راتبي؟ لست أسعى إلى ذلك، لكن إن زدتم راتبي، فلن أعارض.

– حسناً، يصدف أنه سيتم نقل أحد أساتذتنا قريباً. بالطبع، علي أن أكلم المدير في المسألة ولا يمكن أن أضمن لك شيئاً في الوقت

الحاضر، لكننا قد نجيّر لك قسماً من راتبه. على كل حال، سوف أطرح الأمر على المدير وسوف أرى ما يمكنني القيام به من أجلك.

– شكراً جزيلاً. من الذي سيتم نقله؟

– حسناً، بما أنه سيصدر إعلان بهذا الشأن قريباً، أعتقد أن لا ضير إن قلت لك ذلك الآن. الواقع أنه السيد كوغا.

– ماذا؟ كوغا؟ أليس من هذه البلدة؟

– صحيح أنه من هنا، لكن نظراً إلى بعض الظروف... لنقل إن هذا كان إلى حد ما بطلب منه.

– أين سيذهب؟

– إلى نوفيوكا في محافظة ميازاكي. وبما أن المكان بعيد، فسوف يتقاضى راتباً أعلى للتعويض له.

– هل سيعين أستاذ مكانه؟

– لقد قررنا تقريباً من سيخلفه. وعلى ضوء الاتفاق الذي سيتم التوصل إليه معه، من المفترض أن نتمكن من القيام بادرة حيالك.

– هذا يناسبني. لكن لا داعي لإجهاد نفسك من أجل الحصول على زيادة في راتبي.

– في مطلق الأحوال، سوف أتشاور مع المدير. وأعتقد أنه من رأيي، لكننا قد نطلب منك جهداً إضافياً. آمل أن تكون على استعداد للقيام بذلك.

– تعني أنني سوف أعلّم حصصاً إضافية؟

– لا، بل قد ينتهي بكل الأمر بعدد أقل من الحصص، لكن...

– ستزيد مهامي، لكن ساعات العمل ستقل؟ يبدو لي الأمر غريباً...

– نعم، قد يبدو غريباً بعض الشيء... من الصعب الدخول في التفاصيل في الوقت الحاضر، لكن نعم، ما يعنيه عملياً أننا قد نطلب منك تحمل مسؤوليات أكبر».

لم أفهم شيئاً على الإطلاق. تلك «المسؤوليات الأكبر» ستعني على الأرجح تعييني في منصب الأستاذ المسؤول عن مادة الرياضيات، لكن هذا هو منصب الشّيهم، وهو لا يوحي بأنه على وشك الاستقالة. كما أنه الأستاذ الأكثر شعبية بين التلاميذ، وبالتالي لن تجني المدرسة بالتأكيد أي فائدة من نقله أو إقالته. من الصعب كلّما تكلّمت مع القميص الأحمر أن أدرك ما يريد قوله بالفعل، لكننا على الأقل أنهينا المسألة التي استقدمني من أجلها. واصلنا الحديث على الرغم من ذلك منتقلين من موضوع إلى آخر، فتطرق إلى حفل الوداع الذي سيقام على شرف القرع، ثم سألني إن كنت أشرب الكحول، وبعد ذلك أبدى تقديره للقرع واصفاً إياه بسيد ودود وطيّب. وأخيراً، انتقل إلى موضوع مختلف تماماً فسألني إن كنت كتبت يوماً قصائد هايكو. بدا لي أن الحديث طال أكثر مما ينبغي،

فأجبته أنني لا أكتب الهايكو وغادرت على الفور. قصائد الهايكو هي شأن كبار الشعراء مثل باشو، أو أشخاص أمثال مصففي الشّعر. أما أساتذة الرياضيات، فلا علاقة لهم بتلك القصائد القصيرة عن روعة الصباح والإبريق عند حافة البئر.

فكرت في الأمر ملياً بعد عودتي إلى غرفتي محاولاً معرفة حقيقة ما يجري. يصعب فهم البعض في هذا العالم. حتى لو كان القرع سئم لسبب ما بلدته حيث له منزل عائلي ووظيفة في المدرسة، لا أفهم لماذا يرحل عنها ويواجه ظروفاً حياتية أصعب في مكان لا يألفه من هذا البلد. لو كان ينوي الانتقال إلى مدينة كبرى، مدينة تتوافر فيها خطوط قطارات على الأقل، لما كان الأمر بدا بهذه الغرابة. لكن لماذا الذهاب إلى نوبيوكا؟ البلدة هنا يسهل الوصول إليها بحراً، وعلى الرغم من ذلك لم يمض على مكوثي فيها شهر حتى سئمتها. أما نوبيوكا، فتبعد مسافات وسط جبال تقع خلف جبال تحيط بها جبال أيضاً. بحسب وصف القميص الأحمر، ينبغي القيام في بادئ الأمر برحلة في الباخرة، ثم مواصلة السفر في عربة يجرها حصان ليوم كامل وصولاً إلى مدينة ميازاكي، ومن هناك يوم آخر في عربة أيضاً. مجرد سماع اسم ذاك المكان لا يوحي بأنه يحوي الكثير من الحضارة، بل يبدو أقرب إلى مكان نصف سكانه من القرود. أي نزوة يمكن أن تجعل أياً كان، ولو كان رجلاً منزّهاً

مثل القرع، يرغب في الذهاب إلى هناك والعيش بين مجموعة من القرود؟

بعد عودتي إلى المنزل، جلبت لي السيدة الطعام كالعادة. سألتها «بطاطا حلوة اليوم أيضاً؟» فأجابت «لا، اليوم أحضرت توفو، أليس كذلك؟» لا يمكن القول إنه يختلف كثيراً عن البطاطا الحلوة.

– سمعت أن السيد كوغا سينتقل إلى نوبيوكا.

– نعم. مسكين، أليس كذلك؟

– مسكين؟ إن كان يريد الذهاب إلى هناك، فهذا شأنه ولا يمكن القيام بشيء حيال الأمر.

– يريد الذهاب؟ من قال إن هذا ما يريده هو، أليس كذلك؟

– من قال إن هذا ما يريده؟ هو نفسه. لا بد أنها نزوة ما، ألا تعتقدين ذلك؟

– أرى أنك طيب ويسهل تضليلك. المسألة مختلفة تماماً، أليس كذلك؟

– تظنين ذلك حقاً؟ لكن القميص الأحمر قال لي هذا للتو. إن كنت طيباً ويسهل تضليلي، فلا بد أن القميص الأحمر أكبر منافق على وجه الأرض.

– هذا ما يقوله هو بالطبع، لكن السيد كوغا لا يرغب بالتأكيد في الذهاب إلى هناك، أليس كذلك؟

– ما أستنتجه من كلامك أنك تصدقين ما يقوله الاثنان. هذا غاية في العدل والإنصاف. لكن ما الذي يجري بحق الله؟

– جاءت والدة السيد كوغا هذا الصباح وروت لي القصة بكاملها، أليس كذلك؟

– وما هي القصة الكاملة التي أخبرتك إياها؟

– منذ وفاة زوجها، لم تكن أحوال آل كوغا جيدة كما يظن الناس، وبعدما بات وضعهم شاقاً ذهبت لمقابلة المدير وسألته إن كان بوسعه زيادة راتب ابنها قليلاً بعدما مضت أربع سنوات على عمله في المدرسة.

– طبعاً.

– قال المدير إنه سيفكر في الأمر فخرجت السيدة كوغا من مكتبه مطمئنة إلى أن الأمور ستكون على ما يرام. ثم انتظرت أن يأتيها النبأ السار. كانت تأمل أن يستغرق الأمر حوالى شهر، لكن ما حصل أن المدير استدعى السيد كوغا ذات يوم وقال له إن وضع المدرسة لا يسمح لها للأسف بزيادة راتبه. لكنه بلغه بوجود وظيفة شاغرة في نوبيوكا بأجر يزيد خمسة ينات عما يتقاضاه هنا، ما يطابق طلبه، وقد قام بالترتيبات من أجل أن يتسلمها السيد كوغا، وليس عليه الآن سوى الاستعداد للرحيل.

– لم يكن ذلك عرضاً بل أمراً!

– هذا صحيح. كان السيد كوغا يفضل البقاء هنا على الذهاب إلى أي مكان آخر براتب أعلى. طلب من المدير عدم نقله إذ إن بيته ووالدته هنا، لكن المدير أجابه بأن المسألة حسمت وبأنهم عينوا أستاذاً محله، وبالتالي يتحتم عليه الرحيل.

– لكن هذا فظيع! أوقعوه في فخ شنيع! إذا لم يكن كوغا يريد فعلاً الذهاب إلى هناك... لم يبد لي الأمر منطقياً. الذهاب للعيش في مكان ناء وعر برفقة قرود لمجرد خمسة ينات بائسة في الشهر... من يكون بهذا الغباء؟!

– غباء؟ لكنه أستاذ، أليس كذلك؟

– حسناً، قولي ما تشائين، لكن لا بد أن يكون القميص الأحمر خلف هذه المؤامرة. هذه أقصى الحقارة. تلقى فعلاً ضربة من حيث لا يدري! لا عجب والحال كهذه أن لا يجدوا مشكلة في زيادة راتبي. لكن إن كانوا يعتقدون أنني سأقبل بذلك الآن، فإنهم مخطئون.

– سوف يزيدون راتبك، أليس كذلك؟

– هكذا يقولون، لكن أعتقد أنني سأرفض الزيادة.

– ولماذا ترفضها، قل لي؟

– هكذا، سأرفضها بكل بساطة. دعيني أقول لك إن ذلك القميص الأحمر أحمق وجبان أيضاً.

– فليكن، لكنه يعرض عليك زيادة راتبك، ومن الأفضل لك

أن تقبلها وتلزم الصمت، أليس كذلك؟ الشباب يغضبون لأدنى الأسباب، ثم بعدما يتقدّمون في السن، يدركون أن كل ما يجنونه من هذا السلوك هو المزيد من المتاعب وأنه كان يجدر بهم ضبط أنفسهم. ستكون المتضرر الوحيد من نزقك وسوف تندم على ذلك في نهاية المطاف. تلك هي الحياة، إنها نصيحة امرأة مسنة. إن قال القميص الأحمر إنه سيزيد راتبك، خذ الزيادة واشكره عليها. هذا كل ما هو مطلوب منك.

– اسمعي، لست بحاجة إلى نصيحة امرأة مسنة لتقول لي ما يتعيَّن علي القيام به، هذا ليس شأنك. إنه راتبي، ومهما ارتفع أو انخفض، فهو شأني أنا وحدي.

خرجت من الغرفة دون أن تضيف كلمة واحدة. كان زوجها ينشد مقطعاً من إحدى مسرحيات النو بصوت عذب رقيق. يبدو لي أن فن غناء النو يقوم برمته على اختيار مقاطع واضحة وبسيطة على الورق وتنغيمها وفق ألحان معقدة إلى حد مضحك بحيث لا تعود مفهومة على الإطلاق. كيف كان بوسعه أداء تلك الأناشيد ليلة بعد ليلة دون أن يصاب بمرض عضال، كان ذلك لغزاً حقيقياً لم أستطع فكّه. مهما يكن، كانت ثمة مسائل أهم بكثير تشغل بالي. قيل لي إنهم سيزيدون راتبي. لم أكن طلبت ذلك، لكنني تصورت أنه سيكون من المؤسف أن يذهب هذا المبلغ هدراً، فقبلت. لكن

هل أكون جشعاً وأقبل بمبلغ حسم من راتب شخص أرغم على القبول بنقله إلى مكان لا يرغب في الذهاب إليه؟ ماذا يظنون أنهم يفعلون بإقصائهم رجلاً إلى مجاهل نوبيوكا في حين أن كل ما يريده هو البقاء هنا؟ حتى منفي شهير مثل سوغاوارا نو ميشيزاني سمح له عند نفيه إلى كيوشو بالإقامة في مكان لا يبعد كثيراً عن ضواحي فوكووكا. وذلك القاتل الذائع الصيت كاواي ماتاغورو، ألم ينته به الأمر في ناحية على قدر مقبول من التطور في جزيرة ساغارا؟ في مطلق الأحوال، لن أعرف راحة البال إلا بعدما أذهب إلى القميص الأحمر وأبلغه برفضي زيادة راتبي.

ارتديت ملابس رسمية وتوجهت إلى منزل القميص الأحمر. حين وقف في المدخل الفسيح معلناً حضوري، جاء شقيقه الأصغر مرة جديدة لاستقبالي وعلى وجهه تعبير كأنما يتساءل «أنت من جديد؟» نعم، أنا من جديد، وعلى أتمّ الاستعداد للحضور إلى هنا بالقدر الضروري، حتى لو تطلب الأمر إيقاظهم في منتصف الليل. هل يظن حقاً أنني عرّجت عليهم في زيارة اجتماعية؟ لا، بل جئت أرد راتبي، شاؤوا أم أبوا. قال شقيق القميص الأحمر إنه في اجتماع مع زائر آخر في الوقت الحاضر، فأجبت أنني أودّ فقط مكالمته بشكل سريع، ولو في المدخل. دخل مجدداً. نظرت أرضاً فرأيت صندلين خشبيين نحيفين مكسوين بالقش المحبوك. سمعت صوت أحدهم

من داخل المنزل يهتف «حسناً، علينا أن نحتفل، بالصحة!» لا بد أن يكون الزائر العليق، فمن سواه يتكلم بمثل هذا الصوت عالي النبرة وينتعل مثل هذين الصندلين الرقيقين؟

ظهر القميص الأحمر بعد قليل حاملاً مصباحاً بيده ودعاني للدخول معلناً أن زائره هو السيد يوشيكاوا. لكنني رفضت الدعوة وقلت له إنني أود فقط أن أقول له كلمتين وفي وسعي القيام بذلك هناك في المدخل. كان وجهه قرمزياً، لا بد أنه أفرغ بضع كؤوس مع رفيقه العليق.

قلت «بشأن زيادة راتبي، جئت أبلغك بأنني فكرت في الأمر ملياً وقررت عدم قبولها». رفع القميص الأحمر المصباح ليحدق في وجهي محاولاً تمييز ملامحي. وقف مذهولاً عاجزاً عن الكلام وقد فاجأته. ربما لم يكن يصدق أنه أمام الرجل الوحيد في العالم بأسره الذي يمكن أن يرفض زيادة راتبه، أو أنه لم يفهم أي حاجة ملحة دفعتني إلى العودة على وجه السرعة لأعلن له رفضي، أو ربما الأمرين معاً. مهما يكن، ها هو واقف أمامي فاغر الفاه يبحث جاهداً عما يقوله، وكان منظره طريفاً.

– حين قبلت العلاوة من قبل، فعلت لأنني ظننت أن السيد كوغا سينقل طوعاً، لكن...

– فعلاً، كوغا هو الذي طلب ما يشبه نقله من وظيفته.

– ليس هذا ما حصل. هو أراد البقاء هنا. حتى لو لم يحصل على زيادة في راتبه، فهو يريد البقاء في بلدته.

– أهذا ما قاله لك؟

– لم أسمعه منه مباشرة.

– ممن سمعته إذاً؟

– من صاحبة المنزل حيث أقيم. هذا ما قالته لها والدته وقد أخبرتني بذلك اليوم.

– هذه هي إذاً القصة التي روتها لك تلك السيدة العجوز؟

– نعم.

– عذراً، لكنني قد أكون أسأت الفهم. يتهيأ لي من كلامك أنك تصّدق أقوال السيدة العجوز التي تسكن في منزلها ولا تصدق ما يقوله لك مساعد مديرك. هل فهمت الأمر جيداً؟

وجدت نفسي محرجاً. عليّ أن أقر بأن خرّيجي الجامعات لديهم أساليبهم، يعرفون كيف يحشرونك في زاوية ما كانت لتخطر لك، ثم ينقضّون عليك. كان والدي يقول لي على الدوام إنني انفعالي إلى حد ميئوس منه. الآن فقط أدركت ما كان يعنيه. ما إن سمعت قصة السيدة هاجينو حتى هببت لمعالجة الأمر دون أن أبذل أي جهد للحصول على تفاصيل المسألة من القرع نفسه أو والدته. وها أنا الآن في مأزق، أعزل أمام هجوم هذا الجامعي.

لم يكن من السهل التصدي لحججه بشكل مباشر، لكنني في قرارة نفسي حكمت على القميص الأحمر بأنه شخص عديم الذمة. قد تكون السيدة العجوز جشعة وبخيلة، لكنها على الأقل ليست منافقة وخبيثة مثله. نجحت أخيراً في التفوه بشيء ما: «قد يكون ما تقوله صحيحاً، لكنني في مطلق الأحوال لا أرغب في علاوة».

– المسألة هنا تزداد غموضاً. تقول لي أولاً إنك جئت تبلغني بأنه لا يمكنك قبول علاوة نظراً إلى ظروف معينة علمت بها. ثم بعدما أشرح لك بأن ما سمعته لا أساس له من الصحة، تصر على رفض العلاوة مهما يكن. لا يمكنني فهم موقف كهذا.

– قد يكون من الصعب عليك فهمه، لكنني متمسك برفضي.

– إن كان الأمر يكدّرك بهذا الشكل، فلن أذهب إلى حد فرضه عليك قسراً، لكنّ تبديل موقفك بهذا الشكل الكامل في غضون ساعتين أو ثلاث ساعات سينعكس على مصداقيتك في المستقبل.

– لا يهم.

– لا ينبغي بك قول هذا. فالثقة أهم ما في هذا العالم. حتى لو افترضنا لمجرد الافتراض أن مالك غرفتك...

– ليس المالك بل المالكة.

– ليكن، حتى لو افترضنا أن ما تقوله مالكة غرفتك صحيح، فعلاوتك لن تقتطع من راتب كوغا، أليس كذلك؟ إنه ذاهب إلى

نوبيوكا وسيصل الأستاذ الذي سيحل محله قريباً ويتولى هذا المنصب براتب أدنى بقليل. كل ما نفعله أننا نجير لك الفارق. لا حاجة إلى أن تشعر بالذنب أو الأسف. كوغا سيكون أفضل حالاً في نوبيوكا والأستاذ الجديد قبل أساساً بالوظيفة براتب أدنى. وبالتالي، لا أرى ضيراً إن كان كل ذلك يسمح بزيادة راتبك. إن كنت لا تزال ترفض، لا بأس، لكن لماذا لا تعود إلى غرفتك وتفكر ملياً في الموضوع مرة ثانية؟

لا يمكنني ادّعاء الذكاء وحين يواجهني عادة أحد ما بحجج محكمة كهذه، أتراجع وأقر بأنه قد يكون على صواب وبأنني أخطأت، لكن هذا لم يحصل في تلك الليلة. منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى هذه البلدة، وثمة ما يزعجني في القميص الأحمر. في فترة ما بدلت رأيي وقررت أنه رجل طيب القلب على طريقة النساء بشكل ما، لكن الآن بعدما اتضح أن لا طيبة فيه على الإطلاق، عاد إليّ نفوري منه مضاعفاً. يمكنه عرض كل الحجج المنطقية التي يشاء بكل ما أوتي من بلاغة، وبذل كل ما في وسعه لترهيبي بهيبة منصبه ومسؤولياته، فهذا لن يجديه نفعاً. من يغلبك بقوة حججه ليس بالضرورة شخصاً صالحاً، كما أن المغلوب ليس هو الشرير على الدوام. قد يكون ما يقوله القميص الأحمر منطقياً تماماً في الظاهر، لكن كلامه على براعته وفصاحته، عاجز عن إقناعي في الصميم. لو

كان من الممكن الفوز بقلوب الآخرين بقوة المال والسلطة والمنطق، لكان الدائنون والشرطيون والأساتذة الجامعيون الأكثر شعبية على الإطلاق. هل كان يظن فعلاً أن في وسعه كسب مودتي بمنطق مساعد مدير المدرسة التكميلية ذاك؟ المودة والكراهية هما ما يحرك العالم، وليس المنطق.

«معك كل الحق في ما تقوله، لكنني لم أعد أرغب في هذه العلاوة. ولن أقبلها مهما كان. التفكير في الأمر لن يبدل موقفي. إلى اللقاء». عبرت البوابة عائداً أدراجي، وكانت المجرة تترقرق في السماء الليلية فوق رأسي.

الفصل التاسع

حين وصلت إلى المدرسة صباح اليوم المحدد لإقامة المأدبة على شرف القرع الشاحب، باغتني الشّيهم عارضاً عليّ اعتذارات وتوضيحات مطولة:

«حين جاء إيكاغين في ذلك اليوم وقال لي إنك فظ معهما وسألني أن أسدي لهما خدمة وأخلصهما منك، صدقته. لكن تبين لي لاحقاً أنه في الواقع شخص مريب يعيش من بيع رسمات مزيفة يطبع عليها أختامه المزورة، فأدركت أن ما قاله عنك أيضاً ملفّق. حين اقتنع بأنه لن يتمكن من خداعك برسوماته وتحفه الأثرية وبأنه لن يجني منك أي أرباح، اختلق روايته تلك. لم أكن أعرفه على حقيقته، وآمل أن تغفر لي معاملتي السيئة لك».

لم أتفوه بكلمة، بل تناولت السن ونصف السن التي كانت لاتزال على مكتب الشّيهم ووضعتها في صرتي. سألني مذهولاً وكأنه لا يصدق «تستردها فعلاً؟». فأجبته «نعم، لم أشأ أن يكون لك أي

فضل علي، لذلك كنت مصمماً على تسديد المبلغ لك، لكنني حين فكرت في الأمر فيما بعد، قررت أنه من الأفضل أن أقبل دعوتك. ولذلك أستردّ النقود». قهقه ضاحكاً وسألني «في هذه الحال، لماذا انتظرت حتى الآن لاستردادها؟». شرحت له أنني كنت أنوي القيام بذلك منذ فترة طويلة لكن الأمر لم يبد لي مناسباً، فتركت النقود في مكانها وفي الآونة الأخيرة، كان مجرد منظرها يعصر قلبي إلى حد صرت أخشى اللحظة التي أدخل فيها المدرسة وأراها. أجابني أنني بالتأكيد من الصنف الذي لا يتنازل لأحد. فرددت «أنت أيضاً في غاية التعنّت».

– من أين أنت؟

– أنا من أبناء إيدو، ولدت في طوكيو ونشأت فيها.

– هكذا إذاً! أنت من إيدو! لا عجب إذاً في أن تأبى الاستسلام.

– وماذا عنك؟

– أنا من آيزو.

– آيزو... الآن أفهم! أهل آيزو عنيدون. هل ستشارك في حفل الوداع؟

– طبعاً. وأنت؟

– بالتأكيد. حتى أنني أنوي مرافقته إلى المرفأ عندما يحين موعد

رحيله.

– سيكون حفلاً ممتعاً، سوف ترى. هذه الليلة لن أعدّ الكؤوس.

– كما تشاء. أما أنا، فسوف أتناول بعض الطعام وبعدها أغادر دون إبطاء. من الحماقة الإسراف في الشرب.

– أنت لا تفوت فرصة لافتعال مشاجرات على ما أرى. هكذا هم أبناء إيدو، متهورون وانفعاليون!

– مهما يكن، هل يمكنك المرور بي في طريق عودتك الليلة؟ ثمة مسألة أود استشارتك بشأنها.

حضر كما اتفقنا. كنت أريد أن أخبره أنني كلما كنت ألمح القرع في الآونة الأخيرة، أشعر بالشفقة عليه إلى حد يصعب عليّ احتماله، لكن رؤيته الآن وقد أوشك على الرحيل باتت تؤلمني إلى حد وددت لو أرحل مكانه إن أمكنني ذلك. فكرت في إلقاء كلمة مؤثرة خلال الحفل أودعه فيها كما يليق به، لكن لهجتي الفجة الخاصة بأهل طوكيو لن تكون معبرة. لذا خطر لي أنه سيكون من الأنسب إن أقنعت الشّيهم بإلقاء الخطاب بنفسه، فلا شك أن صوته الرنان سيبعث الرعب في نفس القميص الأحمر.

بدأت بإطلاعه على آخر تطورات قصة الأيقونة، لكنه بالطبع كان على علم بالمسألة أكثر مني. أخبرته بما رأيته على ضفة نهر

نوزيري ناعتاً القميص الأحمر بالأحمق، فاتهمني بأنني أوزع صفة الحماقة نفسها على كل من يصادف طريقي. ألم أصف أمثاله بالحماقة في صباح اليوم نفسه في المدرسة؟ إن كان هو أحمق، فليس من الممكن عندها أن يكون القميص الأحمر من الفئة ذاتها لأنه ليس هناك ما يجمع بينهما على الإطلاق. اعترفت له بذلك، وقلت إن القميص الأحمر هو في هذه الحال شخص غبي وقميء، فوافقني الرأي على الفور. قد يكون الشّيهم يفوقني قوة وتصلباً، لكنني أتخطاه أشواطاً بثراء معجمي. أعتقد أن أهل آيزو ليس لهم إسهام كبير في هذا المجال.

ثم ذكرت مسألة العلاوة التي عرضت عليّ ونقلت كلام القميص الأحمر بشأن تكليفي مسؤوليات أكبر، فقال الشّيهم منتفضاً «في هذه الحال، يخططون للتخلص مني!» سألته إن كان على استعداد للتخلي عن مهامه، فنفى ذلك نفياً قاطعاً وقال بشيء من الاعتداد إنه إن كان سيعفى من وظيفته، فسوف يحرص على اقتلاع القميص الأحمر من منصبه معه. لكنني حين استفهمت منه كيف كان ينوي التصرف لإسقاط القميص الأحمر، أقر بأنه لم يفكر في الأمر بعد. لا شك أن الرجل شديد البأس، لكن يبدو أن ذكاءه لم يكن بالمستوى ذاته. أخبرته كيف رفضت العلاوة المعروضة علي، ففرح كثيراً وقال «هذا أمر لن يخطر إلا في بال أبناء إيدو! حسناً فعلت!».

سألته لماذا لم يتواسط ليحاول إبقاء القرع هنا حين تبيّن أنه لم يكن يرغب في الرحيل، فأوضح أنه حين أخبره القرع بالأمر، كانت المسألة حسمت. حاول مناقشة الموضوع مرتين مع المدير ومرة مع القميص الأحمر، لكن دون جدوى. وبرأيه، فإن تساهل كوغا وطيبته المفرطة كانا جزءاً من المشكلة. كان يجدر به أن يرفض الأمر حالما أخبره به القميص الأحمر، أو على الأقل أن ينسحب طالباً مهلة للتفكير. لكنه عوضاً عن ذلك اقتنع بكل هذا الكلام المنمّق وأعطى موافقته في الحال. ذهبت والدته بعدها للتحدث إلى المدير دفاعاً عنه، ورفع الشّيهم نفسه قضيته مجدداً، لكن كل ذلك لم يجد نفعاً. أمر مؤسف حقاً.

لفتت انتباهه إلى أن المسألة برمتها لم تكن على الأرجح سوى مكيدة دبرها القميص الأحمر للتخلص من القرع والفوز بقلب الأيقونة، فقال «لا شك في ذلك. قد يبدو هذا الرجل مسالماً، لكنه يخفي باستمرار خطة ما أعدها بإحكام. وإن كشفه أحد ما وواجهه بالأمر، يكون لديه دائماً مخرج جاهز مسبقاً. إنه داهية! الطريقة الوحيدة لمواجهة شخص مثله هي ضربه ضرباً مبرحاً». شمر الشّيهم عن ساعديه مستعرضاً عضلاته المفتولة. قلت «تبدو قوياً. هل تمارس الجوجيتسو؟» شد عضلات ذراعه وقال «تحقق بنفسك». تحسستها فوجدتها صلبة كحجر الخفان الذي أفرك به بشرتي في الحمام.

أعجبت بقوته وقلت له إنه بهذين الذراعين يمكنه على الأرجح إرداء خمسة أو ستة قمصان حمر بضربة واحدة فأجاب «بالتأكيد» وهو يقبض ذراعه ويرخيها فتنتفخ عضلاته وتتراخى متماوجة. كان هذا المشهد ممتعاً. أكد لي أنه إن ربط حبلاً غليظاً مجدولاً حول ذراعه وشده، يمكنه قطعه بمجرد أن يشد عضلاته. قلت له إن في وسعي القيام بالأمر نفسه على الأرجح فأجابني «هل تعتقد حقاً؟ حسناً، لماذا لا تحاول إذاً؟» من الأفضل ألا أحاول رفع هذا التحدي، سوف أكون محرجاً للغاية إن عجزت عن قطع الحبل.

سألته من باب المزاح «ما رأيك؟ هل أنت مستعد لتلقين القميص الأحمر والعليق درساً جيداً بعدما تفرغ من تناول كؤوسك؟» فكر الشّيهم قليلاً وقال «لا، الليلة غير مناسبة». سألته لم لا، فأجاب أن الأمر لن يكون لائقاً حيال كوغا، وأنه إن كان سيوسعهما ضرباً، فلا بد أن يفعل ذلك حين يضبطهما في الجرم المشهود وهما يقدمان على فعلة سيئة، بحيث لا يظهر في موقف المعتدي. بدا لي محقاً. فالشّيهم على بلادة ذهنه، أكثر قدرة مني على التريث والتفكير.

قلت «حسناً، حين تلقي خطابك، احرص على الإشادة قدر المستطاع بالقرع وتعداد فضائله. إن قمت بذلك أنا، لن يكون لكلامي وزناً بلهجتي السريعة الخفيفة وسوف يبدو وكأنه مجرد ثرثرة ابن إيدو. كما أنني كلما اضطرّ إلى التكلم والتعبير عن رأيي،

أشعر فجأة وكأن كرة ما عالقة في حنجرتي فأكاد أختنق ولا تخرج كلمة واحدة من فمي. إذاً أنا أعتمد عليك.

– حالتك تلك غريبة. هكذا إذاً، لا يمكنك التعبير عن نفسك في العلن؟ لا بد أن ذلك يطرح لك مشكلة.

أجبته أن المسألة لم تكن تطرح لي أي مشكلة على الإطلاق.

حان موعد حفل العشاء فانطلقنا أنا والشّيهم معاً. كان الحفل يجري في مطعم يدعى كاشينتاي، وهو مطعم معروف بأنه الأفضل في البلدة، ولو أنني لم أدخله من قبل. قيل لي إن المبنى كان في الماضي قصر أحد أتباع السيد الاقطاعي المحلي وقد بيع لاحقاً وتم تحويله إلى مطعم دون إدخال تعديلات كبيرة عليه، ما جعله يحتفظ بجلاله. بدت لي فكرة تحويل قصر فارس نافذ إلى مطعم أشبه بأخذ رداء محارب جليل وتحويله إلى ملابس داخلية.

حين وصلنا، كان معظم المدعوين سبقونا إلى هناك وقد تحلقوا في مجموعات من اثنين أو ثلاثة في قاعة ضخمة تقارب مساحتها ثمانين متراً مربعاً. كان المختلى التزييني المتصل بها فسيحاً رائعاً يليق بعظمة القاعة، عرضه يزيد عن ثلاثة أمتار ونصف. حتى مخدع غرفتي السابقة لم يكن يقاربه فخامة. إلى يمينه وضع إناء خزفي من سيتو مزين بنقشات حمراء، ينبثق منه غصن صنوبر عريض. لم أدر ما الفائدة من استخدام غصن صنوبر للزينة، لكنني افترضت أنهم

أرادوا الاقتصاد، فاختاروا شجرة تحتفظ بخضرتها لبضعة أشهر. سألت أستاذ العلوم عن مصدر إناء سيتو هذا بنظره فأجابني «هذا ليس إناء سيتو، بل إناء إيماري». ضحك حين اعترفت له بأنني كنت أظن أن خزفيات إيماري من أصناف سيتو. اكتشفت لاحقاً أن تسمية سيتو تشير حصراً إلى الآنية المصنوعة في مكان يدعى سيتو، في حين أنني افترضت كوني متحدراً من إيدو، أن هذه التسمية تشير بكل بساطةإلى الخزفيات على أنواعها. في وسط المختلى علّقت رسمة ضخمة خطت عليها أربعة أسطر يحمل كل منها سبعة رموز صينية بحجم وجهي. بدت لي مرسومة بخط رديء ولم أفهم لماذا يعلقون رسمة قبيحة كهذه في صدر القاعة. لكن حين سألت أستاذ الأدب الصيني الكلاسيكي عن الخطوط، قال لي إنها بريشة خطاط شهير يدعي كايوكو. يمكنها أن تكون بخط كايوكو أو سواه، لكنني لاأزال أعتبرها رديئة.

بعد وقت طلب منا السكرتير كاوامورا الجلوس. وبما أننا كنا نجلس أرضاً، اخترت موقعاً خلفه عمود يمكنني الاتكاء عليه. جلس المدير في موقع الشرف المواجه مباشرة لرسمة كايوكو وكان باللباس الياباني التقليدي وقد ارتدى كيمونو احتفالياً. إلى يساره جلس القميص الأحمر في لباس مماثل فيما جلس إلى يمينه ضيف الشرف القرع الشاحب بالرداء الياباني التقليدي أيضاً. أما أنا، فكنت

أرتدي بدلة من الطراز الغربي جعلت الجلوس في الوضعية التقليدية على عقبيّ غير مريح، فسارعت إلى التربّع أرضاً. إلى جانبي جلس أستاذ الرياضة وكان يرتدي بنطالاً أسود لم يمنعه من اتخاذ الوضعية التقليدية، مستوياً في جلسته بشكل يليق بمحترف يعلّم اللياقة البدنية. أحضروا العشاء أخيراً على صوان فردية ووزّعوا أكوازاً من الساكي. نهض الأستاذ المكلف بتنظيم الحفل وألقى كلمة افتتاحية مقتضبة، ثم تلاه الغرير وبعده القميص الأحمر. قدم كل منهم شهادة في القرع، وفي تناغم يبعث على التساؤل إن لم يكونوا نسّقوا الأمر مسبقاً فيما بينهم، أعرب الثلاثة عن إعجابهم الفائق بمزاياه الاستثنائية وقيمه المهنية والبشرية على السواء. ثم انتقلوا للتعبير عن أسفهم العميق لرحيله الوشيك، متباكين على الخسارة الهائلة التي ستلحق بالمدرسة وبهم شخصياً. لكن بما أنه تمنّى بنفسه نقله نتيجة ظروف شخصية عدة، لم يسعهم سوى الاستجابة لطلبه مكرهين. لم يشعر أي من الثلاثة بأدنى خجل من افتتاح حفل الوداع هذا بمثل هذه الأكاذيب الفاضحة. كان خطاب القميص الأحمر الأكثر شجوناً، وقد ذهب فيه إلى حد الادّعاء أن خسارة صديق مخلص مثله إنما هي خسارة فادحة له شخصياً. بدا كلامه مقنعاً يقطر صدقاً ونبرته أكثر رقّة وحنوّاً من العادة، حتى أنه سيخدع بالتأكيد من يسمعه للمرة الأولى. لا بد أن هذه الأساليب ذاتها هي التي سمحت له باستمالة

الأيقونة أيضاً. في منتصف خطاب القميص الأحمر، رمقني الشّيهم بنظرة لاذعة، فأجبته بإشارة صامتة تعبر عن تشكيكي بكلامه.

ما إن جلس القميص الأحمر حتى نهض الشّيهم واثباً على قدميه وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر. غمرتني حماسة كبيرة ورحت أصفق بعفوية لكنني شعرت بالارتباك حين التفت صف الحاضرين بدءاً بالغرير صوبي. كنت متلهّفاً لسماع ما سيقوله الشّيهم.

«سمعنا للتو، من مديرنا أولاً ثم بصورة خاصة من مساعد مديرنا، كم أنهما يأسفان لرحيل السيد كوغا. أنا من جهتي أختلف معهما في الرأي، إذ أتطلع بفارغ الصبر إلى رحيله من هذا المكان وبأسرع ما يمكن. قد تكون نوبيوكا نائية، وتفتقر إلى بعض ميزات بلدتنا من الناحية المادية، لكنني سمعت بأن الحياة فيها لا تزال بسيطة لم يطاولها الفساد بعد، وأن معلمي المدرسة وتلاميذها هناك يحتفظون بقيم الماضي النزيهة والصادقة. لن تصادف في مكان كهذا أي منافق متأنق يمطرك بالثناء الرنان الكاذب أو يتظاهر بالمودة ليخدع رجلاً نبيلاً. من المؤكد أن رجلاً كريماً وصديقاً طيباً مثلك سيستقبل بالترحاب في مكان كهذا. وبالتالي، فإنني أهنئك سيد كوغا من كل قلبي بنقلك الميمون إلى هناك. وأود أخيراً أن أن تجد لنفسك في أسرع وقت بعدما تستقر في نوبيوكا شابة حسنة الخلق،

فتاة تليق بأن تكون رفيقة وفيَّة لرجل نبيل مثلك، لتؤسس معها بيتاً يسوده الوئام وعائلة مزدهرة، فتلحق العار والخزي بفتاة معينة طائشة وخائنة..».

تنحنح الشّيهم مرتين بأعلى صوته ثم جلس. أردت التصفيق مجدداً لكنني لم أفعل خشية أن يلتفت إلي الجميع مرة أخرى. بعد الشّيهم وقف القرع نفسه ليلقي كلمة. لم يتكلم من مكانه بل توجه إلى الموقع المخصص للمدعو الأدنى منزلة في الطرف المقابل من القاعة وهو يحيي المدعوين بلياقة. قال «لا أستطيع بكل صدق التعبير بشكل وافٍ عن مدى تأثري بحفل الوداع هذا الرائع الذي تفضل أصدقائي وأقاموه لي بمناسبة نقلي لأسباب شخصية إلى كيوشو. وأنا أثمِّن بصورة خاصة التمنيات التي عبر عنها للتو السيد المدير والسيد مساعد المدير وغيرهما. وإذ استعدّ للانطلاق في رحلة إلى مكان بعيد، آمل أن أبقى حاضراً في أفكاركم وأن تواصلوا إمدادي بالدعم الثمين نفسه الذي منحتموني إياه في الماضي». اختتم كلمته بانحناءة كاد معها يلامس الأرض ثم عاد إلى مكانه. بدا لي أن طيبة هذا الرجل لا تقف عند حدود. ها هو يعبر ببالغ الاحترام عن شكره للمدير ولمساعده اللذين خدعاه وأوقعاه في فخ. هذا أمر يصعب تصديقه، حتى لو كان سلوكه من باب الشكليات الفارغة، كم كانت مشاعره صادقة! وهو ما دلَّت عليه وقفته والكلمات التي

اختارها وتعابير وجهه. إن مجرد الفوز بتقدير رجل قديس مثله يفترض أن يبعث إحساساً بالشفقة والندم في قلب أي كان، غير أن الغرير والقميص الأحمر بقيا جالسين بهدوء يتلقيان شكره وثناءه دون أن يبديا أي تأثر.

وبعدما انتهت الخطابات، صمت الجميع وعلت من أرجاء القاعة أصوات اللعق والمضغ، في الوقت الذي باشر فيه الجميع تناول الحساء. ذقته فوجدته كريهاً. كان هناك أيضاً فطائر بالسمك، لكن لونها بدا غريباً داكناً وكأن أحداً ما حاول شيّها لكنه تخلى عن مشروعه في منتصف الطريق. قدّموا لنا أيضاً الساشيمي[1]، لكن الشرائح كانت غليظة، إذ إنهم لو جلبوا لنا حزوزاً من التونا النيئة، لما كنا لاحظنا الفرق. بدا لي أن نوعية الطعام لم تثبط شهية زملائي المدعوين الذين راحوا يلتهمون كل ما تيسّر لهم وكأنهم في وليمة فخمة. أظن أن الفرصة لم تسنح لهم يوماً لتذوق السمك الطازج المتوافر في طوكيو.

لم يمض وقت حتى بدأت أكواز الساكي الدافئة تدور على المدعوين الواحد تلو الآخر، علت الأحاديث وسادت حركة في القاعة. توجه العليق مباشرة إلى مقعد المدير الذي قدم له كأسا تناولها منه بوقار. إنه نذل من الطراز الأول. راح القرع يتنقل بين المدعوين

(1) الساشيمي طبق ياباني تقليدي من شرائح السمك النيء الرقيقة.

ويدق الكؤوس مع كل منهم. يبدو أنه كان ينوي أن يجول في القاعة بكاملها، وهذا يتخطى بكثير ما تتطلبه أصول اللياقة. حين وصل إليّ، مسد طيات ردائه الكيمونو الرسمي وطلب مني أن أشرّفه بتناول كأس معه. ثنيت ساقيّ بعناء وجلست في وضعية أكثر لياقة على الرغم من أن بنطالي كان يزعجني وصببت له كأسا قائلاً له «من المؤسف أن تغادر بعد هذه الفترة القصيرة على وصولي. متى ترحل؟ آمل ألا تمانع إن رافقتك إلى المرفأ لتوديعك عند الباخرة». رد القرع بأن لا أجهد نفسي، فإنني بالتأكيد مشغول كثيراً. لكنني مهما قال كنت مصمماً على مرافقته لتوديعه في المرفأ ولو اضطررت للتغيّب عن المدرسة.

بعد مرور ساعة تقريباً، بدأت الأمور تخرج عن السيطرة. سكر بعض المدعوين وراح أحدهم يصيح «هيا، تناول كأسا أخرى.. لا لا بل دعوتك أنت لتناول كأس، أرجوك..». بات الأمر مزعجاً بعض الشيء فاستأذنت وتوجهت إلى الحمام. كنت واقفاً في الفناء أتأمل الحديقة المرتبة على الطراز القديم في ضوء القمر، حين ظهر الشّيهم وسألني «ما رأيك؟ ألم يكن خطابي موفقاً؟» بدا راضياً عن نفسه. وافقته على أنه ألقى خطاباً ممتازاً، لكنني أبديت احتجاجي على نقطة فيه. أراد أن يعرف علام أحتج فأجبته «ألم تقل شيئاً عن عدم وجود أي منافق متأنق في نوبيوكا، شخص يتظاهر بالمودة

ليخدع رجلاً طيباً؟

– وما الخطأ في ذلك؟

– المنافق المتأنق لم يكن تعبيراً كافياً.

– ماذا كان يجدر بي قوله في هذه الحال؟

– كان عليك أن تقول له إنه لن يجد أي منافق متأنق، أو محتال، أو نمس، أو نشال، أو نصاب، أو دجال، أو جاسوس مخبر، أو أي صنف حقير من البشر إلى حدّ يصعب التمييز بينه وبين كلب على الطريق إن سمعته ينبح...

– كيف لي أن أخرج بكل هذه الأوصاف مهما سعيت جاهداً! أنت لديك موهبة بالفطرة في ابتداع الشتائم، ومعجمك في غاية التنوّع على ما أرى! لا يسعني أن أصدق أنك لا تجيد إلقاء الخطابات!

– هذا مجرد كلام أحتفظ به في رأسي ليكون جاهزاً للاستخدام في حال وقع شجار. إنه كلام لا يجدي حين تلقي خطاباً.

– لست واثقاً بذلك. في مطلق الأحوال، أنت حقاً ذليق اللسان. هلّا كررت لي تلك القائمة مرة جديدة؟

– قدرما تشاء: منافق متأنق، محتال، نمس..».

بدأت أتحمّى حين ظهر رجلان فجأة واقتربا منا مترنّحين وهما يرتطمان شمالاً ويميناً عبر الشرفة المطلة على الفناء.

– أنتما الاثنان! هل تظنان فعلاً أن بوسعكما تركنا بهذه الطريقة؟ لن ندعكما تفلتان بسهولة. تعالا واشربا معنا! قلت نمساً ؟ يعجبني هذا.. هيا... لنتناول كأسا كلنا نحن النموس معاً..».

وقبل أن نعي ما يجري، تشبثا بنا وأخذا يجراننا إلى القاعة من جديد. لا شك أنهما خرجا بحثاً عن الحمَّام، لكنهما من شدة ما كانا ثملين نسيا وجهتهما الأولى وأخذا يدفعاننا نحو القاعة. يبدو أن أي شيء يظهر أمام السكارى يحوّل اهتمامهم فيغفلون عما كان يدور في رؤوسهم.

«انظروا أيها السادة! ها هو النمس أعاد هذين الشخصين إلى القاعة... ناولوهما كأسين... النمس سيجعل هذين النمسين ثملين حتى يقولان لم يعد بوسعنا شرب نقطة واحدة! إياكما أن تهربا منا!».

ثبّتوني على الحائط ولو أنني لم أكن حتى أحاول الفرار. نظرت من حولي فرأيت أنهم لم يتركوا لقمة واحدة في أي طبق. حتى أن بعضهم لم يكتف بإفراغ كل الأطباق على صينيته، بل غزا الأطباق المتبقية أحياناً على بعد عشرة أمتار منه. أما المدير، فقد غادر.

في هذه المرحلة من حفل العشاء، مدت ثلاث أو أربع غيشات رؤوسهن من الباب وسألن «هل هذا هو المكان؟» كان الأمر مفاجئاً وبما أنني كنت مسمّرا في كل الأحوال على الحائط، لم يسعني سوى

الوقوف هناك ومراقبة المشهد. كان القميص الأحمر حتى الآن متكئا على أحد الأعمدة قرب المختلى يدخن غليونه الكهرمان وعلى وجهه تعبير من الرضى اللامتناهي عن نفسه والعالم، فانتفض واقفاً وهرع فجأة في اتجاه الباب، غير أنه التقى عنده الغيشات وهن يدخلن. توقفت الأصغر سناً والأجمل بينهن وحيّته مبتسمة. لم تكن المسافة التي تفصلني عنهما تسمح لي بسماع ما يجري من كلام بينهما، لكن تهيأ لي أنها قالت «مساء الخير». غير أن القميص الأحمر تجاهلها وخرج ولم يعد بعدها. أعتقد أنه تبع خطى المدير وعاد إلى بيته.

مع وصول الغيشات، انتعش الحضور على الفور وسادت القاعة أجواء من الجذل والمرح وعلت الهتافات والأصوات وكأن الجميع يصيح في الوقت نفسه للترحيب بالسيدات ودعوتهن للانضمام إلى الجلسة. حاول أحدهم تنظيم لعبة أحاج معهنّ فراح يزعق بأعلى صوته وكأنه يسعى لترهيب خصم في لعبة مبارزة. بالقرب مني، كان آخرون مستغرقين في لعبة حظ بالأرقام فيطلقون صيحات تصم الآذان ويلوحون بأيديهم برشاقة أين منها عروض الدمى المتحركة. في إحدى الزوايا البعيدة من القاعة كان أحدهم يصيح «أنتِ! تعالي إلى هنا وصبي لي كأسا!» وفيما هو يلوح بكوزه تنبه فجأة إلى أنها فارغة فراح يصيح «أنت! المزيد من الساكي! أجلبي لي المزيد!»

وصلت الجلبة والهيجان إلى حد لا يحتمل. وفي وسط هذه الفوضى العارمة كان شخص واحد جالساً لا يدري ما يفعل، مطأطئ الرأس تائه الأفكار. كان ذلك القرع. فعلى الرغم من أن الحفل أقيم على شرفه، لم يكن أي من الحاضرين يكترث البتة لرحيله، بل كان ذلك مجرد عذر ليشربوا ويلهوا. جلس وحيداً في زاويته، كان الحزن يعصر قلبه وسط هذا الجمع. لو كان هذا أفضل حفل توديع يمكنهم إقامته، لكان من الأفضل أن لا يفعلوا شيئاً على الإطلاق.

بعد وقت أخذ الجميع ينشدون الأغاني كل على ليلاه بأصوات غليظة مبحوحة واندفاع صبياني. اقتربت مني إحدى الغيشات حاملة آلة شاميسن[1] وبادرتني «أنت هنا، هيا أنشد لنا أغنية». أجبتها أنني لا أغني وأن في وسعها هي أن تغني إن أرادت فأنعمت علينا بلحن:

سندق الدفوف ونقرع الطبول
ونخرج بحثاً عن فتى في الحقول
خرج من أحلامي وتاه في العراء
أخشى عليه البرد ومطر السماء
إن وجدتم محبوبي خذوني إليه
أؤنس وحشته وأقص عليه

---

(1) الشاميسن عود ياباني بثلاثة أوتار.

حب فتاة ضاع منها الحبيب

راحت تناديه وما من مجيب...

أنشدت أغنيتها بنفسين فقط ثم قالت «آه! أنهكتني!» كان يجدر بها اختيار أغنية أسهل إن كانت لازمتان ستنهكانها.

في هذه الأثناء اقترب العليق وجلس إلى جانبها قائلاً بنبرة القاص المسرحي التي يفتعلها أحياناً «مسكينة سوزو تشان، حين بدا أنك وجدت من كنت تبحثين عنه، ها إنه يتركك ويرحل!» أجابته مقطّبة «لا أفهم ما تقصد». لكن العليق لم يأبه وأكمل مبالغاً بنبرة القاص في مسرحيات الدمى «بالصدفة التقيا، لكن..». صاحت به الغيشا «توقف عن ذلك!» وصفعته على ركبته فبدا في غاية الحبور. كانت تلك الغيشا التي مست القميص الأحمر. إن أي رجل يبدي هذا القدر من السرور حين تصفعه غيشا لا بد أنه أحمق. لكنه لم يكتف بهذا الحد بل أضاف «أود أن أرقص الآن على أنغام كينوكوني[1]. أعزفي هذه الأغنية لي سوزو تشان، أرجوك..».

في الجانب الآخر من القاعة كان أستاذ الأدب الصيني الكلاسيكي يلوي فمه الأدرد جاهداً لإخراج مقطع من مسرحية دمى منه «كيف تقول هذا يا دانباي؟ الرابط بيننا...»[2] بعدما نجح بلفظ تلك

---

(1) أغنية شعبية قديمة رائجة تصف القوارب المنطلقة من كينوكوني في جنوب اليابان.

(2) مقطع من مسرحية موسيقية شهيرة.

الكلمات بطريقة صحيحة، التفت إلى إحدى الفتيات وسألها «ماذا بعد ذلك؟» أولئك المسنون يفقدون الذاكرة بسهولة. كانت غيشا أخرى متمسكة بأستاذ العلوم وتقول له بدلع «ثمة أغنية جديدة رائجة دعني أنشدها لك! استمع جيداً». كانت الأغنية تروي قصة فتاة تربط شعرها بربطة بيضاء جميلة وتسرحه على الطراز الحديث، تجوب المدينة على دراجة وتعزف الكمان وتتكلم لغة إنجليزية خرقاء فتردّد كلّما التقت أحداً ما «تسرني رؤيتك». علق أستاذ العلوم مبدياً إعجابه «هذه أغنية جميلة، حتى إنها تحتوي بعض الإنجليزية!».

ثم جاء دور الشّيهم فأعلن بصوت جهوريّ سخيف أنه سيؤدي رقصة بالسيف ونادى الغيشات ليرافقنه بالعزف على الشاميسن. ذهلت الفتيات بنبرته الآمرة الحادة ولم يستجبن لطلبه. لكن ذلك لم يحبط عزيمته بل تناول عصا وتوجه وحيداً غير آبه إلى صدر القاعة وأنشد بلهجة خطابية بيتاً من الشعر الكلاسيكي كاشفاً عن موهبة فنية لطالما أخفاها عن زملائه «عابراً قمم جبال مكللة بالضباب، أشق طريقي». العليق في زاويته كان انتهى من الرقص على أنغام أغنية كينوكوني ألحقها بأغنيات شعبية أخرى مثل «كابوري» و«تانا نو داروما»، وأخذ يختال في أرجاء القاعة وقد نزع ثيابه ولم يستبق منها سوى مئزر، وهو يلوح ببسالة بمكنسة من أوراق البلح وكأنها سيف ويغني «مع الصين انقطعت المفاوضات». لا شك أن الرجل

فقد رشده.

شعرت بالأسف على القرع الذي بدا مرتبكاً وتعيساً إلى أقصى درجة وقد بقي طوال الوقت مستقيماً في جلسته ورداؤه مربوط بشكل لائق. لم أفهم ما الذي يجبره على تحمل الوضع والبقاء جالساً ولو في حفل وداعه بكامل ملابسه الرسمية وأمامه رجل يتلوى في الغرفة شبه عار. ذهبت إليه واقترحت عليه أن يغادر معي، لكنه لم يبد رغبة في الخروج وقال «إنه حفل وداعي ولن يكون من اللائق أن أغادر قبل الآخرين. أرجوك، يمكنك الانصراف إن أردت».

– لا تكترث لهم. لو كان هذا حفل وداع حقيقياً، لكان يجدر بهم التصرف على هذا الأساس. انظر إليهم، أنهم مجانين! هيا، دعنا نذهب!».

تمكنت أخيراً من إقناعه وبينما كنا نهم بالخروج، اعترضنا العليق وهو يلوح بمكنسته غاضباً ويصيح «ما معنى ذلك؟ ضيف الشرف يغادر قبل المدعوين! هذا لا يجوز! وفي هذه اللحظة الحرجة، في وقت مفاوضات السلام مع الصين تحديداً! لن أدعك تخرج!» قطع علينا المخرج بمكنسته. ضقت ذرعاً وثار غضبي فصحت به «حسناً، إن كانت مفاوضات السلام انقطعت مع الصين، فلا بد أنك الطرف الصيني!» وناولته لكمة على رأسه تليق بالموقف. وقف هناك للحظة مخبولاً عاجزاً عن استجماع أفكاره، ثم انطلق يجوّد زاعقاً بأداء

مسرحي «هذه فضيحة! أن تمد يدك علي، سيدي، لهو سلوك شائن! كيف أتعرّض أنا، يوشيكاوا، للأذى الجسدي؟ كيف تجرؤ؟ تلك سيدي، هي النهاية الحتمية للمفاوضات الصينية اليابانية!» لم يكن كلامه مترابطاً على الإطلاق. لفتت كل هذه الفوضى انتباه الشّيهم فقطع رقصة السيف التي كان في وسطها وهرع صوبنا من الخلف. حين لاحظ أن الوضع بات على شفير المشادة، قبض على العليق من رقبته ودفعه بعنف إلى الخلف. «الصينية اليابانية... آخ آخ! إنك تؤلمني! كل هذه الوحشية!» راح يتخبط محاولاً الإفلات لكن الشّيهم دفعه جانباً فسقط أرضاً محدثاً صوت ارتطام قوياً. لا أدري ما حصل بعد ذلك. رافقت القرع قسماً من الطريق ثم افترقنا. حين عدت إلى المنزل كانت الساعة تجاوزت الحادية عشرة.

الفصل العاشر

انتهت الحرب ولزمت المدرسة يوم عطلة احتفالاً بالنصر. كان من المقرر تنظيم حفل في ساحة الاستعراضات في البلدة، يشارك فيه تلاميذ المدرسة يتقدمهم الغرير. كان من المفترض أن أشارك أنا أيضاً مع جميع معلمي المدرسة. حين وصلنا كانت الأعلام اليابانية ترفرف في كل مكان. المشهد مذهل يبعث على الدوار. كان عدد تلاميذ المدرسة يصل إلى ثمانمئة وقد كلف أستاذ الرياضة بتوزيعهم على مجموعات كل صف في مجموعة، وترتيبهم بشكل شبه عسكري في حين يسير أستاذ أو أستاذان في الفواصل بين مختلف الصفوف لمراقبتهم. كانت هذه الخطة المحكمة ثمرة تفكير معمق وتخطيط بارع، لكنها عند التنفيذ، آلت إلى فوضى عارمة. فالتلاميذ مازالوا أطفالاً، وفي تلك الحالة تحديداً في غاية الرعونة، وقد اعتبروا بالطبع أن كرامتهم الشخصية سوف تهان إن لم ينفذوا الخطة المحددة. لا جدوى حتى لو رافقهم جيش من الأساتذة

لمحاولة إبقائهم مصفوفين بانتظام، فهذه قضية خاسرة من الأساس. كانوا ينشدون بشكل مفاجئ أناشيد عسكرية دون أن يكون أحد طلب منهم ذلك، ويختتمونها بصيحات حربية كل على هواه كأنهم عصبة من مقاتلي الساموراي الخارجين عن القانون هائمين في المدينة. وبين الأناشيد العسكرية والصيحات الحربية، كانوا يثرثرون بلا توقف في جلبة ولغط. ظننا أنهم قادرون على السير في خط مستقيم دون التفوه بكلمة، لكن غاب عن حساباتنا أن اليابانيين يولدون فماً ولساناً، ومهما أنّباهم ووبّخناهم، فإن كلامنا يقع في آذان صماء. لم تكن ثرثرتهم اعتيادية، بل كانوا يتبارون في شتم الأساتذة، مستخدمين كلاماً بذيئاً من أدنى المراتب. تصورت أنني أدّبت التلاميذ على الأرجح بعدما أرغمتهم على الاعتذار إثر حادث المناوبة الليلية، لكن في ذلك اليوم خلال الاستعراض، تبين لي العكس تماماً. فقد عللت نفسي بالأوهام، بحسب تعابير السيدة هاجينو. حسناً، التلاميذ اعتذروا، لكنهم لم يفعلوا مدفوعين بندم صادق عما ارتكبوه، بل كانت مجرد اعتذارات شكلية فارغة، كأولئك التجار الذين يحيّونك بانحناءة متزلفة وهم يخدعونك. يمكن لهؤلاء الأطفال أن يقدموا اعتذاراتهم، لكن ذلك لا يعني على الإطلاق أنهم سيتوقفون عن إثارة البلبلة. لو فكرت بالأمر لربما وجدت أن البشرية برمتها مؤلفة من أمثال هؤلاء التلاميذ. وبالتالي،

فكل من يأخذ بكلام الآخرين ويغفر لهم حين يعتذرون عن عمل ارتكبوه أو يتوسلون المغفرة، إنما سينعت بالحماقة بسبب طيبته. وإن كانت اعتذارات الناس زائفة، فلم لا يكون الصفح عنهم أيضاً زائفا؟ لا يمكن الحصول على اعتذار صادق من أحد إلا إن واصلت ضربه حتى يشعر بندم صادق.

وبينما كنت أتنقل بين مجموعات الصفوف، كانت تردني باستمرار يميناً ويساراً تعليقات عن «المقالي» و«الفطائر»، لكن كان من المستحيل رصد مصدرها وسط هذه الأعداد الغفيرة من التلاميذ. وحتى لو تمكّنت من معرفة المذنبين، فهم سيدعون حتماً أنهم لم يتفوهوا بشيء من هذا القبيل وأنني أسمع أصواتا لأنني مختلّ أو أعاني انهياراً عصبياً أو أي تفاهات أخرى. ذلك السلوك الحقير متجذر في نفوس أهالي المنطقة منذ عهد الإقطاع، ومهما حاولت ترغيبهم أو ترهيبهم، فلن يكون في وسعي تصحيح الأمر. حتى إن شخصاً غير ملوث مثلي قد يجد نفسه بعد قضاء سنة في مثل هذا المكان يتصرف كأهله، فينتهي به الأمر مثلهم. لن أدع أياً كان يهزأ بي وينجو بفعلته بالمناورة والخداع. هل أنا أقل شأنا منهم؟ حتى لو كانوا تلاميذ ومجرد فتيان، فهم أطول قامة منّي. ولا بدّ في هذه الحال أن أجد وسيلة لمعاقبتهم وجعلهم يدفعون ثمن أفعالهم. لكن إن حاولت استخدام إحدى الوسائل الاعتيادية لمقاصصتهم، فأنا

واثق بأنهم سيرتدّون عليّ. وإن قلت لهم إنهم أخطأوا وإنهم ينالون ما يستحقون، فسوف يجدون ذرائع جاهزة وسيؤكدون براءتهم ببلاغة مقنعة. ولن يقفوا عند هذا الحد، بل سيوهمون الجميع بأنهم التجسيد الحيّ للصدق والنزاهة وسيتّهمونني بالتعدي عليهم. بما أن الهدف هو أن أجعلهم يدفعون ثمن أفعالهم، فهذا لن يحصل إلا إذا تمكّنت من إثبات ذنبهم. بكلام آخر، إن تمكنوا من التهجم علي ومن إقناع الجميع بأنني من تسبب بالشجار، فسوف أكون تحت رحمتهم. أما إن تركتهم يتصرفون على هواهم وتظاهرت بالتساهل وضعف الشخصية، فسوف يزدادون جسارة ووقاحة، وإن وضعنا الأمور في إطار أوسع، فيمكننا القول إن ذلك لن يساهم في جعل العالم مكاناً أفضل للعيش. المغزى عملياً أن لا خيار لديّ سوى أن أتّبع سياسة خصومي وأجد وسيلة تكفل لي إنزال العقاب بهم دون أن أتعثّر وأخطئ خلال العملية. هذا أسلوب لا يليق بأبناء إيدو الجديرين بأصولهم، لكنني بشر ولن أحتمل سلوكهم هذا على مدى سنة، وعليّ في هذه الحال أن أتبع هذه الوسيلة لتسوية حساباتي معهم حتى لو كان ذلك يعني التنكّر لأصولي. الحل الوحيد للخروج من كل هذه الورطة هو أن أعود إلى طوكيو وإلى كيو على الفور. فالمكوث في مثل هذه المنطقة الريفية النائية أشبه بالسير نحو الهاوية. حتى العمل في توزيع الصحف سوف يكون

أفضل مما أنا عليه الآن.

وبينما كانت تراودني هذه الأفكار، كنت أتقدم مجرجراً قدميّ، مجاهداً للبقاء في موقعي ضمن الاستعراض، حين لاحظت فجأة جلبة في مقدم المسيرة. وفي اللحظة نفسها، توقّفت صفوف التلاميذ بشكل مفاجئ. ترى ما الذي يجري؟ خرجت من الصف عن يميني محاولاً إلقاء نظرة. كانت صفوف التلاميذ متوقفة عند تقاطع شارعي اوتيماشي وياكوشيماشي. لمحت تدافعاً هائلاً: كان بعض التلاميذ يهاجمون الحشد المقابل لهم لإخراجه من طريقهم في حين تقهقر آخرون مدفوعين إلى الخلف. عاد أستاذ الرياضة مهرولاً إلينا وهو يصيح بصوته الأجش داعياً الجميع إلى لزوم الهدوء. سألته عما يحصل فأخبرنا بأن تلاميذنا اصطدموا عند تقاطع الطريقين بمسيرة لطلاب معهد المعلمين المحلي.

قيل لي إن تلاميذ المدارس التكميلية وطلاب معاهد المعلمين في أي بلدة ريفية على غير وفاق. لست أدري السبب، لكن يبدو أن بينهم كراهية وأي أمر بسيط يمكن أن يكون شرارة لانطلاق معركة حقيقية بينهم. لا بد أن العيش في هذه البلدات الريفية الصغيرة مضجر إلى أقصى الحدود لم يجدوا وسيلة أفضل لمساعدتهم على قضاء الوقت. لا يخفى أنني من هواة المعارك، وحين سمعت باندلاع مشادّة، هرعت لمعرفة ما يجري. كان بوسعي سماع

الطلاب في مقدم المسيرة يصيحون «أفسحوا الطريق، فاشلو الضرائب المحلية[1]! تنحوا جانباً!» في حين تصاعدت من الخلف هتافات «ادفعوهم! أرغموهم على التراجع!». أوشكت على الوصول إلى التقاطع متخطياً بكثير من العناء مجموعات التلاميذ التي كانت تقطع طريقي، حين أطلق أمر بصوت قوي حاد «إلى الأمام سر!»، فاستأنف طلاب معهد المعلمين تقدمهم بهدوء وانتظام. يبدو أن مسألة الأولوية في المرور سوّيت بعدما تسبّبت بالتدافع، وأفسح تلاميذ المدرسة التكميلية الطريق. قيل لي لاحقاً إن معهد المعلمين يعتبر المؤسسة الأعلى شأناً.

كانت مراسم الاحتفال بالنصر بسيطة للغاية. تلا قائد اللواء المحلي رسالة تهنئة، ثم تلا الحاكم بدوره رسالة ثانية، وبعدها هتف الحشد «بانزاي! بانزاي!»، وكانت تلك الخاتمة. أعلنوا عن برنامج ترفيهي بعد الظهر، فقررت العودة إلى غرفتي في هذه الأثناء وباشرت كتابة رسالة لكيو. لم تغب كيو عن بالي منذ أن تلقّيت رسالتها. طلبت منّي أن أروي لها حياتي هنا بالتفاصيل واستجابة لطلبها، سوف أحاول أن أرسل لها تقريراً دقيقاً قدر الإمكان. أحضرت الأوراق وجلست لأكتب، لكنني لم أدر من أين أبدأ لكثرة

(1) كانت المدارس تمول بوساطة ضرائب محلية في حين تمول الخزينة المركزية معاهد المعلمين.

ما كان لدي ما أقصه عليها. هل أكتب لها عن هذا الموضوع؟ لا، فقد يزعجها. عن ذاك ربما؟ لكنّه سيكون مضجراً. بحثت جاهداً عن أمر ما يمكنني كتابته بسهولة ويثير اهتمامها دون أن يطرح لي مشكلة، لكنّني لم أجد أي موضوع يطابق هذا الوصف. فركت حجر الحبر، بللت ريشتي بالحبر، ثم فركت مجدداً حجري، عاودت الأمر مراراً وتكراراً إلى أن وصلت إلى استنتاج هو أنني لن أنجح في كتابة رسالة، فوضعت حجر الحبر جانباً. كتابة الرسائل مهمة مضنية! كان من الأسهل أن أذهب إلى طوكيو وأخبرها كل شيء شخصياً. لا شك أنها قلقة علي، ولست غير آبه لذلك، لكن الصوم ثلاثة أسابيع أسهل من كتابة رسالة تطابق تمنياتها.

أزحت الريشة والورق جانباً، تمدّدت أرضاً ورحت أتأمل الحديقة سانداً رأسي إلى ذراعي. كان بالي مشغولاً على كيو. مهما كانت المسافة تفصلنا، لا بد أنها تدرك ما أكنّه لها من مشاعر صادقة طالما أنني أفكر بها وأقلق على صحتها. لا حاجة بالتالي لكتابة رسالة لها بما أنها تعرف مودّتي لها. وإن لم تتلقّ رسالة، فسوف تفترض على الأرجح أن كل شيء على ما يرام. في مطلق الأحوال، يمكن الاستغناء عن الرسائل ما لم تحلّ مصيبة كبرى، مثل وفاة أو مرض.

كانت الحديقة بقعة أرض لا تتخطى مساحتها عشرة أمتار مربعة ولم تكن فيها أي نبتة استثنائية أو زهرة لافتة، بل مجرد شجرة يوسفي

يتيمة تنتصب عالياً فوق جدار البستان لتشكل علامة فارقة خاصة بالمنزل. أجد متعة على الدوام في تأمل هذه الشجرة حين أعود إلى المنزل. فمنظر حبّات البرتقال اليوسفي تلك المتدلية من الأغصان مشهد غير مألوف على الإطلاق بالنسبة لشخص لم يخرج من طوكيو من قبل. تلك الثمرات الخضراء ستتّخذ عندما تنضج لوناً ذهبيا رائعاً، وقد بدأ بعضها يتلوح منذ الآن، وستكون رؤيتها بهجة للعين. تقول السيدة هاجينو إن هذه الشجرة تحمل برتقالاً استثنائي النوعية، شهياً وغزير العصارة. دعتني لتناول ما أشاء منه بعدما يحلو، وكنت أتطلع بفارغ الصبر إلى أن تنضج وأتناول بضع حبات منها كل يوم. أعتقد أن الأمر سيستغرق ثلاثة أسابيع ومن المؤكد أنني لن أتزحزح من هنا قبل ذلك الحين.

بينما كنت ممدداً أفكر بذلك البرتقال، دخل عليّ الشّيهم. قال: إن علينا الاحتفال بعيد النصر بإقامة وليمة صغيرة وقد اشترى لهذا الغرض بعض لحم الضأن. أخرج من كمّه حزمة مغلفة بورق الخيزران رماها أمامي على الأرض. كان هذا العرض المفاجئ موضع ترحيب ولا سيما بعد حمية البطاطا الحلوة والتوفو التي لا أزال أخضع لها في غرفتي والحظر الصارم المفروض على مطاعم النودلز والفطائر. خرجت أستعير مقلاة وبعض السكّر من السيدة هاجينو وباشرنا الطهي على الفور.

جلسنا نأكل وبينما كان الشّيهم يتخم نفسه باللحم، سألني إن كنت على علم بأن القميص الأحمر يتردد بانتظام على غيشا معيّنة. أجبته «بالطبع، أعتقد أنها من الغيشات اللواتي انضممن إلى حفل القرع». أكّد لي ذلك وهنأني على حدّة ملاحظتي في حين أنه هو نفسه لم يعلم بالأمر إلا للتو. وتابع «تأمّل هذا الرجل، كل ما يتحدث عنه هو «الأطباع المرهفة» و«الملذّات الروحية»، ثم في السّر يقيم علاقة مع غيشا. أجده مثيراً للاشمئزاز. لو أنه يبدي حدّا أدنى من الاستعداد لتقبّل ما يقوم به الآخرون للترفيه عن نفوسهم، لما كان الأمر على هذا القدر من السوء. لكنّ هذا غير وارد، فما إن تطأ قدمك حانة للنودلز أو الفطائر حتى يحذّرك المدير من أنك تعطي مثالاً سيئاً.

– أجل، لا بد أن شراء خدمات غيشا فيه متعة روحية طالما أن هذا المهرّج هو الذي يحصل على مودّتها، لكن الفطائر والمقالي ملذّات مادية غير لائقة. إن كان الأمر روحياً حقاً، لم لا يخرجه إلى العلن؟ كيف يقوم بحماقة كهذه؟ رأيته كيف نهض وهرع للخروج ما إن رأى تلك الغيشا تدخل القاعة؟ هل يعتقد حقاً أن في وسعه خداعنا إلى ما لا نهاية؟ هذا ما يغيظني إلى أقصى حد. وحين يواجهه أحد بالحقيقية يكتفي بالقول «لست أدري عما تتكلم»، أو يحاول تمويه الأمر فينطلق في ثرثرة غبية عن الأدب الروسي أو الهايكو

وكيف أن الشعر الحديث تحدّر منه. إنه ليس رجلاً بل مجرد جبان مخنّث. لا شك أن روح إحدى جواري القصور القديمة اللواتي كن يمتهنّ المؤامرات والدسائس تقمّصت فيه. أو ربما كان والده من أولئك الغلمان الذين كانوا يزاولون نشاطاتهم في الخفاء قرب معبد يوشيما...

– ماذا؟ ما قصة غلمان يوشيما هذه؟

– لا يمكن نعتهم بالرجولة، إن كنت تفهم ما أقصد... احترس، لا تأكل قطعة اللحم هذه، لا تزال نيئة وستصاب بالدودة الوحيدة!

– حقاً؟ لا، أظن أن قطعة اللحم هذه لا بأس بها. لنعد إلى حديثنا، يقولون إن القميص الأحمر يتسلّل إلى الحمام ليقابل تلك الغيشا في مكان يدعى كادويا.

– كادويا؟ تعني النزل؟

– إنه نزل، وفيه أيضاً مطعم. إن أفضل وسيلة لإحراجه هي ضبطه بالجرم المشهود وهو يدخل إلى هناك برفقة الغيشا، وهناك ننقض عليه باللوم والتأنيب.

– نضبطه بالجرم المشهود؟ كيف؟ نراقبه؟

– تماماً. أتعرف النزل الذي يدعى ماسويا مقابل كادويا؟ حسناً، يمكنني استئجار غرفة في الطابق الثاني تطل على الطريق، وهناك أحفر ثقبا صغيراً في أحد القواطع الورقية وأراقب الجوار.

– هل تعتقد أنه سيحضر عندما تكون في مرصدك؟

– أعتقد ذلك. بالطبع، لن تكون ليلة واحدة كافية، بل أعطي نفسي مهلة أسبوعين أو ثلاثة.

– سيكون الأمر منهكاً! أذكر حين توفي والدي، سهرت عليه طوال أسبوع، وحين انتهى كل شيء، شعرت وكأنني مصاب بالخدر. ذلك الأسبوع استنفد قواي.

– بعض التعب لن يقضي عليّ. لن أخدم بلادي إن تركت سافلاً مثله حرّاً طليقاً. سوف أنصّب نفسي أداة العقاب الإلهي.

– رائع! إن نفّذت مشروعك، فسوف أساعدك. هل ستبدأ المراقبة الليلة؟

– لا، ليس الليلة. لم أتفق بعد مع نزل ماسويا.

– متى تتوقع بدء العملية إذاً؟

– في القريب العاجل. سوف أبلغك على أمل أن تساعدني عندما يحين الوقت.

– بالطبع، سأكون على استعداد للمساعدة في أي وقت. تدبير الخطط ليس من اختصاصي، لكن عندما تقع معركة، تجدني في غاية البراعة.

وبينما كنا نعمل أنا والشّيهم على تفاصيل الخطة، أطلّت السيدة هاجينو عند الباب وقالت «سيد هوتا، ثمة فتى من المدرسة يودّ التكلم

إليك، أليس كذلك؟ قال إنه ذهب إلى منزلك فلم يجدك وخطر له أنك قد تكون هنا فحضر للتثبّت من الأمر، أليس كذلك؟». ركعت عند باب الغرفة من باب التهذيب في انتظار جواب الشّيهم فقال لها «حسناً» وخرج إلى المدخل. حين عاد شرح لي أن التلميذ حضر يدعوه لمرافقته إلى احتفالات النصر. بات متلهّفا للذهاب بعدما علم بقدوم فرقة رقص من كوشي ستؤدي رقصة خاصة لا تتسنّى مشاهدتها في الأوقات العادية، وراح يلحّ عليّ كي أذهب أيضاً. لقد شاهدت الكثير من استعراضات الرقص في طوكيو حيث يقام مهرجان كبير كل سنة في المعبد المحلي فيرقص الناس على عربات تجوب الشوارع. كنت شاهدت رقصة جامعي الملح وكل ما تبقى ولم أكن مهتما برؤية مجموعة قرويين من كوشي يؤدون رقصة غبية، غير أن الشّيهم أصرّ على حضوري ففكرت في النهاية أن أذهب. تبين لاحقاً أن الفتى الذي حضر لدعوته كان تحديداً شقيق القميص الأحمر. أن يكون هو من بين كل تلاميذ المدرسة، إنها حقاً صدفة مريبة.

كان شريط السماء الممتد فوق ميدان الاستعراض يخفق بأعداد من الرايات واللافتات المنصوبة على سور طويل زرع في كل مكان، فذكّرتني الساحة بمسرح مباريات مصارعي السومو في معبد ايكو–إن أو بالاحتفالات البوذية الكبرى في معبد هونمون في

طوكيو. كانت أعلام ترفرف أيضاً على شبكة من الحبال الممدودة فوق رؤوسنا، أعلام بجميع الأشكال والألوان حتى بدا وكأنهم استقدموا لهذه المناسبة علماً من كل بلد من بلدان العالم. نصب عند الزاوية الشرقية من الساحة مسرح مؤقت ستجري عليه رقصة كوشي تلك، أياً كانت. وعلى مسافة حوالي خمسين متراً إلى يمين المسرح كان سياج من ستائر القصب يحيط بمعرض لباقات الأزهار. كان الجميع يتأمل تصاميم الباقات بإعجاب، في حين لم تكن تعني لي شيئاً على الإطلاق. إن كان مشهد رزمة من الأغصان أو قضبان الخيزران الملويّة يثير الإعجاب إلى هذا الحد، فلم لا نتباهى بعاشق أحدب أو زوج أعرج؟!

في الجهة المقابلة للمسرح كانت تطلق ألعاب نارية تصاعد من إحداها بالون طبعت عليه العبارة «تحيا اليابان» فهام فوق أشجار الصنوبر قرب القصر قبل أن يسقط داخل الثكنة العسكرية. سمعنا بعد ذلك دوياً وانطلقت سحابة سوداء على شكل كعكة كالسهم في السماء الخريفية وانفجرت فوق رأسي فانبجست منها أشرطة من الدخان الأزرق انفلشت في مظلة راحت تتبدد ببطء في الجو. بعد ذلك انطلق بالون ثان أحمر هذه المرة كتب عليه بأحرف بيضاء «يحيا الجيش والبحرية» قذفته الريح فتاه فوق الحمّام متجهاً إلى قرية أيوي. ربما سقط داخل معبد إلهة الرأفة.

لم يكن حفل الصباح قد لقي إقبالاً كبيراً، لكن أعداداً غفيرة تهافتت الآن إلى الاحتفالات. نظرت بذهول إلى الحشود التي كانت تغصّ بها الساحة. غير معقول كم يمكن لبلدة ريفية صغيرة أن تعجّ بالناس. معظمهم لم يكن يلفت النظر بعلامات ذكاء خاصة، لكن من الحماقة الاستخفاف بهذه الأعداد، ولو لمجرد حجمها. ثم حان وقت تلك الرقصة الشهيرة فاعتلت فرقة كوشي المسرح لمباشرة عرض يفترض أن يكون مثيراً للإعجاب. كنت تصوّرت أنهم سيرقصون رقصة عادية، أقرب إلى أسلوب مدرسة فوجيما أو إلى إحدى الرقصات المعروفة، لكنني كنت مخطئا تماماً.

وقف على المسرح ثلاثون راقصاً توزّعوا على ثلاثة صفوف وكان كل منهم يضع عصبة مربوطة خلف رأسه ويرتدي كيمونو وسروالاً فضفاضاً مربوطاً عند ركبتيه. ما أثار دهشتي أنهم كانوا يحملون سيوفاً سليلة. بالكاد كان نصف متر يفصل بين الصفوف كما بين الراقصين في كل صف. عند طرف المسرح وقف راقص وحيداً كان يرتدي كيمونو مثل باقي الفرقة غير أنه لم يكن معصوب الرأس، وبدل السيف كان يحمل فوق صدره طبلاً شبيهاً بطبول رقصة الأسد الصينية، معلّقاً بربطة حول عنقه. أعلن الراقص المتوحد بدء الرقصة مطلقاً صيحة بليدة «ياه! هاه!» ألحقها بغناء غريب رافقه بقرع إيقاع على الطبل «بادابوم! بادابوم!». كان النغم غامضاً لا

يشبه أي لحن سمعته حتى الآن. لن أخطئ إن وصفته بمزيج ما بين أغنيات رأس السنة الطريفة التي يرددها القوّالون والترانيم الحزينة التي ينشدها الحجاج البوذيون.

تواصلت الأغنية على وتيرة بطيئة خمولة وكان النغم متراخياً مثل كتلة من الهلام في يوم صيفي حار، لكن الطبّال كان يبقي على نوع من الإيقاع إذ يرافق كل جملة بقرعة «بادابوم». وعلى وقع الطبل، كانت سيوف الراقصين تشقّ الهواء بخفة ودقة لا متناهيتين في مشهد جعلني أتصبّب عرقاً. تصوروا ثلاثين راقصاً يلوّحون بسيوفهم السليلة بالتوازي والتزامن وكل منهم محاط من الجهات الأربع برجال من لحم ودم لا يبعدون عنه سوى نصف متر. فإن خرج أي منهم ولو بصورة طفيفة عن هذا التوقيت الدقيق، قد يجرح من حوله. لما كان الأمر بهذه الخطورة لماذا لم يكتفِ الراقصون بالوقوف في مواقعهم وهم يقطعون الهواء بسيوفهم إلى الأمام والخلف والأعلى والأسفل؟ غير أن الراقصين الثلاثين كانوا أيضاً يضربون الأرض بأرجلهم ويستديرون يميناً ويساراً أو يقومون بدورة كاملة على أنفسهم أو يركعون كلهم في حركة واحدة. لو سبق أي منهم الآخرين أو تأخّر عنهم ثانية واحدة، لطار أنفه أو قطع رأس جاره. كان كل سيف يتحرك بحرية ضمن المساحة الخاصة به، لكن هذه المساحة لم تكن تتجاوز دائرة ضيقة للغاية وكان يتعين أن

تأتي حركته مطابقة تماماً لاتجاه السيوف المحيطة به وسرعتها. كان هذا العرض اكتشافاً مدهشاً لا يمكن مقارنته بالرقصات المعهودة مثل رقصة جامعي الملح ورقصة البوابة. قيل لي إن هذه الرقصة تتطلب مهارة استثنائية وأن تعلّم تقنية ضبط توقيت الحركات على هذا النحو ليس بالأمر السهل. غير أن الأصعب على حد ما قيل لي، يبقى أداء تلك الأغنية العجيبة وقرع الطبل على الإيقاع. فأدنى حركة يقوم بها الراقصون الثلاثون، من ضرب أرجلهم أرضاً والتلويح بسيوفهم وفتل أوراكهم، إنما تتوقف كلياً على شيء واحد، هو الإيقاع الذي يضربه هذا الطبال. والغريب في الأمر أنه كان يتهيأ للمتفرّج أن ذلك الرجل هو الذي يبذل أقل مجهود في الفرقة وهو يطلق صيحاته كما يحلو له، لكنه كان في الواقع يتحمل أكبر مسؤولية ويتعيَّن عليه بذل كل ما في وسعه.

وبينما كنا أنا والشّيهم واقفين هناك مستغرقين كلياً في مشاهدة العرض، تصاعدت جلبة قوية وصيحات على مسافة حوالي خمسين متراً فتشتّتت الحشود التي كانت تتنقّل بهدوء بين مختلف العروض جماعات جماعات وراحت تفرّ يميناً ويساراً. صرخ أحدهم «إنه شجار، إنه شجار!» فظهر على الفور شقيق القميص الأحمر شاقّا طريقه بصعوبة وصاح «سيدي! إنهم يتعاركون مجدداً! تلاميذ المدرسة التكميلية ينتقمون من معهد المعلمين عما جرى هذا

الصباح! لقد بدأوا عراكاً بالأيدي لتسوية المسألة نهائياً! يجب أن تأتي حالاً!» ثم توارى في المدّ البشري.

قال الشّيهم «ماذا؟ يعاودون الكرة؟ المتاعب، هذا كل ما يتأتى عن هؤلاء المزعجين! طفح الكيل!» وانطلق كالبرق متحاشياً الاصطدام بالحشود التي كانت تهرب من الساحة. لا بد أنه قرر أنه لا يمكنه الوقوف مكتوف الأيدي في أثناء الشجار. لم أكن أنا نفسي أعتزم التهرب فهرولت في أعقابه. حين وصلنا إلى مكان الواقعة، كان العراك على أشدّه. كان هناك نحو خمسين أو ستين طالباً من معهد المعلمين، مقابل عدد يفوقهم بالثلث من طلاب المدرسة التكميلية. كان من السهل التمييز ما بين المجموعتين إذ إن طلاب المعهد لايزالون في بدلاتهم، في حين بدّل معظم تلاميذ التكميلي ثيابهم بعد الحفل وارتدوا الكيمونو. غير أنهم كانوا متشابكين، يتشبثون ويتفلّتون مداورة، إلى حد لم أعد أعرف كيف أتصرف ولا من أين أبدأ لتفريقهم عن بعضهم البعض. وقف الشّيهم لبرهة يراقب هذه الفوضى العارمة مقطّب الوجه، ثم استدار صوبي وقال «لا خيار أمامنا الآن. لا نريد أن ترى الشرطة هذا المشهد. علينا التوسّط بينهم وفضّهم!». عند سماع هذه الكلمات، رميت نفسي دون التفوه بكلمة في ما بدا لي قلب المعركة. «توقفوا، توقفوا! هذا عار على المدرسة! أوقفوا المعركة! هذا أمر!» كنت أصيح ملء رئتيّ محاولاً

الوصول إلى خط المعركة الأمامي، لكن الأمر لم يكن سهلاً. بالكاد تقدّمت مترين أو ثلاثة أمتار حتى وجدت نفسي محاصراً تماماً، عاجزاً عن القيام بخطوة واحدة. كان أمامي فتى كبير من طلاب معهد المعلمين يتصارع مع ولد من المدرسة في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر. صرخت «عليكم التوقف! توقفوا حالاً!» وقبضت على الطالب من كتفيه محاولاً تنحيته، لكن في هذه اللحظة أمسكني أحد ما من ساقيّ وأفقدني توازني. أفلتت كتفيّ الفتى وهويت جانباً. قفز أحدهم على ظهري بنعلين قاسيين فنهضت متكئاً على يديّ وركبتيّ وطرحت الشاب جانباً إلى يميني. وقفت مجدداً ورأيت الشّيهم على مسافة حوالي خمسة أمتار محاصراً وسط حشود الطلاب يصيح «توقفوا! أوقفوا العراك حالاً!» في حين تأرجح جسده الضخم في كل الاتجاهات وسط التدافع. صرخت «اسمع! هذا لا ينفع!» لكنه لم يسمعني.

أزّ حجر فجأة في الهواء وأصابني في أعلى خدّي. وفي الوقت نفسه ناولني أحد من الخلف ضربة قوية بالعصا على ظهري. سمعت صوتاً يزعق «اضربوه! اضربوه! ما دخل أستاذ في هذه المسألة؟» وقال آخر «إنهما اثنان، واحد طويل القامة والآخر صغير. حجّروهم!» صرخت بهم «قرويون أغبياء! من تخالون أنفسكم؟» وسدّدت لكمة في وجه أحد طلاب معهد المعلمين كان قريباً مني.

سقط حجر آخر لكنه هذه المرة لم يصبني بل أحسست به يئز وهو يعبر إلى جانب رأسي ويكمل طريقه من خلفي. لم أكن أدري ما حلّ بالشّيهم. لم يعد أمامنا أي خيار. حين اندفعت في بادئ الأمر داخل الحشد، كان بنيّتي أن أفضّ العراك، لكنني الآن وقد تعرضت للضرب بالعصا والرشق بالحجارة، لن أتخاذل وأتراجع كالجبناء. صرخت «هل تعلمون مع من تتعاطون؟ قد أكون صغير القامة، لكنني تعلمت القتال في طوكيو، منبت المقاتلين الحقيقيين». بعد صيحة الحرب هذه، انقضضت عليهم بجنون مسدّداً ضربات في كل الاتّجاهات ومتلقياً ضربات بدوري، إلى أن سمعت صيحة «الشرطة! إنها الشرطة!»حتى تلك اللحظة كنت أجد صعوبة لا توصف في التحرك وسط هذا الحشد المتراصّ المتشابك وكأنّني أحاول التقدّم وسط عجين دبق، وفجأة تخلخلت الأمور ورأيت الجميع من أعداء وأصدقاء على السواء، يهرعون في كل الاتجاهات للهرب. قد يكونون مجرد قرويين، لكن حين تصل الأمور إلى الفرار، فهم أسياد الموقف حقاً. حتى خبير محترف في الفرار مثل الجنرال كوروباتكين[1] يمكنه الإفادة من مهاراتهم على هذا الصعيد.

نظرت من حولي بحثاً عن الشّيهم فوجدته أمامي يمسح أنفه،

(1) الجنرال أليكسي نيكولايفيتش كوروباتكين (1848–1925) جنرال روسي يعتبر مسؤولاً عن هزائم روسية كبرى في الحرب الروسية واليابانية ولا سيما في معركتي لياويانغ وموكدن.

ورداؤه الحرير الذي يحمل رمز عائلته مطرزاً عليه ممزق. قال لي إن أحدهم لكمه على أنفه فراح منذ ذلك الحين ينزف بغزارة. كان منظر أنفه الأحمر المتورم أليماً. لم أكن أرتدي كيمونو رسمياً كالشّيهم، وعلى الرغم من أنه بات ملطّخاً بالوحل، لم يكن الضرر فادحاً كخسارة كيمونو زميلي. كان خدّي يؤلمني بشدة وقال الشّيهم إنه ينزف.

وصلت فرقة من خمسة عشر أو ستة عشر شرطياً إلى الساحة فلم يقبضوا فيها سوى علينا أنا والشّيهم وقد فرّ الجميع من الجهة المقابلة. وبعدما عرفنا بنفسينا وقدّمنا لهم تقريراً مفصّلاً عن الحادث، قالوا لنا إنه يجدر بنا الذهاب إلى مركز الشرطة، وهناك قدّمنا إفادة بحضور قائد المركز، ثم عاد كلّ منّا إلى منزله.

الفصل الحادي عشر

عندما استيقظت في اليوم التالي، كنت أعاني من آلام لا تطاق في كامل أنحاء جسدي. لا شكّ أنني لم أدخل في عراك منذ فترة، ما جعلني أفقد مرونتي. بقيت ممدداً في الفراش أفكر بأنه لم يعد بوسعي الآن التباهي بقدراتي القتالية، حين دخلت السيدة هاجينو حاملة صحيفة شيكوكو نيوز ووضعتها قرب وسادتي. لم تكن لدي أيّ رغبة في إلقاء نظرة عليها، لكنني قلت لنفسي إنني لن أكون رجلاً إن تركت أمراً تافهاً كهذا يقضي على عزيمتي، فاستجمعت قواي واستدرت متمدداً على بطني وبدأت قراءة الصحيفة. حين قلبت الصفحة الأولى تسمّرت مصعوقاً إذ وقعت عيناي على مقالة عن معركة الليلة الماضية. لم تكن المقالة بحدّ ذاتها هي المفاجأة، بل ما تضمنه التقرير عن «أستاذين في المدرسة التكميلية، المدعو السيد هوتا وشاب غرّ دخيل وصل حديثاً من طوكيو، لم يكتفيا بتأجيج الشّجار من خلال تحريض التلاميذ الأبرياء، بل وصلا إلى حدّ

ارتكاب أعمال عنف غير مبررة وغير متوازنة ضد طلاب معهد المعلمين». وتابعت المقالة عارضة التقرير التالي:

«لطالما كانت مدرستنا التكميلية المحلية معروفة بنوعية تعليمها الرفيعة وسلوك تلاميذها النموذجي، ولطالما كانت تحسد في جميع أرجاء البلاد على سمعتها الطيبة. غير أن تصرّف هذا الزوج الأرعن وغير المتبصّر أساء إلى اسم مدرستنا وجلب العار إلى بلدتنا بكاملها. من واجبنا في مثل هذه الظروف أن نطالب بمحاسبة الأطراف المسؤولة بأكبر قدر من الصرامة. ولنا كامل الثقة بأن السلطات المختصة ستتولى المسألة قبل أن نفعل بأنفسنا، فتتّخذ الإجراءات التأديبية الملائمة بحق مثيري الشغب الاثنين وتتثبّت من أنه لن يسمح لهما بعد اليوم بالمشاركة في أي نشاطات تربوية».

كان كل حرف من أحرف المقالة ترافقه نقطة سوداء للتشديد على ما ورد فيها، وكأنهم يحاولون تسوية المسألة بعلاج الوخز بالإبر. وثبت من الفراش وأنا ألعن الصحيفة والصحافيين. تبدّدت فجأة كلّ آلام مفاصلي وكأنها تحلحلت بشكل سحري.

دعكت الصحيفة حتى أصبحت أشبه بكرة ورميتها في الحديقة، لكنّ ذلك لم يشف غليلي. خرجت ولممتها من جديد ورميتها في المرحاض. تلك الصحف نسيج من الأكاذيب الفاضحة على أنواعها. إن كنت تتساءل أين يمكنك العثور على أكبر قدر من النفاق

في العالم، فاذهب مباشرة إلى صحيفة. ها هم يعرضون على الناس روايتهم لقصة كان ينبغي أن أخبرها بنفسي، ثم يشيرون إليّ بعبارة «شاب غرّ دخيل وصل حديثاً من طوكيو»... من يظنون أنفسهم؟ هل من أحد على وجه الأرض يدعى «شاب غرّ»، سواء أكان دخيلاً أم لا؟ استخدموا عقولكم، مهما اردتم قوله عني فأنا لديّ اسم كامل ولائق، وإن أردتم معرفته، سيكون من دواعي سروري أن أعرض عليكم شجرة عائلتي بالكامل وأرتقي بها وصولاً إلى ميناموتو نو ميتسوناكا.

حين غسلت وجهي، شعرت فجأة بوخز أليم في خدّي. طلبت من السيدة هاجينو أن تعيرني مرآة وحين جلبتها لي سألتني إن كنت قرأت الصحيفة. أجبتها أنني قرأتها ثم رميتها في المرحاض، وأنها إن كانت تريد قراءتها، عليها انتشالها من هناك بنفسها. ذهلت لردي وخرجت. نظرت إلى وجهي في المرآة فرأيته لا يزال يحمل كدمات الليلة الماضية. لا آبه مهما قلتم عن وجهي، فإنني أعلّق أهمية كبيرة عليه. أن أنتهي بوجه كهذا، فضلاً عن نعتي بـ«شاب دخيل»، فهذا يتخطى قدرتي على الاحتمال.

إن تركت تلك الصحيفة ترهبني وبقيت طوال النهار مختبئاً في غرفتي، فلن أتمكن من تجاوز المسألة. لذلك، ما إن انتهيت من تناول الفطور، حتى خرجت مسرعاً ووصلت إلى المدرسة قبل الجميع.

حين وصل الأساتذة الآخرون الواحد تلو الآخر، كانت ابتسامة ترتسم على ملامحهم حين يرون وجهي. تساءلت في نفسي أين الطرافة في الأمر؟ فالذي على وجهي ليس من فعل أي منهم أساساً. بعد وقت وصل العليق فقال وهو يضحك ساخراً «كان إنجازاً حقيقياً ليلة أمس. وتلك الكدمات هي على ما أعتقد أوسمة الشرف التي نلتها!» قد يكون بذلك ينتقم للّكمة التي سدّدتها له في حفل وداع القرع. أجبته «دعك مني. اذهب واهتمّ بفراشيك». لم يأبه وتابع «اعذرني، لكن لا بد أنك تشعر بألم فظيع على ما أعتقد». ختمت الحديث بغضب «سواء أكان أليماً أم لا، هذا وجهي وهذا شأني. ما دخلك أنت؟» أكمل طريقه وجلس خلف مكتبه لكنه ظل يرمقني بنظرات ساخرة ويضحك وهو يهمس شيئاً ما في أذن أستاذ التاريخ الجالس إلى جانبه.

لم يتأخر الشّيهم في الوصول بدوره. كان أنفه أرجوانياً ومتورماً وكأن القيح سيخرج منه إن ضغطت عليه. تهيأ لي أن وضعه أسوأ من وضعي، لكن هذا الانطباع قد يكون مجرد غرور من جانبي. شاءت الصدفة أن يكون مكتبانا جنباً إلى جنب فبدونا خلفهما أشبه بتوأمين مشوّومين. ولسوء حظنا، كان المكتبان مواجهين للباب، ولا بد أن منظر سحنتينا هناك في صدر القاعة كان مشهداً عجيباً. وكلما كان أحد الأساتذة يشعر بالضجر ولا يدري ماذا يفعل، كان

يتجه بأنظاره إلينا. وإن كانت شفاههم تقول «أمر مؤسف حقاً!»، فإنني واثق بأنهم كانوا يفكرون في نفوسهم «يا لهما من معتوهين!» وإلا، لما كانوا تهامسوا وقهقهوا كما يفعلون. حين دخلت الصف، استقبلني التلاميذ بالتصفيق وهتف اثنان أو ثلاثة «يحيا أستاذنا!» لم أدر ما إذا كانوا صادقين أو يتحاذقون. وسط كل هذا الانفعال، كان القميص الأحمر الوحيد الذي تصرف معنا كعادته تماماً. اقترب منا وقال «يا له من حظ عاثر!». ثم أضاف وكأنما للاعتذار «إنني متأسف حقاً! وقد ناقشت تلك المقالة في الصحيفة مع المدير وقدّمنا طلباً رسمياً لإصدار تصويب، لا تقلقا! كل ما حصل كان أساساً نتيجة دعوة شقيقي للسيد هوتا، ولا يسعني بالتالي إلّا أن أعبر لكما عن مدى أسفي. إنني مصمم كلّ التصميم على بذل كل ما في وسعي لتصحيح الأمور، وأرجو منكما ألا تعتبراني مسؤولاً».
كنا في الحصة الثالثة حين خرج المدير من مكتبه قلقاً وأعلن أن مقالة الصحيفة أثارت مشكلة بالتأكيد وأنه يأمل ألا تكون العواقب وخيمة. شخصياً، لم أكن قلقا البتة، وإن أرادوا صرفي من عملي، فسوف أستبق قرارهم وأبادر إلى تقديم استقالتي. لكنني لم أرتكب أي خطأ، والتنازل في هذا الوضع سيجعل أولئك المنافقين في الصحيفة يخرجون مزهوّين. كنت واثقاً بأنه من الأنسب التشبّث والبقاء في منصبي وإرغام الصحيفة على نشر تصويب. خطر لي أن

أعرّج على الصحيفة في طريق العودة إلى غرفتي لعرض قضيتي، لكنني بدّلت رأيي بعدما علمت أن المدرسة طلبت منهم سحب ادّعاءاتهم.

اغتنمنا أنا والشّيهم لحظات بين الحصص الدراسية، لم يكن المدير والقميص الأحمر منشغلين خلالها لنروي لهما ما حصل فعلاً. أبديا تعاطفاً واعتبرا أن الصحافيين نشروا قصة كهذه لنقمة ما يضمرونها في نفوسهم على المدرسة. ثم جال القميص الأحمر على جميع الأساتذة في قاعة المعلمين الواحد تلو الآخر، مدافعاً عن سلوكنا ومعلناً أنه يتحمل شخصياً المسؤولية إذ إن شقيقه هو الذي طلب من الشّيهم مرافقته إلى الحفل. اتّفق الجميع على أن الصحيفة هي التي أخطأت وأنّ موقفها لا يبرر، وأجمعوا على أننا الضحيتان الحقيقيتان في الحادث.

كنت أهمّ بمغادرة المدرسة بعد انتهاء الصفوف حين أخذني الشّيهم على انفراد وحذّرني من أمر ما مريب في موقف القميص الأحمر وأنه قد يوقع بنا إن لم نحترس. أجبته «أعرف، كان سلوكه مريباً منذ البداية. لا يمكن أن يصبح ودوداً حيالنا بين ليلة وضحاها». لكنّ الشّيهم قال إنني لم أفهم قصده: فالإصرار على دعوتنا إلى الاحتفال ثم إقحامنا في الشجار هو جزء من خطّة دبّرت لنا. لم يكن هذا قد خطر في بالي، لكنه بات الآن واضحاً جلياً. قد يبدو الشّيهم

همجياً، غير أنني معجب بذهنه المتّقد، أقر له بذلك.

– يقحمنا في الشجار أوّلاً، ثم يذهب مباشرة إلى الصحيفة ويقنعهم بنقل تلك القصة. هذا الرجل داهية، أؤكد لك ذلك.

– إذاً المقالة أيضاً كان هو خلفها؟ غير معقول! لكن كيف يأخذ الصحافيون بأي شيء يقوله لهم مهما كان؟

– ولم لا؟ لا عجب في ذلك إن كان لديه صديق بين العاملين هناك.

– لكن هل له فعلاً صديق في الصحيفة؟

– ربما لا، لكن لا فرق. يمكنهم نشر أي شيء، أي أكاذيب، طالما يتهيّأ لهم أنك واثق بما تقوله وأنك تروي لهم قصتك بصدق ظاهري.

– هذا فظيع! إن كانت المسألة برمتها مجرد فخ نصبه لنا القميص الأحمر، فقد ينتهي الأمر بطردنا من المدرسة!

– قد يحصل هذا إن اتّخذت المسألة منحى سيئاً.

– حسناً، في هذه الحالة، سوف أقدّم استقالتي غداً وأعود إلى طوكيو. لن أبقى في هذا المكان القذر حتى لو توسّلوا إليّ.

– هذا لن يطرح أي مشكلة بالنسبة للقميص الأحمر.

– صحيح. ما الذي يمكن أن يطرح له مشكلة فعليّة؟

– السافلون أمثاله يحرصون دائماً على عدم ترك أي أدلّة خلفهم

مهما فعلوا، ولن يكون من السهل النيل منه.

– إنها معضلة. وفي نهاية المطاف، سنبدو وكأننا نلفّق اتّهامات زائفة.

– مهما يكن، دعنا ننتظر يومين أو ثلاثة لنرى ما سيجري. وإن حصل الأسوأ، أظن أنه لن يكون أمامنا من مخرج سوى أن نضبطه عند الحمّام.

– ألن نحاول القيام بشيء بشأن الصحيفة؟

– لا، دعنا بدل ذلك نهاجمه ونضربه في نقطة ضعفه.

– فكرة جيدة. سأترك الأمر لك، لأنني عديم الفائدة تماماً حين يتعلق الأمر بوضع استراتيجيّة. لكن حين تحتاج إليّ، سأكون على استعداد للقيام بأي شيء.

افترقنا على هذه الخطّة. إن صحّت شكوك الشّيهم، فهذا سيعني أن القميص الأحمر هو بالتأكيد أكبر نذل في العالم. ليس من صنف البشر الذين يمكن التغلب عليهم بالذكاء. وحدها القوة الجسدية الوحشية يمكن أن تجدي نفعاً معه. لا عجب أن تكون الحروب تندلع في العالم. فالعنف هو ما يحسم الموقف في النهاية، حتى على الصعيد الشخصي.

انتظرت بفارغ الصبر صدور الصحيفة في اليوم التالي، لكنها لم تتضمّن أيّ تصويب، ولا حتى رواية مصححة للحادث. سألت

الغرير عن الأمر في المدرسة، فقال إنهم سينشرون تصحيحاً ما في اليوم التالي على الأرجح. وهذا ما حصل، فقد تضمنت الصحيفة في اليوم التالي تصويباً، ولكن بأصغر خط ممكن. وبالطبع، لم تكن هناك أدنى محاولة لنقل رواية مصححة. حاولت عرض وجهة نظري مجدداً للمدير، لكنّه قال هذه المرة إنه لم يعد بوسعه القيام بأي مسعى آخر. قد يخدعك وجه الغرير ذاك وتأنق ملابسه، لكنك تفاجأ بقلّة نفوذه في الواقع. لا يمكنه حتى إرغام صحيفة محلية ريفية على الاعتذار عن نشرها نسيجاً من الأكاذيب! ضقت ذرعاً وأعلنت له أنني سأقصد الصحيفة وأرفع بنفسي احتجاجاً رسمياً إلى رئيس التحرير، لكنّ الغرير اتّخذ نبرة راهب بوذي يحاضر في الزهد ليؤكد لي أن الأمر لن يجدي نفعاً. «إن اشتكيت، فسوف ينشرون مقالة جديدة يهشّمونك فيها هذه المرة. الواقع أنه حين تصدر مقالة عنك في الصحيفة، لا يعود بوسعك القيام بأي شيء حيالها، سواء أكانت صحيحة أم لا. فالأفضل أن تتعايش معها».
إن كانت تلك هي الحال حقاً، فسوف يكون العالم أفضل وضعاً إن أغلقت الصحف كلها، وفي أقرب ما يكون. أدركت بفضل حديثي مع الغرير أن التعرض لهجمة صحيفة أشبه بالتعرض لعضة سلحفاة نهّاشة: كلاهما يتشبّث بضحيّته ولا يفلتها.

بعد مرور ثلاثة أيام، زارني الشّيهم بعد الظهر. كان ساخطاً وأعلن

لي أن الوقت حان أخيراً لتنفيذ خطته، فأعربت له عن استعدادي للانضمام إليه حالاً في رابطة الصالحين، لكنه هز رأسه ونصحني بعدم التدخل. استفهمت عن السبب فسألني إن كان المدير استدعاني وطلب مني تقديم رسالة استقالتي. قلت «لا وأنت؟» فأخبرني أنه تم إبلاغه في وقت سابق من النهار في مكتب المدير بأنه نظراً إلى ظروف قاهرة، فإن المدرسة مضطرة للأسف لأن تطلب منه التنحّي من منصبه. أذهلني الأمر.

– أي عدالة هذه؟ لا شكّ أن الغرير سقط على رأسه من شدة ما انحنى أرضاً للاسترضاء والتزلّف. لقد ذهبنا معاً إلى احتفالات النصر، وشاهدنا معاً هؤلاء الراقصين يلوحون بسيوفهم، أليس كذلك؟ وحاولنا معاً وقف الشجار، ألم نفعل؟ إن كان يطلب منك الاستقالة، فلا بد أن يطلب مني الأمر نفسه، فهذا يكون عدلاً. لماذا تفتقر تلك المدارس الريفية للمنطق إلى هذا الحد؟ سوف أفقد صوابي.

– لا بد أن القيمص الأحمر خلف المسألة برمّتها. بعد كلّ ما حصل حتى الآن، لم تعد هذه المدرسة تتسع لكلينا، لكنه يتصوّر أن في وسعه إبقاءك هنا لأنك لن تشكل خطراً عليه.

– المدرسة لا تتسع لي وللقميص الأحمر معاً. إذا يعتقد أنني لا أشكل خطراً عليه؟ إنه مغرور حقاً.

– لا شك أنه يقول لنفسه إنك بسيط للغاية ويمكنه إبقاؤك في الجوار والتلاعب بك في أي وقت يشاء.

– هذا أسوأ! لا يعقل بعد ذلك أن أعمل معه في المكان ذاته!

– هل لاحظت أيضاً أن الأستاذ الذي وظّفوه محل كوغا لم يصل بعد لسبب ما؟ ولو تخلّصوا من كلينا الآن، لن يكون لديهم ما يكفي من الأساتذة لتأمين جميع الصفوف، إذا...

– هكذا إذاً! يعتقدون أن في وسعهم الاحتفاظ بي لملء الفراغ؟ ليذهبوا إلى الجحيم! لن أدعهم يحققون ما يريدون!

حين ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي، توجّهت مباشرة إلى مكتب المدير وقلت له «أودّ أن أعرف لماذا طلبت استقالتي». بدا مذهولاً وسأل «ماذا؟».

– ما معنى أن تطلب من هوتا الاستقالة، وليس مني؟

– للمدرسة مبرراتها.

– حسناً، هذه المبررات خاطئة. إن لم يكن هناك من داع لاستقالتي، فهذا يعني أن لا داعي أيضاً لاستقالة هوتا.

– هذه مسألة يصعب تفسيرها، لكن... لنقل أن رحيل هوتا أمر لا يمكن تفاديه، لكنني لا أرى أي مبرر يلزمك بأن تحذو حذوه.

هذا هو الغرير بخبثه ومكره، يجلس هناك بهدوء مسيطراً على الوضع فيما يغرقك في سيل من الأكاذيب والنفاق. لقد كبلني

بحججه، فقررت تسديد ضربتي.

– في هذه الحالة، فإنني أقدم استقالتي أيضاً. ربما تظن أنك إن دفعت هوتا إلى الاستقالة، فإنني سأتقبل الأمر وأواصل العمل، لكنّني لن أخذله بهذه الطريقة.

– هذا سيطرح مشكلة. إن تركت وظيفتك مع هوتا، لن يعود هناك أحد في المدرسة لتولي صفوف الرياضيات.

– هذه مشكلتك، وليست مشكلتي أنا.

– لا تكن أنانياً إلى هذا الحد. عليك أن تفكّر قليلاً بمصلحة المدرسة. ثم إن استقلت بعد أقلّ من شهر على تعيينك، كيف سيبدو ذلك في سجلك؟ يجدر بك التفكير قليلاً في هذه النقطة أيضاً.

– لا يهمّني سجلي، ما يهمّني هو القيام بما هو صحيح وعادل.

– حسناً، أوافقك الرأي بهذا الشأن. الواقع أنك على حق في كل ما قلته. لكن أرجو منك أن تعير بعض الاهتمام لما سأقوله لك: إن تمسّكت بالاستقالة، فليكن، لكن آمل أن تبقى على الأقل إلى حين يتسنّى لنا العثور على أستاذ آخر. في مطلق الأحوال، أرجو منك أن تعود إلى المنزل وتفكر في الأمر مجدداً.

لم يكن هناك ما يمكن أن أفكر فيه، فسبب استقالتي واضح كنور الشمس. لكنّ رؤية الغرير يشحب لونه ثم يحمرّ فيشحب من جديد، بعث في نفسي إحساساً بالشفقة، فقلت له إنني سأفكّر في

الأمر مجدّداً وخرجت. لم أقصد القميص الأحمر للتكلّم معه. إن كنا مصمّمين على الانقضاض عليه، فلتكن إذاً حرب شاملة.

حين أطلعت الشّيهم على فحوى حديثي مع المدير، قال إن هذا ما كان يتوقّعه منه وإنه من الأفضل أن أتريّث في تقديم استقالتي في انتظار أن يحين الوقت المناسب. فعلت كما قال. فهو بدا لي أكثر دهاء مني وكنت على استعداد لترك كل القرارات له.

قدم الشّيهم استقالته، ودّع جميع المعلمين واستأجر غرفة في فندق ميناتويا عند الميناء في أسفل المدينة. لكنه انتقل خلسة بعد ذلك إلى منطقة المنتجع واختبأ في غرفة في الطابق الثاني من فندق ماسويا تطلّ على الطريق. وهناك، حفر ثقباً في أحد القواطع الورقية وباشر المراقبة. لم يكن أحد سواي على علم بما يقوم به على ما أظنّ. إن كان القميص الأحمر سيمرّ في الشارع، فلا بدّ أن يكون ذلك خلال الليل، وتحديداً بعد الساعة التاسعة، خشية أن يصادف أحداً أو ربما تلميذاً إن قدم في وقت أبكر. بقيت مع الشّيهم حتى الساعة الحادية عشرة خلال الليلتين الأوليين، لكننا لم نر أثراً له. وفي الليلة الثالثة، راقبت الشارع معه حتى العاشرة والنصف، ولم يأت. لا يمكن تصور إحساس الغباء الذي ينتابك وأنت عائد وسط الليل إلى النزل بعد ليلة جديدة من الانتظار الخائب. وبعد مضي أربع أو خمس ليال، بدأت السيّدة هاجينو تشعر بالقلق، وحذّرتني من أنه لا يليق بشاب

متزوج أن يقضي لياليه متسكّعا في المدينة. بالطبع، لم يكن مفهومها للسّهر في المدينة ينطبق على ما كنت أقوم به في تلك الليالي التي نصّبت نفسي فيها أداة للعقاب الإلهي. في مطلق الأحوال، لم يكن من الممتع التنقّل على هذا النحو بين المنزل ومخبئنا السرّي طوال أسبوع كامل دون التوصّل إلى أي نتيجة ملموسة. لا مانع لديّ أن أسهر طوال اللّيل على مهمة ما إن كنت متحمّسا لها، بل إن أطباعي المندفعة تساعدني على ذلك، لكنّ حماستي هذه لا تدوم طويلاً، حتى ولو كنت وسيطاً لعقاب إلهي. مع حلول الليلة السادسة، بدأت أشعر بالسأم. وفي الليلة السابعة، فكّرت في الانسحاب من المشروع. الشّيهم من جانبه، كشف عن مدى تعنّته ومثابرته، فكان يبدأ المراقبة في ساعة مبكرة من المساء ويبقى مسمّراً في موقعه خلف الثقب في القطاع الورقي حتى ما بعد منتصف الليل، محدّقا في مدخل كادويا المضاء بمصباح في الجهة المقابلة من الشارع. ما كان يدهشني أكثر من ذلك هو أنه كان يعرض عليّ حين أزوره قائمة مفصّلة بعدد الأشخاص الذين دخلوا فندق كادويا في ذلك اليوم، كم منهم سيقضي الليل هناك، وعدد النساء بينهم، وإلى ما هنالك من أرقام دقيقة. وحين أقول له «يبدو أنه لن يأتي، ألا تعتقد ذلك؟» كان أحياناً يكتف ذراعيه مطلقاً آهة طفيفة ويردّ «إنني واثق بأنه سيأتي عاجلاً أم آجلاً، لكن..». مسكين الشّيهم! إن لم يظهر

القميص الأحمر، فلن يتسنّى له تحقيق مهمته الإلهية.

في الليلة الثامنة، غادرت المنزل قرابة السابعة، قصدت المنتجع حيث استرخيت طويلاً في حمّام ساخن وفي طريق العودة، ابتعت ثماني بيضات لتحصين نفسي ضد الحملة التي تشنها السيدة هاجينو عليّ بالبطاطا الحلوة. وزّعت البيض على جيبي كمّيّ وصعدت أدراج الفندق حتى الطابق الثاني مخبّئاً يديّ داخل ردائي، ومنشفتي المعهودة متدلّية على كتفي. ما إن دفعت باب غرفة الشّيهم حتى أحسست على الفور بانفعال في الجو. فوجهه الشبيه بضراوته بوجه الإلهة الحارسة إيداتا استعاد فجأة اتّقاده القديم بعدما كدّره الغم في الآونة الأخيرة حتى أن مجرد الاقتراب منه كان يبعث فيّ الإحباط. حين رأيت تعابير ملامحه في تلك الليلة ارتفعت معنوياتي وقبل أن يتسنى له حتى أن يشرح لي أي شيء أطلقت صيحة ابتهاج.

– في حوالي السابعة والنصف مساء دخلت تلك الغيشا كوسوزو الفندق.

– مع القميص الأحمر؟

– لا، دونه.

– هذا ليس نبأ ساراً، أم أنني مخطئ؟

– لكنّها كانت برفقة غيشا أخرى. لديّ إحساس جيّد تجاه الأمر، لا يمكنني شرحه.

– لماذا؟

– لماذا؟ تعرف كم أنّه محتال كالثّعلب. ربما أرسل الفتاتين أولاً للتثبّت من الوضع، على أن ينسلّ لاحقاً إلى الفندق.

– هذا ممكن. الساعة الآن تجاوزت التاسعة، أليس كذلك؟

أخرج من حزام ردائه ساعة جيبه المطليّة بالنيكل وأجاب:

– التاسعة والنصف تماماً. من الأفضل أن نطفئ المصباح. قد تساوره شكوك إن رأى ظلّين بشعر قصير يرتسمان على الفاصل هنا. تعلم كم أن الثّعالب شديدة الارتياب.

أطفأت المصباح على الطاولة. كانت النجوم تبعث نوراً شاحباً يتسلّل إلى الغرفة من القواطع الورقية. لم يكن القمر طلع بعد. ألصقنا أنا والشّيهم وجهينا بالنافذة وحبسنا أنفاسنا. كان بوسعنا سماع ساعة الجدار في الطابق السفلي تدقّ التاسعة والنصف.

– أتراه يأتي فعلاً الليلة؟ إن لم يفعل، فسوف أستسلم.

– إنني مصمم على البقاء هنا إلى أن تنفد نقودي.

– كم تبقّى لديك؟

– دفعت لهم حتى الآن خمسة ينات وستين سناً بدل ثماني ليال. إنني أدفع باللّيلة حتى أتمكّن من الرحيل متى أشاء.

– فكرة جيدة. لا شكّ أن العاملين في النزل يستغربون أمرك.

– لا، لا يهمهم. المشكلة الحقيقية أنه عليّ البقاء متحفّزاً طوال

الوقت دون التراخي لحظة.

– ألا تنام خلال النهار؟

– بلى، أنام، لكن لا يمكنني الخروج إطلاقاً. سوف أصاب بالجنون في هذه الغرفة طوال النهار.

– من قال إن إنزال العقاب الإلهي مهمة سهلة؟ لكن إن سمحنا له الآن بالإفلات من عيون الشبكة، فسيكون ذلك مؤسفاً حقاً.

– لا، أنا واثق بأنه سيأتي الليلة... انظر، انظر!

تلك الكلمات الأخيرة التي خرجت من فمه همساً خطفت أنفاسي. كان هناك رجل يعتمر قبّعة سوداء يقف محدّقا بالمصباح فوق مدخل كادويا، ثم توارى في العتمة. لم يكن القميص الأحمر للأسف. بعد قليل دقّت الساعة في الطابق السفلي العاشرة، غير آبهة بنا. لم يبد لي أن تلك الليلة ستكون ليلتنا.

عاد الهدوء ولفّ الصمت المكان. كان قرع طبل يتصاعد من منطقة المواخير، فيصل إلينا بوضوح حتى أنه يتهيأ لنا أننا سنلمسه إن مددنا يدنا. أطلّ القمر من خلف التّلال المحيطة بالمنتجع فأضاء نوره الشارع. سمعنا فجأة أصواتا في البعيد. لم يكن بوسعنا مدّ رأسينا لتمييز القادمين، لكن الأصوات راحت تقترب. سمعنا بوضوح طقطقة صنادل خشبية في الشارع. استرقنا النظر مواربة من الثّقب

فلمحنا أخيراً ظلين قريبين.

«سيكون كل شيء على ما يرام الآن بعدما تخلصنا منه». لا مجال للشك، ذلك الصوت الذي لا مثيل له كان صوت العلّيق.

«كان مجرّد قوة دون أي ذكاء. ماذا تتوقع من شخص كهذا؟» كان هذا ردّ القميص الأحمر.

– اما الآخر، فهو خير نموذج عن أبناء طوكيو. ما زال شاباً صغيراً، لكنه سليط اللسان... شخص طريف، ألا تعتقد ذلك؟

– يرفض العلاوة ويصرّ على تقديم استقالته... لا بد أنه مختلّ، إنني واثق بذلك.

بالكاد تمالكت نفسي عن القفز من الطابق الثاني وتلقين الاثنين على الفور درساً لن ينسياه. قهقها بالضحك وأضاءهما المصباح وهما يدخلان كادويا.

– ممتاز!

– أجل، ممتاز!

– ها هما هنا!

– أخيراً!

– اطمأن بالي الآن.

– هل سمعتهما؟ ما زال شاباً صغيراً لكنه سليط اللسان... ابن الـ...

– وأنا كنت أقف في طريقهما. أمر مشين حقاً!

كان علينا أن نباغتهما لدى خروجهما. لكن متى عساهما يخرجان؟ نزل الشّيهم إلى المدخل وأبلغ الرجل عند مكتب الاستقبال بأنه قد يضطرّ إلى الخروج لقضاء عمل في ساعة متأخرة من الليل، طالباً منه ألا يوصد الباب. يبدو لي من المدهش حين أسترجع الأمر الآن بعد مضيّ الوقت، أن يكونوا وافقوا على السماح لنا بالخروج في وقت متأخر. فقد نكون لصّين يخرجان لسلب منزل ما! لا شك أن الحظ حالفنا.

لم يكن من السّهل أن نقبع في الغرفة في انتظار اللحظة التي سيأتي فيها القميص الأحمر، لكن انتظار لحظة خروجه من هناك كان أصعب. كان علينا أن نبقي انتباهنا مشدوداً ولا نسهو في لحظة نعاس، وفي الوقت نفسه كان من المؤلم إبقاء وجهينا ملتصقين بذلك الثقب في القاطع دون الابتعاد عنه لحظة. كان توتر شديد يسيطر علينا. كان هذا أصعب ما قمت به حتى الآن في حياتي. حاولت إقناع الشّيهم باقتحام فندق كادويا وضبطهما متلبّسين الجرم، لكنه رفض فكرتي على الفور مؤكداً أننا إن حاولنا الدخول عنوة، فقد يظنّوننا لصين ويوقفوننا. وإن تمكنا من شرح سبب وجودنا هناك وطلبنا مقابلة القميص الأحمر، فسوف ينفون بالتأكيد وجوده أو يقتادوننا إلى غرفة ليست غرفته. وحتى لو نجحنا في التسلّل دون

لفت الأنظار، كيف سنعرف أين نجده بين عشرات الغرف؟ لم يكن يسعنا سوى الانتظار ولو أن ذلك مضجر إلى أقصى حد، وهو ما فعلنا في نهاية الأمر حتى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي.

ما إن لمحنا الرجلين خارجين من الفندق حتى انطلقنا في أعقابهما. لم تكن القطارات بدأت بعد رحلاتها إلى المدينة في مثل هذا الوقت ولا بدّ لهما من قطع المسافة سيراً. كان الطريق المنحدر من قرية المنتجع محاطاً على مسافة حوالي مئة متر بأشجار الأرز وحقول الأرزّ، ثم يكمل بعدها فوق حافّة فيعبر سهولاً مزروعة تتبعثر فيها هنا وهناك أكواخ مسقوفة بالقش، قبل أن يصعد من جديد متسلقاً التلّة نحو القصر. قررنا أن نحاول القبض عليهما لدى عبورهما بين أشجار الأرز حيث لا منازل في الجوار. تبعناهما عن مسافة دون أن ندعهما يغيبان عن أنظارنا. وحين تجاوزنا آخر مبنى في القرية، انطلقنا عدواً بسرعة جنونية وفاجأناهما من الخلف كالصاعقة. التفت القميص الأحمر مذهولاً دون أن يعرف ما الذي حصل. قبضنا عليه من كتفيه وأمرناه بالتوقف. كان العلّيق مذعوراً وبدا على وشك الهروب فالتففت حوله وقطعت عليه الطريق.

دخل الشّيهم في صلب الموضوع دون إضاعة الوقت، متوجّها إلى القميص الأحمر «اشرح لي كيف يمكن لرجل بمرتبة مساعد المدير أن يقضي الليل في كادويا؟

– هل من قانون يمنع مساعدي المديرين من قضاء الليل هناك؟»

كانت نبرة القميص الأحمر مصقولة كالعادة، غير أن وجهه بدا شاحباً بعض الشيء.

– وكيف يمكن لشخص حيّ الضمير إلى حدّ أنه يعظ بأن دخول حانات النودلز والفطائر أمر غير مستحسن لأسباب أخلاقية، أن يجيز لنفسه قضاء الليل في نزل برفقة غيشا؟

كان العلّيق يترقب فرصة للفرار فوقفت في طريقه وصحت بوجهه «ماذا تقصد بشاب صغير لكنه سليط اللسان؟

– لم أكن أقصدك أنت، إطلاقاً...

محاولة وقحة فعلاً لإنقاذ نفسه بحجج واهية وكلام فارغ! تنبّهت في تلك اللحظة بالذات إلى أن يديّ كانتا لاتزالان متشبّثتين بكمّي ردائي منذ أن قبضت عليهما لمنع البيض المخبّأ فيهما من التكسّر حين انحدرت عاديا على الطريق. لمعت فكرة في رأسي فأخرجت بيضتين وقذفتهما في وجه العليق، مرفقاً هجومي المفاجئ بصرخة تليق بالموقف. تحطّمت البيضتان على سحنته وراح صفاراهما يقطران في سيل دبق من طرف أنفه. بدا مخبولاً تحت وطأة الصدمة. انزلق على الجدار وسقط على قفاه وراح يصيح «النّجدة! النّجدة!». بالطبع، كنت ابتعت البيض لاستهلاكي الشخصي ولم أكن أخفيه في كميّ لأرشق به أيّاً كان، غير أن غضباً عظيماً سيطر عليّ في

غمرة اللحظة فتناولت البيضتين ورميتهما على العليق دون أن أدري ماذا أفعل. لكنني حين رأيته يتهاوى إلى الخلف، أدركت قوة هذا السلاح الفتّاك، فناولته ما تبقى منه وأنا أصيح «خذ هذا أيها السافل ابن السافلة! اللعنة عليك!»، حتى بات وجهه مجرد كتلة من الصفار اللزج.

وبينما كنت أعالج العليق بالبيض على طريقتي، كانت المعركة تتواصل على أشدّها بين الشّيهم والقميص الأحمر.

– هل لديك دليل بأنّني قضيت الليل هناك مع الغيشا؟

– رأيت بعينيّ الغيشا حبيبتك تدخل كادويا مساء أمس. إن كنت تظن أن بوسعك الخروج من هذه الورطة بالنّفاق والخداع، فأنت مخطئ تماماً!

– لا حاجة للمخادعة في أي شيء. قضينا أنا ويوشيكاوا الليل وحيدين. إن كانت غيشا دخلت الفندق أم لا، هذا أمر لا يعنينا إطلاقاً.

صاح به الشّيهم «اصمت!» وصفعه بقوة. تراجع القميص الأحمر بضع خطوات مترنّحاً وتمتم «هذه وحشية فاضحة! استخدام أعمى للقوّة دون أيّ تمييز بين الخطأ والصواب! إنه سلوك لا يبرّر!».

– لست أنت من يحدّد ما لا يبرر!

صفعه الشّيهم من جديد وتابع وهو يوسعه ضرباً «هذه هي الحجج الوحيدة المجدية لمخاطبة أفعى مثلك». وبينما كان الشّيهم يتعامل على طريقته مع القميص الأحمر، كنت منهمكا مع العليق بين ضرب ولكم. انتهى الأمر بهما أخيراً جاثمين على ركبتيهما متقوقعين عند أسفل شجرة أرز. ربما كانا منهكين عاجزين عن الحراك، أو ربما كانا مخبولين تحت وطأة الهجوم، غير أنّهما في مطلق الأحوال لم يحاولا حتى الفرار.

زعق الشّيهم بهما «هل نلتما حسابكما؟ أم نكمل؟» وعاود ضربهما.

– هذا يكفي!

التفتّ إلى العلّيق: «وأنت؟ نلت حسابك؟

– هذا يكفي بالطبع!

– هذا هو العقاب الذي يستحقّه سوقيان مثلكما. آمل أن نكون قد لقّناكما درساً وأن تحسنا التصرف بعد الآن. لا يهمّ مهما كانت حججكما محكمة ومتماسكة، الخطأ يبقى خطأ ولن تنجوا به!

لم ينبس أي منهما بكلمة رداً على تحذير الشّيهم. ربما لم يكن لديهما ما يقولانه.

– لن أهرب ولن أختبئ. إن أردتما أيّ شيء مني، فسوف تجدانني في فندق ميناتويا قرب المرفأ. يمكنكما إن شئتما

الذهاب إلى الشرطة أو إلى من تريدان.

- أنا أيضاً لن أهرب ولن أختبئ. سأكون في انتظاركما مع هوتا. وإن أردتما الذهاب إلى الشرطة، أرجو منكما أن تفعلا.

تركناهما على هذه الخاتمة وابتعدنا بخطى حثيثة.

وصلت إلى المنزل قبل السّاعة السابعة بقليل وباشرت على الفور توضيب أغراضي. بالطبع، استغربت السيدة هاجينو الأمر وسألتني عما أفعل. قلت لها «إنني ذاهب إلى طوكيو سيّدتي، لإحضار زوجتي». سدّدت حسابي وركبت القطار إلى المرفأ وهناك توجّهت إلى فندقميناتويا. كان الشّيهم نائماً في غرفة في الطابق الثاني. جلست أكتب رسالة استقالة، لكنّني لم أدر ما يجدر بي قوله فكتبت ببساطة «نظراً إلى ظروف شخصية، أودّ تقديم استقالتي للعودة إلى طوكيو. أشكركم على تفهّمكم». وضعت الرسالة في ظرف وجّهته إلى المدير وأرسلته بالبريد.

كانت الباخرة تبحر في الساعة السادسة مساء. كنّا منهكين واستغرقنا في نوم عميق. حين استفقنا، كانت الساعة الثانية. سألنا الخادمة إن كانت الشّرطة حضرت، لكن يبدو أن أيّ شرطي لم يأت. «إذاً القميص الأحمر والعلّيق لم يقدّما في نهاية الأمر شكوى بحقنا». قهقهنا ضاحكين لهذه الفكرة.

رحلنا أنا والشّيهم في المساء تاركين تلك البلدة اللعينة. وكلّما

كان الساحل يبتعد أكثر فأكثر في الأفق، كان يغمرنا إحساس متزايد بالسّعادة. وصلنا إلى كوبي وصعدنا في قطار سريع نقلنا رأساً إلى طوكيو. حين وصلنا إلى محطة شيمباشي، شعرت وكأنّني خرجت من المطهر بعد طول عذاب وعدت إلى العالم الحقيقي. افترقنا أنا والشّيهم في المحطة وذهب كل منّا في طريقه ولم أره منذ ذلك الحين.

كدت أنسى كيو. ما إن وصلت إلى طوكيو حتى حملت حقائبي وتوجهت مباشرة إلى منزلها دون أن أتوقّف حتى في نزلي السابق. دخلت عليها وأنا أصيح «كيو! لقد عدت!» فقالت بعينين دامعتين «بوتشان! يا إلهي! لم تتأخّر في العودة!» كانت فرحتي لا توصف. أعلنت لها على الفور أنني لن أطأ الريف مجدداً وأنني سأجد منزلاً لنا في طوكيو.

بعد فترة قصيرة، حصلت بواسطة أحد معارفي على وظيفة فَنّي على أحد خطوط الترامواي براتب قدره خمسة وعشرون يناً في الشهر، أدفع منها ستة ينات إيجار منزل. لم يكن المنزل يملك مدخلاً فخماً، لكن كيو بدت راضية تماماً. غير أن المسكينة أصيبت بداء الرئة في شهر شباط من تلك السنة وتوفيت. طلبت مني قبل يوم من وفاتها الحضور إلى جانبها وقالت لي: «أرجوك بوتشان، عندما أموت أريد أن أدفن في المعبد حيث قبر عائلتكم، من أجل راحة

نفسي. ستكون نفسي في سعادة إن رقدت هناك في انتظارك». وقد دفنت كيو في معبد يوغن في كوبيناتا.

بوتشان

تسرد رواية «بوتشان» قصّة طريفة عن أستاذ شاب يتمرّد على «التقاليد» في مدرسة ريفيّة، وهي تعدّ من النّماذج الكلاسيكية في هذا النوع الكتابي، على غرار رواية «الحارس في حقل الشوفان» للكاتب ج. د. سالينجر أو «مغامرات هاكلبيري فين» لمارك توين. تتمتّع هذه القصة بشعبيّة ورواج منقطعي النظير بين القرّاء اليابانيين الشباب وكبار السن على السواء، ولم يكن لمرور الزمن أيّ تأثير على مكانتها بين روائع الأدب الياباني، الأمر الذي حدا بالمختص في الأدب الياباني دونالد كين إلى القول إنها «الرّواية الأوسع انتشاراً في اليابان الحديثة».

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA
أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
9 789948 019817

علي مولا